

دكتور لاري كراب





التواصل الفعّال مع الناس

لماذا نتوق إلى إقامة علاقات مع الآخرين!



Understanding

PEOPLE

التواصل الفعّال مع الناس

لماذا نتوق إلى إقامة علاقات مع الآخرين



د. لاري كراب

ترجمة: إدوارد وديع عبد المسيح

تحرير: مركز بيت الحياة

التواصل الفعَّال مع الناس

« لا بد وأن تبدأ كل محاولة لمساعدة الناس بجهدٍ لفهمهم . ويعد الكتاب المقدس المصدر الوحيد للمعلومات التي يمكن الاعتماد عليها » ، كما يقول الدكتور لاري كراب الذي يؤكد في هذا الكتاب-الحائز على الميدالية الذهبية- على قوة النص الكتابي في تحديد التعقيدات والاحتياجات العميقة للقلب البشري ، مستكشفًا العلاقة المتلازمة بين كل من الحقائق الروحية والنفسية ، ويقدم التواصل الفعَّال مع الناس تصورًا حيويًا للكيفية التي تشكلنا بها؛ من نكون حقًا ؟ وما الذي يجعلنا مميزين في علاقتنا بالآخرين ، بالله ، وبأنفسنا ؟

في ثلاثة أجزاء ، يبدأ هذا الكتاب بتوجيهنا نحو الكتاب المقدس كمصدر التبصر في قضايا القلب المربكة ، ثم يساعدنا أن نمسك بسقطتنا كحملة لصورة الخالق ، ويبين لنا كيف يمكننا استعادة القدرة على عكس صورته في أثناء نمونا نحو النضج والعلاقات المشفية .

يبعث هذا الكتاب على التفكير والتحدي ، كما أنه منطقي ومدقق وكتابي بشكل واضح ، وأنا أرشحه بشدة .

د . جاري كولينز
رئيس التحالف الدولي المسيحي للمشورة

أرشح هذا الكتاب كنصٍ ضروريٍ لمدخل كتابي- ارتكز حول المسيح- لفهم الناس باشتياقاتهم العميقة لعلاقةٍ حقيقية، وعليه فأرشحه لكل من يهتم بدمج علم النفس والأيمان المسيحي.

د. سيانج يانج تان
أستاذ بكلية فولر لدراسات علم النفس العليا

لست أعرف مِن الكُتاب مَن لديه نظرية- تختص بالمشورة- كتابية وعملية مثل لاري كراب. فليس التواصل الفعَّال مع الناس كتاب للمشيرين فقط، لكنه لكل هؤلاء الذين يبغون ربط المفاهيم الكتابية بالحياة اليومية.

د. هاورد ج هندريكس
أستاذ بمعهد دالاس للاهوت



طبعة أولى

يونيو - ٢٠٠٩

الكتاب : التواصل الفعَّال مع الناس
الناشر : مركز بيت الحياة

تليفاكس : (02) 263 770 33 , (02) 26 440 220
موبيل : 012 - 22 61 005
houselifebooks@gmail.com
www.houseoflifecenter.com

حقوق الترجمة : تمت بترخيص خاص من دار نشر Zondervan
المؤلف : د. لاري كراب
المترجم : إدوارد وديع عبد المسيح
تحرير : مركز بيت الحياة
تصميم الغلاف : ماريان مجدي
إعداد وتجهيز
العمل الفني : مركز بيت الحياة
رقم الإيداع : 2009 / 10850
ISBN: 978 - 977 - 6289 - 07 - 9
المطبعة : يوسف كمال ت : 24827074 (02)

Originally published in the U.S.A under the title: **Understanding People**

محتويات الكتاب

الجزء الثالث: النمو نحو النضج

«استعادة الصورة وتصحيح العلاقات»

مقدمة الناشر

عندما أصدر لاري كراب في عام ١٩٧٥ م كتابه المعنون:" المبادىء الأساسية في المشورة الكتابية" "Bacic Principles of Biblical Counseling"، لم يلفت انتباه كثيرين؛ فقد كان المشيرون يعتمدون اعتمادًا كليًا على علم النفس من جانب، أما الرعاة فكان اعتمادهم يَنْصَب على الكتاب المقدس وحده من جانب آخر، ولم يهتم أحد بالمشورة الكتابية على النحو الذي تناوله كراب، ثم أتت الطفرة عندما أصدر كراب عدة كتب تناقش «المشورة»، ومن بينها هذا الكتاب «**Understanding People**» التواصل الفعَّال مع الناس.

الكتاب يغطي مبادىء مثل:

١- مواقف مختلفة تبين الطريقة التي يستخدمها الكتاب المقدس في العلاج.

٢- وصف الطبيعة البشرية؛ فنحن عاطفيون، لدينا حرية الاختيار، شخصانيون، ولدينا إمكانية التغيير الحقيقي.

٣- كيف يمكن أن تتحسن علاقاتنا؛ وذلك بالخروج من التركيز على الحماية الذاتية من الألم وزيادة مشاركتها في حياة الآخرين، ندرك أن الألم أمر طبيعي في الحياة، وينبغي لنا ألا ننفق الكثير من الطاقة في محاولة لأن نشعر أننا بحالة جيدة، وعلينا أن ندرك أن السيد المسيح فيه الكفاية.

يعد هذا الكتاب بالغ الأهمية في تناول المشورة الكتابية في إطار يدور حول «تغيير الإنسان» ويقدم إطارًا لفهم الناس ومشاكلهم.

الكتاب يناقش قضايا شائكة تهم كل مشير يعمل في مجال المشورة المسيحية، كما يهم القارىء الذي يهتم بتطوير ذاته وتغيير نفسه. ويسرنا نشر الإسهامات الجديدة في مجال المشورة للدراسة. قد نتفق معها أو نختلف لكنها ستكون بدون شك مفيدة عن طريق التطور والوصول إلى نظريات جديدة تسهم في إدراك أعمق لكلمة الله وللنفس البشرية وللإدراك العميق لمشكلات الناس ومن ثم الوصول لأفضل الحلول.

الكتاب حاصل على جائزة كتاب الوسام الذهبية.

الناشر

مركز بيت الحياة-هليوبوليس

يونيو ٢٠٠٩

تمهيد

مضت عليَّ الآن سنوات بذلت فيها جهدًا كبيرًا أفكر في موضوع المشورة الكتابية، ثمة نتيجة واحدة على الأقل تبدو مُؤَكَّدةً، وهي أن الموضوعات الأساسية للكتاب تتضمن العديد من الأسئلة الشائكة، وكل منها يحمل بين ثناياه احتمالية أن يؤدي إلى انقسام، وحينما يكون الاحتمال موجودًا تكون الحقيقة على مسافة غير بعيدة عنه. دعونا نتأمل بعض الأسئلة:

أولاً: ما الذي يعني أن نصف نهجًا معينًا من المشورة بأنه كتابي؟

والأمر المتيقن هو أنه ما من شخص مسيحي سيعلن أن أفكاره غير كتابية، وعلى الرغم من ذلك يبدو أن كل من اتخذ مكانًا في مجال تقديم المشورة قد تعرض لانتقاد شخص آخر بأنه لم يكن كتابيًا. ويخصص المشيرون المسيحيون قدرًا كبيرًا من كتاباتهم ومحاضراتهم لشجب مشيرين مسيحيين آخرين، واتهامهم بأنهم ليسوا كتابيين في آرائهم أو أنهم على الأقل ليسوا كتابيين مثلهم.

ومن أين لنا أن نقدّر على وجه الدقة ما إذا كانت المشورة التي يقدمها شخص معين تتضمن ما يجعلنا نطلق عليها صفة «كتابية» ؟

أتذكر أن أحد اللاهوتيين قال: "أن برنامج التدريب على تقديم المشورة سيكون كتابيًا إذا تضمن حدًا معينًا من الفكر اللاهوتي ومدعمًا بدراسات في الكتاب المقدس"،

ويرمي اقتراحه هذا إلى أن المشورة في حد ذاتها أمر غير كتابي فهذا أمر لا علاقة له بالنواحي الكتابية - اللاهوتية، غير أن تدعيم نظرية تقديم المشورة بالدراسات اللاهوتية قد يرفعها إلى الوضع الذي نستطيع أن نصفها فيه بأنها كتابية، وكل منا - في إطار دائرته اللاهوتية المحافظة - يريد أن يكون كتابيًا، ولكن ما الذي يجعل هذا النهج كتابيًا (أو كتابيًا بالأكثر)، ونهجًا آخر غير كتابي (أو كتابي على نحو أقل)؟

ثانيًا: لنتأمل مجموعة من الأسئلة التي تدعو إلى الحيرة:

كيف يتسنى لنا معرفة العلاقة بين الدراسة الكتابية والقضايا السيكولوچية؟

وهل الحصول على درجة في الدراسات اللاهوتية أمر لا علاقة له بأن يصبح المرء مشيرًا كتابيًا جيدًا، أم أن هذا أمر ضروري، أم أنه أمر مفيد فحسب؟

وهل ينبغي على المسيحي الذي يتطلع إلى الانخراط في خدمة المشورة الكتابية أن يدرس علم النفس (العلماني)؟

وهل من شأن هذا أن يفسد تفكيره، أم يوسّع من مداركه؟

وهل من الأفضل مراجعة النظرية العلمانية في ظل تعليم أساتذة علمانيين، أم أنه يُكتفَى بانتقاد النظرية العلمانية بمساعدة أساتذة مسيحيين ملتزمين بالسلطان الكتابي، وإذا كان الكتاب المقدس يكفي للإجابة عن كل سؤال خاص بالمشورة؛ ففي هذه الحالة يجب تجاهل النظرية العلمانية تمامًا؟

تصلني عدة رسائل أسبوعيًا للسؤال عمّا إذا كنت أوصي بالالتحاق بمدرسة علمانية أو بمدرسة مسيحية لدراسة المشورة، فما هي الإجابة التي يتوجب عليَّ أن أقدمها؟

وهل الأساس المتين المتمثل في الكتاب المقدس يُعدُّ كافيًا لتأهيل شخص ما ليكون مشيرًا فعالاً؛ أم أن الأمر يتطلب تدريبًا عمليًا آخر سواء من ناحية تطبيق الكتاب المقدس أو طريقة التطبيق؟ وما هي المؤهلات أو التدريب أو الخبرة التي تريد توافرها لاتخاذ قرارك بإرسال ابنتك التي فقدت شهيتها للطعام، أو أبيك المكتئب طلبًا للعلاج؟

ثالثًا: ماذا عن الموضوع الذي كان مثار جدل كبير والخاص بتقدير الذات؟

وهل لم يكن «چيمس دوبسون James Dobson» كتابيًا حينما أكّد على أهمية الاعتزاز بالنفس بالنسبة للشاب وهو في مرحلة النمو؟ وهل يُعد «چاي آدمز Jay

Adams» كتابيًا بالأكثر لأنه يَعْلم أن الناس في حاجة إلى الله، وأنهم ليسوا في حاجة إلى أحد سواه، وليس إلى تحسين صورة المرء في أعين الآخرين؟

وماذا عن «لاري كراب Larry Crabb»؟ هل هو حقًا صاحب نظرية، ومحب لذاته ويتخفى إلى حد ما في صورة مسيحي مستقيم الرأي؟ وهل يقترب من نوعية تماثل وجهة نظر «شوللر Schuller» عن احترام الذات حين يتكلم عن احتياجات الإنسان إلى الأمان وإلى الشعور بالأهمية، لعله توصَّل بالفعل إلى نظام يتمركز حول الإنسان مبتدئًا بأفكار سيكولوچية عن الاحتياجات الشخصية بدلاً من النموذج الذي يُرَكِّز على الله والذي يؤكّد - وعن حق - على قداسة الله وخطية الإنسان، وعلى إنجيل المغفرة والمصالحة بواسطة دم الحمل. والبعض - بحسب ما قيل لي - يتساءل ما إذا كان في صياغة أفكاره قد اقترب من «ماسلو Maslow»، «روجرز Rogers»، «وإيليس Ellis» أكثر من اقترابه من «موسى، ولوقا، وبولس».

لقد وصل موضوع تقدير الذات تقريبًا إلى وضع الحد الفاصل الذي أدى إلى انقسام المشيرين إلى فرق مختلفة؛ فنجد مجموعة كبيرة - وقد اصطفت على جانب واحد من وادٍ عميق - ينصحوننا بحرارة بأن نحب أنفسنا كشرط لازم لكي نحب الآخرين، والنص الرئيسي الخاص بهم هو أن تحب الآخرين كما تحب نفسك، وقد تم تفسير ذلك بأنه يعلِّمنا أن محبة الذات يجب أن تتوافر حتى تكون محبة الآخر ممكنة. والمشكلة الأساسية وراء المتاعب التي تبدو على السطح تكمن في القبول المتدني للذات، الأمر الذي اعتبره البعض أنه حقًا جوهر الخطية؛ وعلى ذلك يجب أن تُوجَّه جهود المشيرين إلى مساعدة الناس على قبول أنفسهم بشكلٍ تام.

وثمة مجموعات أخرى تعتقد أن الناس بالفعل مهتمون بأنفسهم إلى أقصى درجة، وأن الجهود التي تُبذَل لبناء الاعتزاز بالنفس تزيد المشكلة سوءًا. والمشكلة الحقيقية ليست في التطلعات التي لم تتحقق - كما يقول هؤلاء الناس - بل تكمن في الفساد؛ لقد أعمت الخطية قلوب الناس وعقولهم إلا أن الحق المستمد من الكتاب المقدس هو وحده الذي يستطيع أن يجلب النور الذي يحتاجونه، ومن هنا تبرز أولوية دراسة كلمة الله.

والمشيرون الذين يتبنون هذا الاتجاه يعتبرهم المدافعون عن مبدأ محبة الذات، غير

مبالين باحتياجات البشر على الإطلاق، وأنهم أسرى لأوضاعهم التفسيرية المتحجرة؛ حتى إنهم افتقروا إلى الحقيقة المشجعة المتعلقة بمحبة الله المؤكّدة التي تنبض بها رسالة الكتاب المقدس كله.

وعلى الجانب الآخر من الوادي يقف المفسرون الجامدون متشككين في أن يكون تقدير الذات هو حصان طروادة الذي يستخدمه العدو، وهي الحيلة التي أتاحت قدوم فلسفة إنسانية كافرة مغلَّفة بلغة تبدو مسيحية إلى داخل أسوار مدينة الله، وينصب تخوفهم أساسًا من تشويه الإنجيل بالتمركز حول ذات الإنسان الذي يتخفى بين طيات تعاليم تُفسح مجالاً لاهتمام الإنسان بقيمة الذات الإنسانية؛ وعلى هذا الأساس يرفضون هذا التعليم ويعارضونه بقوة معتقدين أنهم يحاربون بحماسة في سبيل الإعلان الذي سُلِّم مرةً واحدةً، وهم يميلون إلى اعتبار مؤيدي مبدأ محبة الذات جماعات عديدة؛ فالبعض منها مؤمنون حقيقيون يريدون أن يكونوا كتابيين، وآخرون يتبنون فكرًا تحرريًّا، أو على الأقل فكرًا مجددًا غير أن الجميع مخدوعون، خاطئون، بل يشكلون أيضًا نوعًا من الخطورة.

لم أجد نفسي منحازًا بشكل واضح لأي من الفريقين؛ فالفريق الذي يقدر الذات يبدو أنهم جعلوا من الخطية شيئًا أقل بشاعة عن أن تكون عصيانًا متغطرسًا واكتفاءً ذاتيًّا غبيًّا، ولذلك اقترحوا علاجًا مخففًا إلى درجة لا يصلح معها للتعامل مع المشكلة الحقيقية، فتوفير أجواء مناسبة للنمو أمر لا يصلح لعلاج مناسب حينما يكون المرض الخبيث الذي ينمو بسرعة هو المشكلة.

وعلى صعيد آخر، من شأن أسلوب التفسيرات الجامدة للكتاب المقدس أن يسلب من النص حيويته بالنسبة لعلاقته بالحياة وقدرته على تغييرها، ولكي يحافظوا على فهم غير شخصي للكتاب بعيد عن العلاقات، عليهم أن يغفلوا عن الكثير من الفقرات التي تُبرز أهمية المجتمع والصداقة الحميمة، وكثيرًا ما يتولد عن نهجهم أناس يتفوقون في الدراسات ويتسمون بجمود فكرهم اللاهوتي بأكثر من تفوقهم في المحبة، والحياة المسالمة، والقداسة المختارة، وتراهم يُصرون على أن التفسير الصحيح «للكلمة» لا يفصل إطلاقًا بين العقيدة والممارسة، وأن الكلمة إذا ما فُهِمَت وأُعلِنَت وأُطيعَت تعد في

حد ذاتها كافيةً لتغيير حياة البشر، لكن ـ على نحو ما ـ أصبح الله منفصلاً عن كلمته، ولم يوصلنا الجهد الذي قُضِيَ في دراسة الكلمة إلى الأقنوم الذي أوحى بالكلمات التي ندرسها.

والتعليم الذي يعتمد على التفسيرات الجامدة يترك جوانب متعددة مهمة من التجربة البشرية دون مساس، ولذلك لا تتغير؛ فالحق المفعم بالحياة والذي ينفذ إلى جوهر الموضوعات المتعلقة بالحياة قد استُبدِل بطريقة ما بالحق التقني الذي يُعِدّ الناس للنجاح في الامتحانات وإلى إلقاء عظات تفسيرية سليمة ولكنه لا يعلمهم أن يتواصلوا بعمق، أو أن يقيموا علاقة ذات مغزى أو أن يعلنوا الحق فيما يختص باحتياجات الإنسان الحقيقية. إن أي فهم للكتاب المقدس لا يعين على الإجابة عن الأسئلة الصعبة المتعلقة بالكيفية التي ننشغل بها وبشكل مثمر في حياة الآخر، لا يُعَدّ فهمًا حقيقيًا على الإطلاق.

وكل مسيحي يعتقد أن الكتاب المقدس هو كلمة الله المعصومة والتي لها سلطان، وأن فيها الكفاية، يرغب بحرارة في أن يُخضِعَ تفكيره للنص وأن يلقى تأييدًا كتابيًا واضحًا، غير أنه فيما يلجأ إلى الكتاب المقدس بحثًا عن إجابات للأسئلة التي عادةً ما تواجه المشيرين (مثل: ما الذي أفعله مع الفتاة المراهقة المنطوية على نفسها، والتي تكره نفسها لأن والدها كان يتحرش بها جنسيًا لمدة ثلاث سنوات ولا يزال يفعل ذلك؟).

وهنا تبرز مجموعة رابعة من الموضوعات المزعجة:

ما هي مبادئ التفسير والتطبيق التي يجب أن تحكم جهودنا حتى نستخلص من النص المعلومة اللازمة لمساعدة هذه الفتاة الضحية؟

وهل نعتقد حقًا أن الكتاب المقدس هو الكتاب الصحيح الذي نجد فيه إجابات لهذه النوعية من الأسئلة؟

إذا كان الأمر كذلك، فكيف نأخذ حذرنا من «عثورنا» على دعم لمواقف وأوضاع سبق أن قاومناها قبل أن نأتي إلى النص؟

وهل المشير المُخلِص المجدِّد ـ الذي لم يتعلم الفكر اللاهوتي التقليدي أو اللغات الكتابية ـ لا يستطيع سوى التحليل ولذلك يعتمد على المفكرين اللاهوتيين المدرَّبين للوصول إلى تفسيرات «حقيقية».

وإذا كان الأمر كذلك، لماذا لا يرد المفكرون الكتابيون إلا نادرًا على الأسئلة الصعبة التي يطرحها الناس عن الحياة؟

وهل يعد الكتاب المقدس مرجعًا للمشيرين، أم أنه ليس كذلك؟

يصر البعض على أن الكتاب المقدس يحوي إعلانًا لكل ما نحتاجه لنكون مجهَّزين تمامًا للحياة كما ينبغي لنا كمسيحيين، ومع ذلك - وأعتقد أن هذا أمر متعارض لما يرونه - يحيلون الأشخاص الذين يعانون من مشاكل نفسية إلى الأخصائيين المؤهَّلين على المستوى المِهَني، أي المشيرين الذين لهم دراية بالفكر الذي يقع خارج نطاق الكتاب المقدس، وهم يقبلون التمييز الذي يشار إليه عادةً بين المشاكل النفسية والروحية، ولا يلجأون إلى الكتاب المقدس إلا عند التعامل مع هذه الأمور الروحية فقط.

فهل هذا أمر مشروع، وهل تشكّل الاضطرابات النفسية حقًا نوعيةً منفصلةً عن الاهتمامات الروحية؟ وإذا كان الأمر على هذا النحو، فما الذي يحدد الفرق؟

وربما لا يكون الخوف من الوحدة عنوان لشيء فُهِم بشكل صحيح، وقد يتم الاعتراف به كمشكلة روحية يتناولها الكتاب المقدس من حيث المبدأ على الأقل، ولعل المشاكل النفسية والمشاكل الروحية تأتيان من ذات المصدر.

وعلى الرغم من ذلك - وإذا كان هناك جانبان منفصلان من الصعوبة - هل بوسعنا الثقة في الأخصائي النفسي المتمسك بأفكار بالية من ناحية تبصيرنا بالمشاكل السيكولوچية، تمامًا كما نثق بالطبيب الكفء - سواء أكان قديسًا أو خاطئًا - في تشخيص الأمراض الطبية العضوية وعلاجها؟ أم أن «كرنيليوس ڤان تيل Cornelius Van Til» كان على حق في حديثه عن التأثيرات العقلية للخطية، والتي توصم كل نتيجة يصل إليها أي شخص غير مؤمن بأنها خطأ أخلاقي؟

ربما يتوجب علينا الرجوع إلى الاحتمال الآخر القائل بأنه لا توجد سوى نوعية واحدة من الاعتلال، وأن ما يطلق عليه مرض عقلي وتفاعلات عصابية هي في واقع الأمر مشاكل روحية معقدة، أُعيدت تسميتها والتعتيم عليها ولكنها لا تزال موضوعات يقدم لها الكتاب المقدس إطارًا كافيًا لفهمها، وإذا انتهجنا هذا النهج من التفكير فما موقفنا من كم البيانات الآلية التي جمعها باحثون دينيون؟ هل نتجاهلها باعتبارها عديمة

الفائدة؟ هل ننتقي تلك الأجزاء التي تدعم الأفكار الكتابية وتتحدث عن الوثنيين الذين يعثرون في الحق؟ هل نعيد تفسيرها من خلال افتراضات كتابية سبق أن لاحظها أخصائي نفسي علماني؟

الأسئلة لا نهاية لها وهكذا أيضًا الإجابات المختلفة التي اقترحها المختصون المسيحيون، والوضع في مجال تقديم المشورة المسيحية يشبه - في كل ناحية سيئة - تَمَزُّق الكنيسة إلى معسكرات طائفية متنافسة تحمي كل منها السمة التي تميزها وتحارب في سبيلها وتعتبرها معركة حياة أو موت، وكل منها تعامل الأخرى في بعض الأحيان معاملةً طيبةً وفي أحيان أخرى باحتقار وازدراء.

ويتألف مقدمو المشورة المسيحيون من مجموعة متنوعة من المدارس الفكرية المعروفة تقريبًا، والتي يتحلى البعض منها بكل المفردات التي تتحلى بها الحركات الراسخة:

- قادة معروفين تمامًا وأسماء لامعة.
- تلاميذ متحمسين.
- مؤتمرات خاصة يحضرها بصفة أساسية الأعضاء المخلصون.
- قائمة يُتَّفَق عليها بأسماء المؤلفين والمحاضرين.
- لغة مصطلح عليها بين الجماعة لا تُلقَّن إلا للعضو الذي يتم قبوله بها.

إن احتمال الوصول في يوم ما إلى اتفاق واقعي نتيجة مواصلة الحوار والدراسة أمر ليس جيدًا، ليس أفضل - في اعتقادي - من احتمالات إيجاد موقف مسكوني تسهم فيه كافة الطوائف المحافظة بكل رضا؛ فالاختلافات ستظل قائمةً حتى بين أولئك الذين التزموا بمواقف لاهوتية أساسية واحدة، ولعله أمر لا يمكن تجنبه وعلى ذلك يتوجب تحمله، بل ولعله أمر جيد؛ ذلك أنه في عالم تُدار فيه المعركة التي ترمي إلى فهم ما قاله الله بواسطة عقول غير معيبة، فمن ثم فإن تنوع الفكر في إطار تم تحديده جيدًا قد يكون أمرًا جيدًا؛ فكثيرًا ما يستمع المسيحيون إلى بعضهم البعض ويكون دافعهم العثور على نقاط الاختلاف، وليس من أجل أن يشجع كل منهم الآخر، وتكون النتيجة هي القضاء على كل فكر مبدع كان بمقدوره أن يوسّع فهمنا للجوانب التي تفتقر إلى الوضوح.

وتوضيح الآراء المختلفة وعدم التشدد بالنسبة للأفكار التي تفتقر إلى الدقة، مع الالتزام المشترك بأن يكون الكتاب المقدس هو الحكم والمحكم النهائي، لا بد وأن يحفزنا على فحص مثمر لمواقفنا، عندئذ يمكن أن نرى بصورة أوضح أين قصر فهمنا للأمور عن التصدي بنجاح لبعض الموضوعات المهمة، وإذا كنا معترفين حقًّا بمكانة الكتاب المقدس الرفيعة ستكون النتيجة أن يدفعنا هذا إلى الرجوع ثانيةً إلى النص، وربما يكون ذلك بوسائل جديدة للدراسة، وفي حماسة بالغة بثتها فينا بلا ريب الأسئلة الملحَّة التي تحتاج إلى إجابات، وفي جو تسوده المشاعر المتبادلة من محبة واحترام وتحمل لابد وأن يكون الحوار مثمرًا. وعلى الرغم من ذلك فإن الحوار بين المسيحيين - وغير المسيحيين أيضًا - كثيرًا ما ينتهي وبسرعة إلى شقاق، وتوتر وعداء، ثم إن روح التحزب الذي يغذيه سوء الفهم واللغة الطنانة الطائشة، لا بد وأن يشجع على اتخاذ مواقف الريبة والتشكك تجاه أي شخص يكون ولاؤه خارج نطاق دائرتنا الضيقة، وتشجيعنا الضار لمن هم على شاكلتنا... لماذا؟

لماذا يميل مجتمع أولاد الله إلى التفاهة، والتعصب لطائفته، والنميمة في الوقت الذي كان يتوجب علينا فيه - دون بقية الناس - أن نُظهِر أكبر قدر من التعاطف كل منا تجاه الآخر عند اختلافنا؟

الإجابة - على ما أظن - بسيطة ولكنها مأساوية: »نحن دائمًا نتخذ موقف الدفاع، وترانا متكبرين، ونشكّل تهديدًا للآخرين، والذين يدافعون عن موقف واحد يفترضون أحيانًا أن غرضهم الوحيد أثناء المعسكرات المشتركة هو: أن نعلِّم ونصحِّح، لا أن نستمع إلى غيرنا إطلاقًا، ونحن نضع أنفسنا أننا في جانب الحق، مع أننا في واقع الحال في موقف الدفاع دون أن ندري، وبالنظر إلى أننا نادرًا ما نفحص أهدافنا فيما نتحاور، مفضلين بالأحرى أن نعتقد بسذاجة أن روح الله هو الذي يولِّد فينا حماستنا، وتنتهي المناقشة وإذا بكل طرف يخدعه بره الذاتي فيلتزم بموقفه، وبكل تقوى - حسب ظنه - يرفض أي موقف آخر.

ويوجد — بالطبع — ما يسمى بالوقوف المشروع مع الحق، والخادم المسيحي عليه أن يدخل الثقافات الأخرى، وهو مصمم على ألا يتهاون إطلاقًا بالنسبة لحق الإنجيل في

محاولة بناء الجسور مع الآخرين؛ فهو هناك ليربح للمسيح مقتربًا بمن هم في وضع متباعد إلى معرفة الحق، إن هدفه الواضح لا يتضمن إعادة إنشاء الأفكار عن طريق الحوار، ويعتقد المشيرون المسيحيون أيضًا أن حق الله ليس مجموعة مطاطة من المفاهيم المهلهلة التي تتناغم وتسعد أي موقف فكري؛ فهناك حق – وهناك خطأ، والكتاب المقدس هو المعيار الأساسي لقياس ما هو حق، وما هو باطل.

وتوجد بين المسيحيين الذين يلتزمون بنفس القدر بسلطان الكتاب المقدس خلافات كبيرة حول موضوعات مثل الأمور الكنسية، والأخوية، والكائنات والظواهر الروحية، وعلينا أن نتمسك بمواقفنا المدروسة بكل قناعة وإخلاص، غير أنه داخل عائلة أولئك الذين يعترفون بربوبية المسيح وسيادته، وبسلطان الكتاب المقدس، هناك مواقف معينة يجب أن يتسموا بها؛ فمن هم من خارج، يجب أن يروا بسهولة أننا نكلم بعضنا بعضًا بروح المحبة والتعاون المتبادل، وأخشى أنه عوضًا عن ذلك يلاحظون بالأكثر وبصفة عامة موقفًا يقول: "سأبحث لأرى أين جرحت أفضل مشاعري ثم أنسحب بصيحة غضب مبرر".

وحين تختلف آراؤنا كمشيرين مسيحيين - وهذا ما لابد وأن يحدث - يجب أن نظل على تمسكنا بمعتقداتنا فيما نسعى لتوضيح ما يميزنا، وحينما نعتقد أن هناك خطأً واضحًا، أو اتجاهات خطيرة، علينا أن نتمسك بموقفنا، وبكل تواضع، ولكن بكل ثبات وصلابة أيضًا.

والمشكلة هي أننا لا نحاول حقًا القيام بذلك على أحسن وجه، بل إننا نستمتع - بهدوء وعن وعي - بانتقاد أي موقف مخالف لنا؛ فترانا نهز رؤوسنا في أسف وحزن على الخطأ الذي ارتكبه أخ لنا في الوقت الذي ينبض فيه قلبنا بالإثارة والفرح لشعورنا بتفوقنا وإعلان خطأ شخص آخر، ولا سيما إذا كان أمام من يشاركوننا فكرنا من الزملاء المساندين لنا، يكاد هذا أن يشابه تجربة حشد مثير للمشجعين من طلبة مدرستنا الثانوية قبل المباراة النهائية.

ونحن كمسيحيين - دون بقية الناس - علينا الاعتراف بأننا نخدع أنفسنا بقولنا إننا نرمي إلى مقاصد نبيلة مع أننا نتصرف بعجرفة متظاهرين بالصلاح والتقوى، وعلينا أن

نعترف بميلنا إلى تمجيد أنفسنا، فنتوخى الحذر وبصفة خاصة حين يعبر عن الاختلافات القائمة بيننا، وينبغي أن نقضي مزيدًا من الوقت في الصلاة وفي فحص أهدافنا، متوقعين أن نجد أغراضًا ذاتية لخدمة ذواتنا، ويجب علينا تجنب اللغة الطنانة المثيرة التي تختفي وراء ادعاء الشجب الجريء للخطأ، ونستبدل ذلك بعقلانية يسودها الود عند مناقشة رأي أحد إخوتنا المسيحيين، ويجب أن نعلم أن الجرأة يمكنها بسهولة أن تتحول إلى غطرسة، وإذا أخذنا الوضع الحالي في الاعتبار فإن مستقبل المشورة الكتابية - في اعتقادي - يبدو كئيبًا، وتشير كافة الاحتمالات - والبعض منها قد تتحقق بالفعل - إلى أنه - وإلى حد كبير - يُفرِّق فعلاً بدلاً من أن يجمع. ومن السهل أن يصبح منصةً يقيم فيها القادة تماثيل لأنفسهم بدلاً من أن يستخدموا أدوات لغزو الأنفس المضطربة - بكل حنان - بحق الله، وهذا الوضع يمكن أن يتحول إلى مناسبة للنزاع والكراهية بدلاً من أن يكون وسيلةً لتحسين العلاقات بين الشعب الذي أُوصي بأن يحبوا بعضهم بعضًا. غير أن الأمور قد تكون على العكس من ذلك، وإذا كان للمشورة الكتابية أن تحقق غرضها الإيجابي وهو مجد الله الذي يستطيع وحده شفاء منكسري القلوب، ويصالح الخطاة لنفسه، فأقترح أن نخضع أنفسنا لبعض الخطوط الإرشادية القليلة البسيطة - ولو أنه يمكن انتهاكها بسهولة - فيما تناقش الموضوع.

الخطوط الإرشادية:

- توضيح مواقفنا بعناية، وعدم اتخاذ مواقف دفاعية، وبيان تناغمها مع الكتاب المقدس مع الابتعاد عن اللهجة الهجومية، وطرح قناعاتنا من ناحية صحتها وفائدتها، وحين يكون ضالة تردد في الإقناع، لابد وأن تقل الحماسة، والفحص الدقيق لدوافعنا الذاتية أمر مطلوب حتى يمكن اتباع الخط الإرشادي الأول.
- أن نبدي استعدادنا الصريح لتغيير مواقف نتمسك بها حاليًا، إذا اعتقدنا أن التغيير تسانده أفكارًا جديدةً من الكتاب المقدس. وعلينا أن ندعم هذا الاستعداد بحضور المؤتمرات التي يقوم بالتعليم فيها مشيرون مسيحيون آخرون، وعلينا أن ندرس آراءهم ونفكر فيها مليًا، وذلك من خلال الحوار المباشر، وجهًا لوجه، علينا دعوة مفكرين لاهوتيين لتقييم ذرائعنا المستمرة من الكتاب المقدس.

- العمل بوعي ومهارة لكي يكون إقناعنا قويًا، وذلك بتجنب الوقوع في الخطأين التاليين: الانحياز والمجاملة (الانحياز للوحدة على حساب الحق).
- الانغلاق على الذات (القناعة إلى حد إدانة وجهة النظر الأخرى حتى قبل فهمها). علينا أن نوافق حينما نستطيع، ولا نوافق حين يتوجب علينا ذلك، وأن نتعاون عندما يكون التعاون ممكنًا، دون التهاون فيما يختص بمتابعة مقاصدنا النبيلة.

حاولت في هذا الكتاب اتباع هذه الخطوط الإرشادية وقصدت أن أقدم بعض ثمار جهودي المتعلقة بفهم المشورة الكتابية، ولا أعتزم تدعيم وإيجاد مدرسة أخرى من مدارس تقديم المشورة، ولكن أعتزم بالفعل أن أقدم أفكاري بطريقة من شأنها أن تدعم مزيدًا من المناقشة، وتوضح سوء التفاهم، وتدفعنا بعمق نحو حكمة الله بمزيد من الأسئلة، والقراء الذين لهم دراية بكتبي السابقة، سيلمسون تحركًا في مفاهيمي، ولكنهم لن يلمسوا - حسبما أعتقد - تغييرًا أساسيًا، وعلى سبيل المثال، تجدني أفضّل التحدث الآن عن الاشتهاء العنيف في قلب الإنسان لإقامة علاقة مؤثرة، وليس الاحتياجات الشخصية للأمن والشعور بالأهمية. ولقد فهم البعض أنني أعلِّم بأن احتياجات الإنسان للأمن والشعور بالأهمية تحدد طبيعته الأساسية؛ وعلى ذلك تبقى هذه - وعلى نحوٍ سليم - موضع اهتمامه طوال حياته، والنتيجة - بحسب ما فهمها البعض - هي تركيز الإنسان الأساسي على الإنجاز وليس التركيز على الله بصفة جوهرية، وعلى طاعته والعمل من أجل مجده.

وبالنظر إلى أن اختياري لكلمة «احتياج» يبدو أن البعض قد فهم منه ما لا أعتقده، بل وأرفضه بشدة، ف آمل أن يكون من شأن الإشارة إلى (الاشتهاء العميق) أن يولد العطش الذي لا يستطيع أحد أن يرويه سوى الرب وحده، وأن يوصل وبشكل أفضل ما كنت أؤمن به دائمًا، وثمة تجديدات أخرى في تفكيري - والبعض منها جوهري - سوف تتضح للقارئ الواعي، ولا يرمي هذا الكتاب إلاَّ إلى تقديم إطار فحسب للتفكير في موضوعي المشورة والتلمذة، وأن تعرف ما هي الأسئلة التي تطرحها، وما هي الملاحظات التي تشير إليها أثناء ساعة المشورة، فهذا يتطلب إحساسًا مميزًا بالناس، وهو إحساس لا يتأتى إلا من خلال سنوات من تأمل الناس والعمل معهم.

والإلمام التام بالمفاهيم التي تضمَّنها هذا الكتاب لن يهيئ الشخص بشكل مباشر للقيام بالعمل كمشير فعال، ولكنه ـ بحسب ما أعتقد ـ يقدم له أساسًا لفهم جيد للناس، ومناقشة الطريقة التي يحدث بها التغيير في الناس، وكيف يدعم المشيرون هذا التغيير الذي ينبغي أن يقوم على أساس معرفة الكيفية التي يعمل بها الناس، وكيف تتطور مشاكلهم. وفيما كان كاتب هذه الكلمات يكتب هذه الصفحات، كانت صلاتي المخلصة أن يكون هناك اهتمام متزايد وودي بين المسيحيين الذين تراهم على خلاف بالنسبة لموضوعات كثيرة، لكنهم متحدون من ناحية الأساسيات. ليتنا جميعًا نجد سمو المسيح وسلطان الكتاب المقدس في كل جهودنا المتعلقة بتقديم المشورة.

يسوع هو الطريق

«لأني لم أعزم أن أعرف شيئًا بينكم إلا يسوع المسيح وإياه مصلوبًا» (١كو٢:٢)

تجدني في بعض الأحيان أتساءل: «ماذا إذا كانت الحلول الخاصة بمشاكل الحياة أكثر بساطةً مما تتوقعه ثقافتنا السيكولوچية المعقدة؟» لقد أصبحت تعقيدات نظرية «فرويد Freudian»، بالنسبة للإنسان العادي في عالم اليوم، أقل بكثير مما كانت عليه، ومن الواضح أن «السيكولوچية الشعبية» - سواء أُضفي عليها الطابع المسيحي بواسطة «روبرت شوللر Robert Schuller»، أو تُركت على شكلها العلماني بواسطة «وين دواير Wayne Dwyer» - قد أثرت في الخيال الحديث؛ فكثيرون من الناس ينجذبون نحو الحلول غير المعقدة للأسئلة البالغة العمق والمزعجة، المتعلقة بشئون الحياة، وربما يكون الاتجاه إلى الحلول البسيطة أمر طيب. وهي بالطبع - في كثير من الأحيان - تشجع الناس على قبول الأفكار البسيطة التي تتجاهل التعقيدات الحقيقية، والتي يجب أن تُؤخَذ في الحسبان لفهم كامل لحقيقة الأمور. ولعل الاتجاه يعكس أيضًا الرغبة في العثور على حلول سريعة غير مؤلمة لتحل محل الحاجة إلى السير في الطريق المكلف الذي يؤدي إلى سعادة حقيقية.

وعلى الرغم من هذا فإن الاعتقاد بوجود حلول بسيطة قد تكون له فائدته، وربما تكون الإجابات عن الأسئلة المهمة بسيطة حقًّا، والحلول الخاصة بالمشاكل الشخصية المحيرة قد تكون صحيةً من الناحية العملية، غير أنه ربما يكون استيعابها أو على الأقل التصريح بها سهلاً.

أثناء الآلاف من الساعات التي قضيتها بالفعل في محاولة التوفيق بين الأزواج، خطر لي أكثر من مرة أنه لو انشغل الأزواج أكثر بزوجاتهم، وإذا كفّت الزوجات عن محاولة تغيير أزواجهن إلى ما هو أفضل، فإن معظم الزيجات ستتحسن حقًا، والأمر ليس صعبًا أو معقدًا، ولكن العقبة الكبرى التي تعترض ذلك تتمثل في العناد، وليس الفهم المحدود، ولا أعتقد أن الأطفال سيكونون أكثر طاعةً، وجديرين بمحبة لا حدود لها، إذا أجاب الوالدان - بشكل صحيح وبأمانة - عن بعض الأسئلة الأولية التي يطرحها جميع الأطفال:

أولاً: «هل تحبني؟» الإجابة الصحيحة هي: «من كل قلبي، والدليل الواضح هو التزامي بالارتباط بك».

ثانيًا: «هل أستطيع أن أعمل ما يحلو لي؟» «الإجابة الصحيحة:» كلا، ليس بدون ثمن».

وفيما يلي عينة من النتائج الأليمة الناجمة عن العناد في مقاومة خطة الله:

أصحاب مرض «العصاب الحصري» - وهذا وصف خيالي نطلقه على الأشخاص الذين هم عصبيو المزاج أكثر من الآخرين - قد يجدون سلامًا أكثر بمراجعة الأمور المتعلقة بمستقبلهم والتي يعتقدون أن الله لا يستطيع التعامل معها، وأن يتعلموا أن يأخذوا مواعيده بمحمل الجد وأن يفوق اهتمامهم بهذا تركيزهم على ابتلاع أقراص الدواء وبحثهم عن جذور مخاوفهم في الصدمات التي تعرضوا لها في طفولتهم، والاكتئاب قد تخف حدته إلى درجة كبيرة جدًّا عندما يتفهم المرء حقائق القصد المسيحي من الحياة ورجاءه في الغد بأكثر مما لو قام هذا الشخص بالتعتيم على الأمور التي يكتمها والتي تؤلمه في العلاج التنفيسي.

«ليس هناك طريق آخر لتكون سعيدًا في المسيح سوى أن تثق فيه وتطيعه». هل يمكن أن يكون الأمر حقًّا بهذه البساطة التي تقول بها هذه الترنيمة؟ ولماذا تبدو هذه النوعية من التفكير ساذجةً لا رجاء فيها إلى هذا الحد، وتبدو زائفةً إلى حد خطير؟ ولماذا يبدو الناس الذين يتحدثون عن «الحل في المسيح» وكأنهم متعصبون بُلَهاء، بدلاً من أن يظهروا بمظهر المحترفين الواعين الذين يصفون الحلول النافعة؟

وإذا كانت هناك «بساطة في المسيح» تنطبق على مجال المشورة، إلا أنها غابت

بطريقة ما وبشكل مستمر عن فهم معظم الأخصائيين النفسيين والمفكرين اللاهوتيين، وليس من بين هاتين المجموعتين من عَمَل الصواب بأن وجَّه اهتمامًا خاصًا ليفهم عمليًا كيف أن سقوط الإنسان في الخطية له علاقة بفقد الشهوة إلى الطعام، والاكتئاب، والجنسية المثلية، وما إلى ذلك، وكيف أن حلول هذه المشاكل موجودة في المسيح، في الكتاب المقدس.

وكثيرًا ما يعيد علماء النفس - وبعض اللاهوتيين والوعاظ - تعريف الخطية بأنها «نقص في تقدير الذات أو عدم القدرة على المحبة»، أو بأي تعريف آخر ماعدا أنها «شر من الناحية الأخلاقية»، أو أنها تمرد يستحق التبكيت، وإذ يولون ظهورهم للرأي الكتابي الأساسي الذي يبين كيف أن الخطية تسللت إلى كل جزئية من شخصية الإنسان، فمن ثم يقدمون حلولاً لمشاكل الناس لا تتطلب العمل الكفَّاري الذي عمله المسيح على الصليب، أما الجهود التي يبذلونها لحل المشاكل بمنأى عن المسيح، قد يغلفونها بنظريات مؤثرة واللجوء إلى الأبحاث الحالية؛ حتى تبدو أفكار الله بالنسبة لحل نفس المشاكل وكأنها عاجزة بوجه عام وأنها عقيمة عفا عليها الزمن.

أما المفكرون اللاهوتيون - ومن بينهم، في بعض الأحيان، وبصفة خاصة المحافظون - فكانوا أيضًا مَبعَث إحباط من ناحية عجزهم عن تقديم حلول مبسطة لقضايا الحياة المُلِحَّة، ومع استثناءات قليلة فإن كفاءتهم الفنية وتعليمهم قد أنتجا نقاطًا مثيرةً للجدل أكثر بكثير من إنتاجها لمبادئ يتم الالتزام بها في الحياة، أما الحق الذي يدعمه الكتاب المقدس فقد قطعوا كل صلة به، وكان من شأن المعتقدات التقليدية الخالية من العاطفة أن أنتجت جيلاً من القادة المسيحيين المتحجرين الذين - بكل بساطة - لا يستطيعون الارتباط بشعبهم.

وأرجو ألا يسيء أحد فهمي؛ فإني على قناعة بأن الدراسات الأساسية - والتي قد تكون لها علاقة مباشرة بالصراعات التي يعانيها أي شخص - هي دراسات مشروعة ولازمة، والتطور الواعي للفكر اللاهوتي الكتابي والنظامي يجب أن يُتَّخَذَ كالأساس الذي يُبنى عليه كل شيء آخر. وإن لأدوات التفسير كلها (اللغات الكتابية، تحليل النص، والمعرفة الخاصة بالثقافة) قيمة حقيقية، غير أن الالتزام الجدير بالثناء بدقة

التفسير كان يفضي إلى إنتاج إجابات دقيقة لكثير من الأسئلة التي لم تكن تزعج أحدًا سوى الزملاء المفكرين. وإن الآباء الذين تَمَلَّكهم القلق، والأزواج (والزوجات) المتألمين - والذين عصفت بهم الكآبة، والمصابين بشره الطعام، الذين يكرهون أنفسهم - يلجأون إلى معلمي الكتاب المقدس طلبًا لإجابات عن أسئلتهم الشخصية المُلِحّة، ولكن دون جدوى.

هناك خطأ ما، والفكر اللاهوتي الحقيقي كله في طبيعته الأساسية، أمر عملي إلى أقصى درجة، ولا يوجد فصل مشروع بين الدراسة الأكاديمية، والتعبدية، والعملية للكتاب المقدس؛ فكل منها في حد ذاتها لها علاقة لا تنفصم بالأخرى، والحق الإلهي مقبول دائمًا من الناحية العقلية، وهو ثري من الناحية الروحية، ومتأصل من الناحية العملية، وإذا كان أصيلاً فسنجد أن له تأثيره الشخصي، والحق يعمل دائمًا، ويدفعنا نحو علاقة أعمق، وإذا لم تكن حركته ظاهرة في مناقشتنا هنا لا نكون قد فهمنا الحق.

ولسبب ما، لا تقدم سعة الأفق في التفكير اللاهوتي أي ضمان للعمق الروحي أو لجدارة العلاقة ومهارة التفسير - القائمة على معرفة اللغات الأصلية والسياق الثقافي - لا تضمن وجود خدام أكفاء لسد احتياجات شعبهم الملحّة، وهناك تفرقة خاطئة بين ما هو أكاديمي وما هو عملي.

وعندما لا يتعامل الأخصائيون النفسيون مع الجذور الخاطئة للاضطراب العاطفي، وحين يفصل اللاهوتيون التعليم عن علاقته بهذا الأمر، يُترَك الناس ليعيشوا حياتهم في اضطراب ويتساءلوا في حيرة عما إذا كانت هناك إجابات بالفعل لتلك الأسئلة التي تجعل النوم يجافي عيونهم ليلاً. وإذا لم يجدوا مساعدةً حقيقيةً - سواء من الأخصائي النفسي الذي أخفق في توجيههم إلى المسيح أو في المواعظ التي تعرض معرفة الواعظ أكثر مما تنفذ إلى قلوب الناس حاملةً حق الله - فمن ثم يقع المنزعجون تحت إغراء قبول الحلول التي تستبدل الإثارة بالحقيقة الخارقة، والخلاص الفوري بالتغيير الدائم، ونتيجة لذلك؛ فإن أناسًا كثيرين تتملكهم اليوم صورة زائفة ومشوهة لمعنى الثقة في الرب، وقد حلّت المبالغات العاطفية محل الثقة التامة، والتعصب الشديد أصبح يُفَضَّل عن المثابرة المنظمة، وعلى صعيد آخر، استقر المسيحيون على نمط من الممارسات التي تصل إلى أكثر بقليل من الرضا الذاتي والتكيُّف الخارجي.

والرعاة والمعاونون المسيحيون الآخرون تجدهم مقيدين بنفس الالتزام شأنهم في ذلك شأن المسيحيين العاديين، وهم يكادون لا يجدون معونة في الأفكار السيكولوچية المصطبغة بالفلسفة الإنسانية أو بالفكر اللاهوتي الذي ليس له صلة بالموضوع، وكان من نتيجة ذلك أيضًا أنهم يقبلون في بعض الأحيان أفكارًا بسيطة لا فائدة منها، ولكنها تبدو كأفكار كتابية وذلك في مسعاهم لمساعدة الناس، والنصائح التي تطابق بالاعتراف بالخطية، والتوبة عنها وإطاعة كلمة الله.

«كلها أمور حسنة ومن الصواب عملها»... تُقال بحماسة لأناس مشوشي الفكر لا يفهمون إطلاقًا ما هي الخطايا التي يتوجب الاعتراف بها، أو كيف يكون من شأن تغيير سلوكيات معينة أن تساعدهم حقًا، كما أن أولئك الذين يقدمون النصائح ليسوا على بينة - هم أنفسهم - من الكيفية التي تحقق النجاح لكل هذه الأمور، «البعض يخفي ارتباكه وتشويشه عن طريق الدعوة القوية إلى التوبة».

ولم يكن «إرميا» يشعر إلا بالاحتقار تجاه القادة الدينيين الجهلة الذين كانوا على أيامه، فقال:«ويشفون كسر بنت شعبي على عَثَم قائلين: سلام، سلام ولا سلام»(إر٦:١٤). والوصفات التي تفشل في الوصول إلى جذور أية مشكلة غير محددة يمكنها أن تُحدث ضررًا بالغًا... لقد قدموا الوعد بالسلام والصحة للمصابين بمرض قد يفضي إلى الموت دون أن يَشفوا المرض إطلاقًا.

وحين أجادل من أجل الحلول البسيطة، فلست أريد بأية حال أن أُوصَفَ بأنني ضمن أولئك المعالجين السطحيين الذين يتحدثون بكلام أجوف عن الإيمان والمحبة، أو ضمن المشيرين الذين يُبَسِّطون الأمور بأكثر من اللازم، والذين لا يفعلون سوى تقديم النصائح التي لا تؤدي إلا إلى تغيرات سطحية؛ ذلك لا أريد أن تكون لي صلة بهذه النوعية من المشورة المسيحية التي تفشل في أن تأخذ في الحسبان تعقيدات المشاكل التي تواجه الناس، أو الألم البطيء الذي يصاحب النمو الشخصي. ولا أرغب حقًا في تأكيد اعتقادي في كفاية الكتاب المقدس ثم أسيء استعمال الكلمة؛ لأنني لا أود اللجوء إلى التشبيهات المجازية في التفسير ثم أخرج من ذلك بتخمين خيالي، كما لا أريد أيضًا اللجوء إلى التفسير الذي يهدد قيمة الحياة، وأن أنظم بعناية تقييمًا للتفاصيل عديمة الفائدة.

والعبء الذي تحملته في هذا الكتاب كان بغية أن أضع أساسًا لقبول الفكرة البسيطة - ولكنها جذرية - بأن يسوع المسيح هو الطريق والحق والحياة دون الوقوع في الضحالة، أو الأقوال التي ليست لها صلة بالموضوع، ولكي أبلغ هذا الهدف كان من الضروري أن أعرف كيف أن الاضطراب النفسي يأتي حقًا نتيجة مواصلة الحياة في الخطية، وبعيدًا عن الله، كما أنه من الضروري أيضًا أن نصل إلى نهج لفهم الكتاب المقدس يمكننا، ليس أن نستوعب حقه فقط، بل وأن نتأثر به أيضًا. ومثل هذا النهج — حسبما أعتقد — يتيح لنا أن نرى علاقة الحق الكتابي بفهم الاضطراب العاطفي وعلاجه.

وثمة ثلاثة افتراضات كانت تتحكم في تفكيري فيما كنت أتأمل مليًا في طبيعة المشورة الكتابية:

١ - إذا لجأنا إلى الكتاب المقدس بشكل صحيح سنجده كافيًا لتقديم إطار للتفكير من خلال كل سؤال يحتاج المشير إلى طرحه.

٢ - العلاقة بالمسيح تقدم لنا إمكانات لا يمكن الاستغناء عنها إطلاقًا في حل كل مشكلة نفسية (بمعنى ألا يكون السبب عضويًا) وذلك حلاً كاملاً.

٣ - قيام مجتمع شعب الله بالعمل معًا في إطار علاقة كتابية، هو السياق المطلوب لفهم حلول الله لمشكلات الحياة ومعايشتها.

وقد نُظِّم الكتاب حول هذه الأفكار الأساسية الثلاث:

الجزء الأول: يتناول كفاية الكتاب المقدس للرد على كل سؤال يتعلق بالمشورة.

الجزء الثاني: يطور فكرة عن الناس ومشاكلهم التي توضح السبب في أهمية المسيح بالنسبة لكل حل يُقَدَّم من خلال المشورة.

الجزء الثالث: فيتأمل عملية التغيير الشامل في شخصية الإنسان، ويبين كيف أنه بوسع المجتمع الكتابي أن يعمل كسياق نموذجي لهذه النوعية من التغيير.



الجزء الأول

الكتاب المقدس فيه كل الكفاية
"الحصول على إجابات في الكلمة المقدسة"



الفصل الأول

كيف نعرف ما يجب أن نؤمن به ؟



«أعتقد أنكِ في حاجة إلى ما هو أكثر من المشورة الكتابية؛ ذلك أن مشكلتك تبدو أعمق مما يمكنني أن أقدمه لكِ، ومن رأيي إنكِ في حاجة إلى الذهاب إلى مشير محترف يستطيع أن يغوص حتى يصل إلى الجذور العاطفية لمشاكلك». هذا ما قاله أحد الرعاة لامرأة شابة تعاني من الاضطراب وبعد ذلك أحالها إلى أخصائي نفسي محترف يمارس العلاج الأوَّلي، وهو نهج للمساعدة يُقال إنه يتعامل مع الموضوعات العميقة من خلال إعادة اختبار عاطفي لصدمات الطفولة التي تم نسيانها.

وثمة راعٍ آخر جاءه أحد الأزواج وكان يعاني من الاكتئاب لأن زوجته قد هجرته، فأحاله إلى أخصائي يعالج بأسلوب «خفض الغضب»، لقد حسب الراعي - على أساس معرفته المحدودة بالنظرية النفسية - أن تملُّك الغضب من هذا الرجل هو سبب اكتئابه؛ وعلى ذلك فإن المشورة التي تقلل الغضب ستكون مفيدةً في هذه الحالة، وبعد العديد من جلسات المجموعة الخاصة بالعلاج عن طريق تخفيض الغضب، قال الزوج إن الجديد لا يقتصر على معرفته بغضب كان خفيًا في السابق فحسب، بل اكتسب قدرة جديدة على التعبير عنه صراحةً - وأحيانًا بطريقة غير مهذبة - للآخرين؛ لقد تخلص من الاكتئاب.

وهناك مشير آخر كان يقدم لعملائه شيئًا أطلق عليه «العلاج عن طريق القيام بدور الأب»؛ حيث يشجعهم صراحةً على أن يتكلوا عليه تمامًا فيما يقوم هو بدور الأب الحنون، والفكرة هي أنه حين يستطيع الناس الاسترخاء داخل «حب» يلقونه من شخص إلى درجة تجعلهم يشعرون بالراحة مع أنفسهم وبمأمن من تهديد الآخرين؛ فمن شأن هذا أن يُوَلِّد فيهم قوةً لمواجهة تحديات الحياة، وقد امتلأت أجندة هذا المشير بأسماء الأشخاص المتألمين الذين يريدون العلاج بهذا الأسلوب.

ولكن، كيف يتسنى لنا تقييم عشرات الطرق التي تُتَّبع لمساعدة الناس على حل مشاكلهم لكي يحيوا بفاعلية؟ توجد نظم للعلاج العائلي، العلاج عن طريق «سيكولوچيا الكل»، العلاج عن طريق «الانفعال العاطفي العقلي»، العلاج بأسلوب «السلوك المعرفي»، العلاج عن طريق «إجراءات الاختبار الضمني»، العلاج النفسي الديناميكي، العلاج عن طريق الحب، لقاء المجموعات، العلاج التوجيهي، العلاج عن طريق الواقع، والقائمة ممتدة.

ويجتاح المجتمعات العلمانية والمسيحية طوفان من الأفكار التي تتحدث عن النمو والكمال، وكل منها تدَّعي فعاليتها كتوضيح يبين للناس كيف يتصرفون، والسبب في وجود المشاكل، وكيف يحدث التغيير، وإذا كان لنا أن نتصرف في إطار أي إحساس بتوجيه سليم في هذا البحر الهائج من الأفكار المنافسة، فيتوجب علينا وضع استراتيچية لتقرير ما الذي يجب أن نؤمن به، نريد أن نعرف، ليس ما سينجح فقط، بل إننا كمسيحيين نود أن نعرف ما هو حق وما هو عادل، وقرارنا بقبول أي نموذج في المشورة يجب أن يقوم على أساس أكثر من ملاحظة نتائج هذا النموذج؛ فعلينا أولاً أن نهتم بمعرفة أي من هذه الأفكار يُعد صحيحًا، وأي منها هو الذي يدفع الناس في الاتجاهات التي يتبيَّن في النهاية أنها جيدة؟ والفاعلية موضوع مهم يجب تناوله، ولكن ذلك لا يكون إلا بعد أن نتعامل بدقة وصواب، وبرغم ذلك كيف يتسنى لنا أن نحدد ما هو صادق وصحيح وفعال؟

يستخدم العلماء معايير تختلف عن تلك التي يستخدمها الشخص العادي عند تقرير نوعية الأفكار التي يقبلونها، وفي الدوريات المتخصصة يتوجب على علماء النفس أن يوضحوا دعم الأبحاث للأفكار التي يقدمونها؛ وكلما كان البحث دقيقًا، زادت مصداقية النتائج التي يتم التوصل إليها. وفي جهوده من أجل ترسيخ نفسه كعلم، ظل علم النفس لأكثر من نصف قرن يعتمد على المنهج التجريبي للوصول إلى الحقائق الملحوظة فحسب... دون غيرها.

وإذا لم تكن المعلومات تؤيد النظرية، فهنا تُهمَل النظرية، غير أنه عبر السنين شرع علم النفس - وبصفة خاصة في النواحي التي تُطَبَّق فيها المشورة والعلاج النفسي -

في الإنصات بكل احترام للمفكرين المتمكنين من ذوي الخبرة، الذين ركزوا تفكيرهم على ما رأوه في مكاتبهم التي تقدم المشورة، واستخدموا ذلك كأساس لإيجاد نظم نظرية متماسكة. والنظريات ـ التي من قبيل ما قدمها علماء التحليل النفسي مثل «فرويد Freudian»، «أدلر Adler»، و«جانج Jung» وآخرون، ومنذ عهد قريب من علماء النفس مثل «إليس Ellis»، «بيرلز Perls» و«ماسلو Maslow» ـ لم تجد دعمًا يُذكَر في التحقيقات البحثية التي صُمِّمَت بدقة، ولكنهم قدموا توضيحات رائعة لسلوك الإنسان، وما يبدو أنها توجيهات نافعة لمساعدة الناس؛ وعلى ذلك فإنه من العدل القول بأن الخبرة الموسعة مع الناس إلى جانب التبريرات الواعية الحكيمة هي في نظر الكثيرين الطريق المشروع إلى الحقيقة.

وبين آونة وأخرى، تبدو فكرة ما وكأنها برزت إلى الوجود من عقل مبتكر مبدع دون مساعدة من البيانات المتوافرة أو التأمل الدقيق، ونرى الناس يندفعون إليها دونما تفكير، وبطريقة ما فإن الفكرة تبدو سليمةً فحسب، وهي مناسبة، وتبدو جيدة، وأنها عملت شيئًا ما من أجل الناس، ويبدو ـ وأحيانًا بشكل مثير ـ أنها كانت نافعة. وربما يُصَنَّف أسلوب «ويرنر إرهارد Werner Erhard»، أو بعض أساليب «التوسط» تحت هذه النوعية، وما من أحد ـ ممن كانت لهم علاقة بهذه الفكرة ـ طيب طلب دليلاً، وبدا أن ذلك لم يكن ضروريًا، وكل ما في الأمر أن الناس استسلموا لهذه الفكرة لأنها بدت سليمةً بالتخمين.

لكن المشيرين المسيحيين تناولوا موضوع اختبار ما يصدقونه بشكل مختلف تمامًا؛ فقد اعتمد البعض على تدعيم بحثي أو اختبار إكلينيكي، أو منطق العقدة المُحكَمَة للدفاع عن الفرضية التي فضلوها، غير أن الكثيرين يلجأون مباشرةً إلى الكتاب المقدس لتقييم أفكارهم، وهم يقرون بصحة وجهات النظر إذا كان هناك تعليم يؤيدها في الكتاب المقدس، ويرفضون الأفكار الأفكار التي يناقضها.

والمرأة المسيحية التي ذكرْتَها آنفًا، سألَت أخيرًا من ناحية عما إذا كانت تلك الممارسات التي يقوم بها معالجها الأوَّلي تتفق مع الكتاب المقدس أم لا ؟ وقد سألتني: «هل من الصواب أن نعود إلى الألم الماضي، وأن نتعلم تمامًا معاودة اختباره؟ ألا يخرج هذا النمط من التفكير عن وجهة النظر الكتابية التي تقول انسَ ما هو وراء؟»

وحين سألَت المرأة المعالج بشأن ما يقلقها، وأجاب دون أن ينظر إطلاقًا إلى النص الذي كانت تستشهد به لتحدد ما إذا كان علاجه ينتهك أيًا من تعاليم بولس الموحى بها من الله، ولقد تضمن دفاعه ردًا مقنعًا؛ إذ استند إلى:-

١- دراسات خاصة بالجهاز العصبي عن قدرة المخ على تخزين العواطف المكبوتة.

٢- النظرية التي يقوم عليها العلاج الأوّلي، والتي تقول إن المشاعر السابقة المخزونة بوسعها أن تتدخل في العمل العادي الحاضر.

٣- خبراته مع عشرات من الأشخاص الذين لم يتلقوا مشورة رعوية، والذين أبلغوا عن تحسّن حقيقي من خلال الطرق التي يتّبعها معهم.

والمعالج الذي يستخدم أسلوب «تخفيض الغضب»، والمشير الذي يعالج عن طريق قيامه بدور الأب، قد جادل كل منهما دفاعًا عن نظريته، ولكنهما ذكرا أيضًا - كدعم لهما - عدة مفاهيم كتابية تتناغم مع أفكارهما: «كلا، ليس بوسعنا إثبات صحة كل ما نعمله بواسطة الرجوع إلى فقرات معينة في الكتاب المقدس، ولكن يجب أن يكون من المفهوم أن الكتاب المقدس لم يُقصَد به إطلاقًا أن يكون كتابًا لتقديم المشورة، أو أن يكون دليلاً يستعين به الأطباء في العمليات الجراحية؛ وعلينا أن نستمد أفكارنا من التفكير والبحث السيكولوجي، ولكننا نحرص على أن نظل في تناغم مع التعليم الكتابي. ونحن على اقتناع بأن الكتاب المقدس يجب أن يكون موضع إجلالنا وتبجيلنا باعتباره كلمة الله».

ومعرفة ما يجب تصديقه فيما يختص بالمشورة ليس بالمشكلة البسيطة؛ ففيما نحاول تقرير أي الأفكار والطرق التي نستطيع تَبَنِّيها دون التفريط في التزامنا المسيحي، إذ بموضوعين رئيسيين يظهران ويتطلب الأمر تناولهما:-

الأول هو: سلطة الكتاب المقدس:

ذلك أن المسيحيين الذين يؤمنون أن الكتاب المقدس هو إعلان الله الرسمي عن ذاته يرفضون قبول أي شيء يرفضه الكتاب المقدس؛ لذلك يودون أن يعيشوا تحت سلطان الكتاب المقدس، غير أن قيامهم بذلك يجعلهم في مواجهة بعض التعقيدات الصعبة، على سبيل المثال: كيف يمكننا التأكد من الأشياء التي يدعمها الكتاب المقدس،

وتلك التي يرفضها؟ والمشيرون الأتقياء يتمسكون بمعارضة الآراء على أساس موضوعات لاهوتية كثيرة لها تأثيرها على نظرية المشورة وممارستها، وربما لا يكون الكتاب المقدس قد تناول أسئلةً لابد وأن يطرحها المشيرون، والتي من الواضح أن علم النفس الدنيوي قد تعرض لها، وهل هناك مكان مشروع في إطار الالتزام بسلطان الكتاب المقدس لدراسة ما تتوصل إليه أبحاث علم النفس الحديث؟ إذا كان الأمر كذلك فكيف يتسنى لنا الانتفاع بالدراسات البحثية وما تقدمه النظريات، وفي ذات الوقت نحافظ على ما أطلق عليه «ماك كولكين McQuilkin» - وعن حق - السلطان الفعال للكتاب المقدس على العلوم السلوكية؟

أما الموضوع الآخر: كفاية الكتاب المقدس:

الذي ظهر أثناء العمل في تقرير ما الذي يجب أن نصدقه، فهو «كفاية الكتاب المقدس» هل الكتاب المقدس فيه الكفاية حقًا لإرشاد المشير وإنقاذه من الحيرة التي تسببها له التشكيلة المتنوعة من الأسئلة التي تُطرَح أثناء تقديم المشورة؟ وهل بوسعه أن يجد معونةً في مكان ما، بين سفري «التكوين والرؤيا»، للتعامل مع الشخص الافتضاحي(الذي ينزع إلى إظهار العورة)، أو الشخص الذي يعاني من فقدان الشهية للطعام؟ أم أن الكتاب المقدس لم يُقصَد به إطلاقًا أن يكون كافيًا بالنسبة لأسئلة كهذه؟ ولعله ينبغي علينا أن نعرف أن سلطان الكتاب المقدس يمتد فقط إلى الموضوعات التي تناولها، ونعترف أنه كاف لإرشادنا إلى فهم الموضوعات الروحية مثل الخلاص، التوبة والرجاء الأبدي، أما الاهتمامات المباشرة للمشير فتقع خارج نطاق سلطانه، وما أن نتخذ هذا الموقف إلا ونتجه إلى مصادر أخرى طلبًا للمعونة، وإلى التفكير في نواح لم يتطرق إليها الكتاب المقدس على الإطلاق، وذلك دون أن ننتقص من سلطان الكتاب المقدس، أو ننكر كفايته التي يستحقها.

وعلى الرغم من ذلك، لنفترض أن شخصًا ما يود أن يجادل - وهذا ما أفعله أنا - بالقول بأن السلطان الكتابي سلطان حقيقي لأن الكتاب المقدس يقدم بالفعل إطارًا شاملاً للتفكير في الأسئلة التي تدخل في اهتمامات المشير.

وهنا يقع عليه عبء تحديد ما هو المقصود بسلطان الكتاب المقدس وأن يبين كفاية الإعلان الإلهي الكتابي، وهذا هو ما أرمي إليه في الجزء الأول من هذا الكتاب.

وفي الجزء المتبقي من هذا الفصل وذاك الذي يليه، سأبين كيف يتوجب أن يكون الإعلان الإلهي هو الأساس الذي نقيم عليه أفكارنا المتعلقة بالمشورة وندافع عنها.

أما الفصل الثالث، فيتناول الاعتماد على الوحي الإلهي، وينتقل بالحجة خطوةً إلى الأمام، وذلك لتأكيد مسئوليتنا من ناحية تقييم كل نظرية تتعلق بالمشورة على ضوء هدى الكتاب المقدس، ومن ناحيتي أرى أن نماذج المشورة يجب أن توضح ما هو أكثر من مجرد تناغمها مع الكتاب القدس، بل والواقع إنه ينبغي أن تقوم على أساسه.

أما في الفصل الرابع، فسنعرض للموضوع الذي يحير البعض والمتعلق بكفاية الكتاب المقدس؛ من أين لنا أن نجد حكمةً كتابيةً تتعلق بجنون الاضطهاد أو جنون العظمة أو الشره المرضي، في حين أنه ما من واحد من كتبة الأسفار المقدسة قصد إطلاقًا أن يكتب عن مثل هذه الموضوعات؟ هل يتعين علينا أن ننتهك كل المبادئ المتفق عليها، والمتعلقة بالتفسير الكتابي بغية «اكتشاف» إجابات عن أسئلة المشير والتي هي ببساطة ليست موجودة فيه؟ أم أن هناك طريقة مشروعة لفهم الكتاب المقدس من شأنها أن تقدم لنا مفهومًا كتابيًا لكل مشكلة شخصية؟

لنتناول أولاً موضوع «سلطان الكتاب المقدس على مجال تقديم المشورة».

هناك أربع طرق للمعرفة

في إطار جهودنا لتحديد الكيفية التي تمكننا من تقييم الأفكار المتعلقة بتقديم المشورة، وربما تكمن البداية في استطلاع الطريقة التي نتبنى بها أفكارًا عن أي شيء.

هناك أربع طرق مختلفة للمعرفة ذكرها الفلاسفة وهي: البديهة، العقل، الاختبار، والإعلان الإلهي. وسوف نناقش كل طريقة منها بإيجاز (لأن المناقشة بالتفصيل تحتاج عدة مجلدات)، وذلك في محاولة لتوضيح أنه بدون اتخاذ الإعلان الإلهي أساسًا لها؛ فإن الطرق الثلاث الأخرى التي تؤدي إلى الأفكار أو المعرفة تقودنا ولا ريب إلى مفاهيم لن تكون كافيةً لإرشاد المشير.

البديهة: إذا كان شخص يعرف فحسب أن موقفًا معينًا يُعد صحيحًا، تقول نقول إنه يعتمد على البديهة، وبعض الأفكار تصفعنا على وجوهنا بدقتها الواضحة، ولا يبدو أننا في حاجة إلى دليل أو تأييد ليقنعنا بأن الفكرة صحيحة. والبديهة هي الطريق إلى المعرفة التي لا تتطلب سوى تأكيد ذاتي ولا تتطلب دليلاً عقلانيًا أو خارجيًا لتبرر هذا الاعتقاد.

وجذور البديهة هي بالطبع جذور معقدة، ويقول «چون كالڤن John Calvin» إن هناك مفاهيم معينة لم يتم استخدامها باتباع أية طريقة بل يصدقها كل إنسان كجزء من بشريته المعطاة له من الله، ويجادل آخرون بالقول بأن البديهة ما هي سوى إلا نتاج سنوات من الاختبار والتأمل الذين يتوفران معًا للشخص في لحظة فهم.

والبديهة ـ بغض النظر عن خلفيتها ـ هي عملية تبرز فيها فكرة ما في ذهن المرء بيقينية يبدو أنها تعتمد على مصادر غير محددة، داخلية وليست خارجية.

ويعتمد المشيرون على البديهة حين يدخلون إلى جلسة دون خطة مسبقة آملين بأن اللقاء مع طالب المشورة سيولد إحساسًا بالاتجاه الذي يتخذونه، وإني لأشك في أن الكثير مما يقال عنه إنه علاج احترافي ـ وقدر كبير من المشورة التي يقدمها رعاة الكنائس ـ يتبع نظريةً غامضةً للغاية ويتسم بالعمومية؛ حتى إن الكثير مما يحدث يعتمد على البديهة.

والاعتماد بقوة على البديهة بهذا الشكل ليس ضروريًا ودعوني أشرح السبب؛ إذا كان الموضوع الذي نريد معرفته لا يتبع نمطًا ملموسًا، وعلى ذلك فهو خارج نطاق التنبؤ تمامًا، هنا يكون انتظارنا لحدوث إحساس داخلي بديهي هو أفضل ما يمكننا عمله، وعلى الرغم من ذلك فإن الموضوع المهم بالنسبة للمشيرين هو الشخص نفسه، وفي حين أنه يوجد الكثير مما هو غير معروف، ومن ثم لا يمكن التنبؤ به بالنسبة للناس، إلا أنه توجد عمليات ومبادئ تصف كيف يعيش الناس، وبوسعنا تصورها.

الناس «لا يَحْدُثون» فحسب، فرغبة الإنسان في عرض نفسه أو الشعور بالذعر في مواقف معينة، لا تتأتى بشكل تلقائي دون أن يكون هناك تاريخ أو سبب يمكن إدراكه، والناس يختارون ويفكرون ويشعرون ويرغبون بطرق يمكن فهمها ـ بشكل جزئي على الأقل ـ كما يمكن تصنيفها؛ وعلى ذلك بمقدورنا أن نذهب إلى أبعد من البديهة ـ ما زلنا نسمح لحدسنا أن يكون له دور ـ وذلك في جهودنا للعمل مع الناس.

العقل:

اعتبره الكثيرون مركزًا للشخصية، وهو القدرة التي من الواضح تمامًا أنها تميز الإنسان عن الحيوان، ويقول «أرسطو Aristotle»: «إنه بمقدور عقولنا أن تسد الثغرة القائمة بين ما هو طبيعي وما هو خارق للطبيعة»، أما «توماس الإكويني

Thomas Aquinas» فقد تقبل الفكرة الكاثوليكية الرومانية التقليدية القائلة بأن سقوط الإنسان في الخطية لم يكن له تأثير على عقله، ويقول إن قدرتنا على التفكير تظل سليمةً دون أن يلحقها فساد على الرغم من طبيعتنا الخاطئة؛ وعلى أساس هذه المقدمة المنطقية جادل في وصف الفكر اللاهوتي الطبيعي وهو يقول إنه طريق إلى الله من خلال العقل البشري.

وفيما استمر التقدم في المعرفة كانت قيمة العقل في ازدياد متواصل؛ باعتباره الآلة العظمى لاكتشاف ما يريد المرء معرفته؛ سواء كان ذلك عن الله، أو الطبيعة، أو الإنسان. وعبادة العقل هذه أدت إلى ما يُطلق عليه «المذهب العقلي» وهو اعتقاد بأن العقل ـ بدون مساعدة ـ يستطيع فهم كل ما هو صادق وصحيح.

من المهم أن نميز بين المذهب العقلي والاستخدام الأكثر تواضعًا للعقل، وما من أحد ـ سوى الشخص الصوفي ـ يرغب في قبول فكرة على أنها صحيحة إذا أمكن بيان أنها غير معقولة بشكل فعلي، وما من أحد سوى الصوفي يسعى لفهم ما هو صحيح دون الاعتماد على عمل واضح لعقله؛ فالعقل له دوره المناسب والحيوي في تشكيل معتقداتنا. غير أن الذين يتبنون المذهب العقلي يذهبون إلى أبعد من ذلك؛ فهم لا يملكون أية سلطة خلاف عقلهم، وبدلاً من أن يحاولوا بكل بساطة أن يفهموا بشكل معقول ما الذي يجري حولهم فإنهم يطلبون كل البيانات لتتناغم مع منطقهم، وإلا فإنهم يرفضونه بسرعة وقد ثاروا ضد الرأي القائل بأن كل نمط من الناس ذوي الفهم لابد وأن تكون له بعض الحدود المسننة جدًّا كحد السيف.

والمذهب العقلي ـ حين اتُّبع بجدِّية ـ وقع بسرعة في مشكلة كبرى؛ فحين يدافع اثنان من المفكرين عن وجهات نظر متعارضة ويقولان إنها معقولة، فما الذي يمكن عمله في هذه الحالة؟ ومن غير المنطقي المجادلة بالقول بأن فكرتي صائبة؛ ببساطة لأني اعتقدت أنها كذلك حين اعتقدتم أنتم أن فكرتكم المنافِسَة لها صحيحة، والحكم الوحيد المتاح لتسوية هذا الموضوع هو العقل، غير أن كل واحد منا يدَّعي أن العقل في جانبه.

وأخيرًا لكي أثبت صحة ما أقوله؛ فإن أفضل ما يمكنني عمله هو القول بأن عقلي يعمل بشكل أفضل من عقولكم، ثم آمل أن يأتي يوم تكونون فيه على قدر من الذكاء يدفعكم إلى الاعتراف بمعقولية أفكاري؛ فقد قلت إن العقل ببساطة ليس أهلاً لمهمة

العمل كالمُحَكِّم الأخير، والناس يختلفون حول ما هو معقول، وفي بعض الأحيان يقاوم الناس الحجة المنطقية لأسباب خفية يشعرون أنها معقولة بالنسبة لهم، وكل مَن حاول أن يكسب جدالاً شخصيًا بالعاطفة معتمدًا على العقل فقط كسلاحه الوحيد، بوسعه أن يشهد بعدم كفايته؛ فهناك أمور كثيرة تشترك في تكوين الأفكار والمعتقدات وليس المنطق وحده.

التجربة والاختبار:

وثمة طريق رائج آخر للمعرفة يصر على أن الاختبار هو أفضل معلم، فالبديهة شيء شخصي بحت، والمذهب العقلاني يؤدي إلى خلافات في الرأي لا يمكن التوفيق بينها. ونحن في حاجة إلى سلطة خارج مشاعرنا وأفكارنا يكون بوسعها أن تتحكم في الاثنين معًا، والتجريبية هي فلسفة معرفية، وهي تقول بأن معطيات الخبرة الخاضعة للملاحظة والقياس توفر لنا تلك السلطة التي نحتاجها، وحين يدَّعي شخص ما أن فكرةً ما تعد صحيحة، يصرح من يعتنق المذهب التجريبي قائلاً: «عليك إثبات ذلك، أين الدليل؟» وعلى سبيل المثال إذا قال مشير إحدى العائلات إنه يتوجب على الوالدين أن يوبخا أولادهما بقسوة لتمردهم، يطلب التجريبي بيانات تفيد أن الأولاد الذين تم توبيخهم قد أصبحوا على نحو أفضل - طبقًا لمعايير قياسية ومختارة - من الأولاد الذين لم يتم توبيخهم.

أما الذي يتبنى نظرية البديهة فيقول: «يبدو أن هذا هو الشيء الصحيح الذي يتوجب عمله»، أما الذي يتبع المذهب العقلاني فيقول: «هذا يبدو معقولاً بالنسبة لي»، عليك اتِّباع المنطق الذي يقول: «إذا كنت تعمل شيئًا يجلب لك العقاب، فلا تعمله كثيرًا».

قال أحد المسيحيين إن الكتاب المقدس يتحدث عن استخدام عصا التأديب، أما التجريبي فلن تقنعه أي من هذه الإجابات، وإلى أن يستطيع الإشارة إلى بحث يبين أن الطفل الذي يُعاقَب يحقق بالفعل نتائج مطلوبة، يفشل الأطفال الذين لم يوبخوا في الإتيان بمثلها، سيعتبر إن الموضوع لم يتم حله بعد.

ويجب علينا ملاحظة أن غالبيتنا يعملون بانتظام طبقًا لنوعية غير دقيقة من التجريبية، والشهادات التي تقول: «لقد عملتها بهذه الطريقة ونجحت» تقنعنا بأن نجرب

شيئًا ما، ويجادل السياسيون ضد إجراء تمت تجربته وفشل، وطرق البيع التي تثبت نجاحها تم إثباتها على أساس نتائجها السابقة.

أتذكر أنني سمعت عن قائد مسيحي محترم رد على سؤال وُجِّه إليه عن مصدر الفاعلية التي تتسم بها خدمته؛ حيث رد قائلاً: «أعزي أية قوة لدي إلى ما يكاد يبلغ خمسين سنة كنت أقضي فيها ساعة على الأقل كل يوم في الصلاة وقراءة الكتاب المقدس». وما استخلصه الكثيرون من هذا هو أن قضاءهم على هذا النحو ساعة من حياتهم كل يوم سيتولد عنها زيادة في قوتهم، والحجة تجريبية، وهي تحث على اللجوء إلى الاختبار، وعلى الرغم من ذلك فإن للتجريبية حدودها.

أولاً: أقصى ما يمكن عمله لمن يتبنى الفلسفة التجريبية، هو تقديم بيانات واستقراء عن النماذج، وليس بوسعه سوى التحدث عن ماهيتها، ولا يقول أبدًا ما يجب أن يكون، ولا يمكن للتجريبية إطلاقا أن تكون الطريق إلى الحق الأدبي، والوصف هو أرضه المشروعة، أما وضع قاعدة أو نظام فهذا أمر خارج حدود أرضه.

ثانيًا: التجريبي لا يمكنه إطلاقًا أن يقول شيئًا مؤكدًا وأقصى ما يمكن أن يدّعيه هو انتظامه في مراقبة البيانات التي تدعم فرضيات معينة عن الكيفية التي تسير بها الأمور. ومثل هذه الادعاءات متاحة للمسيحي ليقوم بدراستها ولكن ما من أحد لاحظ كل البيانات أو كل البيانات الممكنة.

وعلى الرغم من أنني لم أرَ إطلاقًا أي نهر يجف ليكون في وسطه ممرًا جافًا، غير أنه ليس بوسعي القول إن ذلك لم يحدث أو إن ذلك لا يمكن أن يحدث، وكل ما أستطيع قوله هو إنني وآخرين كثيرين لم نشاهد ذلك يحدث أمامنا.

والتجريبية قد تتشدق بالاحتمالات، غير أنه ليس بمقدورها أن تجزم بشيء، وبتعبير آخر، يمكن أن تُستعمَل التجريبية كأساس براجماتي للعمل (أعتقد أني سأبحث عن قنطرة لعبور النهر بدلاً من الصلاة من أجل أن يجف النهر) ولكنه ليس بوسعها تحديد صحة اقتراح أساسي... (مثال: يوجد إله يمكنه أن يشق الأنهار حين يريد ذلك).

ثالثًا: تنحصر التجريبية في النظر إلى ما يمكنها أن تراه والبيانات التي جاءت وليدة

الملاحظة تكون أساس التجريبية كلها، وهذا يحد بشكل صارم ما يمكن للتجريبي أن يتحدث عنه. والكثير من الحقائق المهمة ليس من السهل تخفيفها إلى ما يمكن رؤيته مثل: المحبة، المعنى، الفرح، الحزن، العدل، وهذا قليل من كثير، وحين يقرر أحد التجريبيين دراسة هذه النوعية من الحقيقة، يجب عليه أن يحدها إلى ما يمكن أن يُعَدّ دليلاً ملحوظًا، ولكنه إذ يفعل ذلك؛ يجد أن نفس الحقيقة التي يصفها تنزلق من بين أصابعه. وقليلون منا هم الذين على اقتناع بأن محبة الرجل لزوجته بعدد مرات تقبيله لها، أو عدد المرات التي يجاملها فيها من تلقاء نفسه، والتجريبيين الذين يتعهدون بدراسة العالم غير المحسوس عادةً ما ينتهي بهم الأمر وإذا بهم يبحثون عناصر ليس لها في الواقع أية قيمة إلا بالنسبة لمحرري الصحف.

وجهودنا التي ترمي إلى تقرير ما هو صحيح، هي بالأحرى مُحبِطة حتى الآن، هل يتوجب على المسيحيين أن يخضعوا لعلاج أوّلي ليحلّوا الصراعات العميقة؟ كيف نجيب عن هذا السؤال؟

إن البديهية تطلب منا الانتظار حتى ظهور يقينية ذاتية، غير أن الناس كانوا على يقين من الخطأ قبل ذلك، أما المذهب العقلاني فيشجعنا على التفكير في الأمر أو الاعتماد على آراء مفكرين أفضل منا، لكن أفضل المفكرين يفكرون بشكل مختلف، وتتحدانا التجريبية بأن ننظر إلى النتائج؛ فهل ينجح العلاج الأوّلي في شفاء الاكتئاب في الماضي؟ غير أن البيانات مربكة، وكل نظام للمشورة يدّعي تحقيقه نتائج مؤثرة، وعلاوة على ذلك فإن كل نظام تشوبه قصص مروعة عن الخسائر التي تسبب فيها، وحتى لو كانت هناك نتائج، فهل كانت نتائج جيدة بالمعنى الأخلاقي؟ ليس بوسع التجريبية أن تقول لنا هذا.

نحن في حاجة إلى وسيلة لمعرفة إجابات عن الأسئلة المهمة غير البديهية، والفلسفة العقلانية، والتجريبية، إذا كان لنا أن نصل إلى موقف يكون بمقدورنا فيه أن نشعر فيه بالثقة، ولا يوجد إلا احتمال آخر، وهو الإعلان الإلهي.

وسوف نناقش في الفصل التالي الإعلان الإلهي كأساس للمعرفة، ونتأمل بعض المشاكل حين نسعى للاتكال على الإعلان الإلهي في الحصول على إجابات عن الأسئلة المتعلقة بتقديم المشورة.



الفصل الثاني

الكتاب المقدس كفيل بثقتنا



إذا قبلنا الإعلان الإلهي كشرط لوضع نموذج للمشورة؛ نموذج يمكن للمسيحيين على وجه الخصوص أن يضعوا ثقتهم فيه، فمن هنا يجب أن نتأكد تمامًا ما الذي يعنيه هذا بالضبط، كيف أعلن الله لنا الحق؟ وأين أعلن الله ما يحتاج المشيرون إلى معرفته لمساعدة المترددين عليهم؟ وكيف يمكننا الحصول على هذه المعرفة فور أن نعرف المكان الذي يمكننا أن نبحث عنها فيه؟

وفكرة الإعلان الإلهي ذاتها يُستَشَف منها أن هناك معلنًا، شخصًا يدع الآخرين يعرفون - على الأقل - قدرًا بسيطًا مما يعرفه هو.

يعتقد المسيحيون أن الله موجود، وأنه شخص حقيقي يفكر، يختار ويشعر، وأنه يحب خلائقه إلى درجة أنه يعرفنا ما هي مشاكلنا وكيف يتسنى لنا حلها، وعلى أساس ما يقوله معظم اللاهوتيين؛ فإن الله يعلن عن ذاته في أيامنا هذه بطريقتين، الطبيعة، والكتاب المقدس.

والطريقة الأولى أُشير إليها بأنها الإعلان الإلهي العام، وهذا تعبير يصف حقيقة أنه بمقدورنا تعلّم حقائق مهمة بملاحظتنا نظام الخليقة مثلاً، لابد وأن يكون هناك خالق قام بخلق هذا الكون، ثم إن نظام الخليقة يعكس أنها نتيجة عمل لابد وأن وراءه عقل مفكر منظم؛ وعلى ذلك فإن الخالق لابد وأن يكون ذكيًا، وعالم يعيش فيه أشخاص لا يمكن تفسيره إلا بخالق شخص، وهكذا...

والملاحظ الدقيق يمكنه أن يلاحظ أيضًا النظام الدقيق الذي تعمل به الأشياء، وبذلك يكتشف ـ وبفاعلية أكثر ـ علاجات لأمراض الإنسان، وطرقًا أفضل لبناء الجسور، والعلم يدين بوجوده ذاته إلى عملية التنبؤ بالعلاقات بين العلة والمعلول (السبب والنتيجة) وهي العلاقات التي نلاحظها في عالمنا.

«الإعلان الإلهي الخاص» وهذا تعبير لاهوتي خاص يشير إلى ذلك الكشف الإلهي الذي يتجاوز عالم الطبيعة لكي يعطينا المزيد من التفاصيل المعينة، والتي ينبغي علينا أن نعرفها لكي نعيش، والتي لم يكن بوسعنا اكتشافها بواسطة الدراسة العلمية لإعلانه الإلهي العام. والله في الكتاب المقدس تكلم من عقله إلى عقولنا مُستَخدِمًا اللغة، وهي وسيلة اتصال يمكن فهمها بطريقة عقلانية، ومهمتنا هي استخدام عقولنا لنفهم ما قاله وبعد ذلك نُخضِع إرادتنا لهذه الرسالة، وحينما تقتنع بأن الأفكار التي نحيا بها تأتي من الله، فإنه يتوجب علينا القول بأننا نعتمد على إعلان إلهي، وهناك أناس كثيرون في أيامنا هذه بمن فيهم كتبة الترانيم، والمشيرون، والقادة الدينيون يدّعون بأن الله أعلن لهم أشياء معينة والمشكلة المُلِحَّة هي أن تقرر متى يكون هذا الادعاء مشروعًا.

هل حقًا قال الله ما نعتقد أنه قاله؟ وحين يقوم أخصائي مسيحي بدعم رأي ما عن طريق أبحاث نفسية هل بوسعه أن يجادل بالقول بأن الله أعلن ذاته له من خلال البحث العلمي في عالم الله؟ أم هل بوسع المشير المسيحي الذي يقدم مفهومه لفقرة كتابية ـ كشاهد يدعم به أفكاره ـ أن يجسر على التأكيد بأنه يعتمد على إعلان الهي؟

في الفصل السابق أكدت على أن البديهية والعقل والاختبار تفقد حتميتها حين تعمل دون اعتبار للإعلان الإلهي، وحين يُسقِط الناس الإعلان الإلهي من حسابهم ـ وذلك حين يتمردون على حقيقية أن كل بحث عن الحقيقية يمثل جهدًا لمعرفة الله وما «عمله» الله ـ يصبح بحثهم رحلة داخل متاهة وبدون دليل (مرشد)، والإعلان الإلهي الذي يقوم على أساس حقيقية أن الله موجود، وأنه يتكلم معنا، يجب أن يكون الإطار المنطقي والسياق الذي يدور فيه كل تفكيرنا، ويوضح «كالفن Calvin» هذه النقطة قائلاً: (كما أن المُسِنّين، أو ضعاف البصر بالكاد يستطيعون رؤية الكلمات في كتاب، ولكنهم بمساعدة النظارات الطبية يستطيعون القراءة بوضوح، هكذا أيضًا يبلور لنا الكتاب المقدس أفكارًا عن الله كانت تحيّرنا، ويشتت الظلام ويرينا الإله الحقيقي بوضوح ...)

ونحن نأخذ الخطوة الأولى نحو المعرفة الحقيقية حين نفهم الشهادة التي تكرم الله، والتي أعطاها لنا عن نفسه. وليس الإيمان الحقيقي الكامل فقط هو الذي ينشأ عن الطاعة، بل كل معرفة حقة تنشأ أيضًا عن الطاعة، وعلماء النفس والمشيرون المسيحيون يتفقون - على ما أعتقد - من كل القلب مع هذه النوعية من البداية الأوّلية، ولكن حينما ينتقل الناس من الالتزام بالإعلان الإلهي إلى العمل الفعلي لتكوين رأي عن المشورة، هنا يتعين أن يتم فحص دقيق للكيفية التي يعتمدون بها على الإعلان الإلهي، ومن وجهة نظري فإن الكثيرين من المشيرين المسيحيين قد تبنّوا طريقةً للدراسة تنظر إلى الكتاب المقدس باعتباره نافعًا، مثقِّفًا، منيرًا للفكر والبصيرة، غير أنه ليس له سلطان كما أنه ليس كافيًا، وكان من نتيجة ذلك أن ضعفت سلطة الكتاب المقدس، ولم يعد يُسمَح للكتاب المقدس بأن يقول القول الفاصل، ونادرًا ما نرجع إلى صفحاته للبحث عن أنواع معينة من الأسئلة الشخصية؛ لقد احتلت العلوم النفسية موضع الكتاب المقدس في عقول الكثيرين ممن يجادلون بقوة في أن الإعلان الإلهي هو الطريق الذي لابد منه للوصول إلى المعرفة، ولعل تأكيد الالتزام بالله الذي يعطينا إعلاناته الإلهية، والالتزام بإعلانه الإلهي في الكتاب المقدس وفي الطبيعة، ليس بالأمر الكافي، وإذا كان لنا أي مفهوم صحيح عن السلطان الكتابي علينا أن نفكر مليًا في الطريقة التي نتّبعها لدراسة تقديم المشورة.

ومن بين طرق الدراسة التي تُضعِف - إلى حد كبير - أية فكرة ذات معنى للسلطان الكتابي تلك التي قد نطلق عليها: «وجهة النظر التي تقول بوجود كتابين للإعلان الإلهي»، واسمحوا لي أن أوضح وجهة النظر هذه؛ لقد كتب الله كتابين: هما الطبيعة والكتاب المقدس، والطالب الذي يدرس الإعلان الإلهي عليه أن يدرس كلا الكتابين ليفهم على نحو أفضل أي مجال للمعرفة يخصه سواء كان ذلك في الطب، علوم الفلك، العلوم السياسية أو العلوم النفسية، فإذا كان الله قد تكلم بوضوح في موضع ما بأكثر مما تكلم به في موضع آخر عن موضوع معين، علينا في هذه الحالة أن نقضي مزيدًا من الوقت في دراسة الكتاب المقدس بالأكثر.

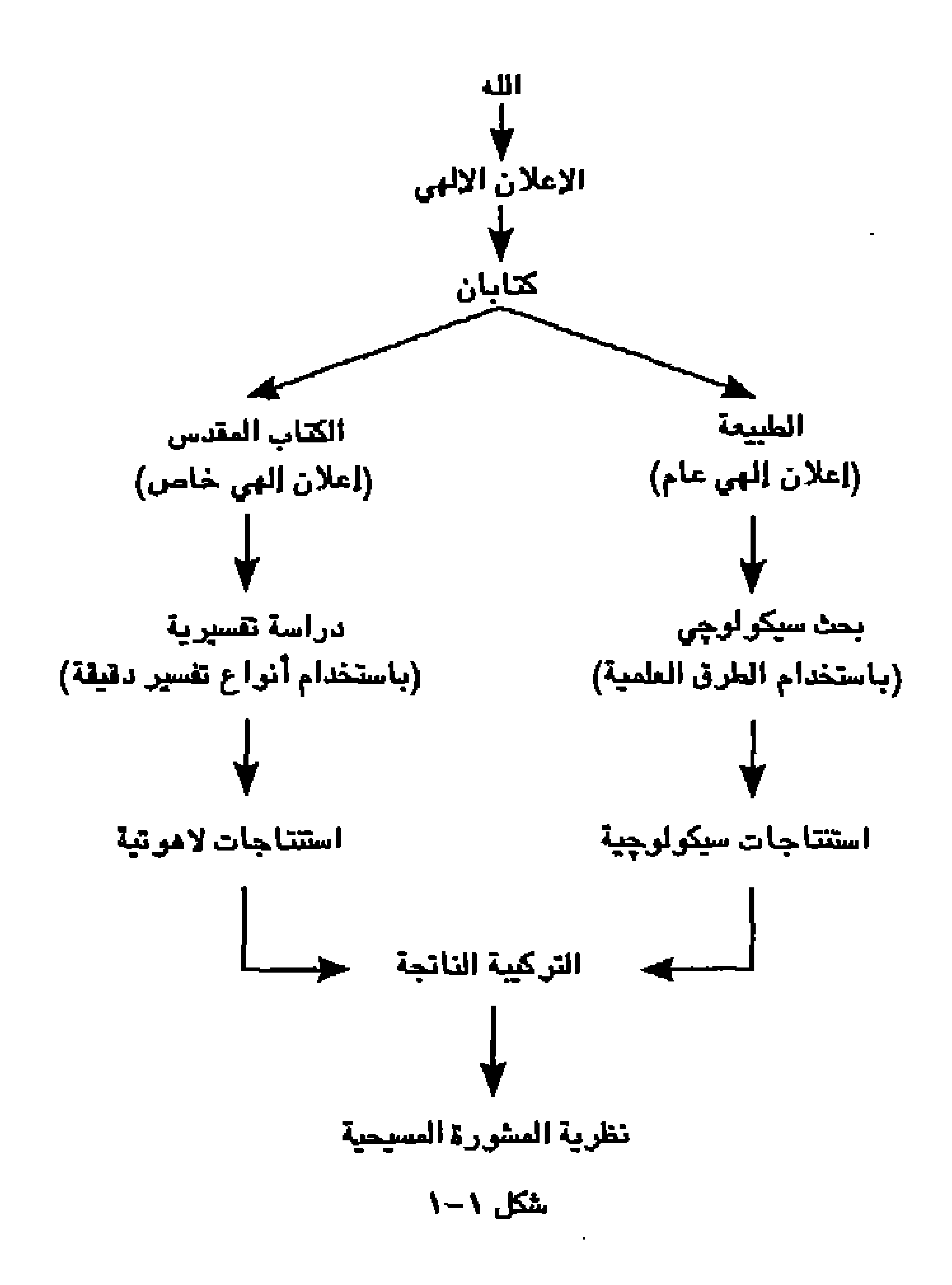
وطلبة كلية طب الأسنان المسيحيون - على سبيل المثال - يحسنون صنعًا بالانغماس في النصوص العلمية وليس في رسائل بولس حين يريدون معرفة «اللثة»، غير أنه حين

تتعلق أسئلتهم بكيفية تحديد الخطية وتعلّم طرق التغلّب عليها، هنا تكون قراءة الكتاب المقدس واجبة؛ ذلك لأن الكتاب المقدس لا يعلن لنا شيئًا عن «مرض اللثة»، ثم إن كتب طب الأسنان لم تحاول إطلاقًا تحديد معنى الخطية، وعلى ذلك فإن الأسئلة التي نطرحها هي التي تحدد أي الكتابين ينبغي أن نقرأ.

كثيرون من المشيرين المسيحيين يتبنون هذا النهج في جهودهم التي يبذلونها لفهم الناس ومشاكلهم، ومجموعة الأفكار المستخلصة من ملاحظاتنا المباشرة للناس نطلق عليها «علم النفس»، والناتج المنتظم للدراسة الكتابية يسمى «الفكر اللاهوتي»، وقد اعتُبِرَت هذه نظمًا متكاملةً يسهم كل منها بمعلومات مهمة لنظريتنا الخاصة بالمشورة.

ووجهة النظر التي تقول بكتابين، ومنهج علم النفس والفكر اللاهوتي اللذين تقترحهما يمكن رسمهما بسهولة كما هو مبين في الشكل (١-١)

ومعظم أنماط المشورة المسيحية تستخدم هذا النهج، وفي كثير من الأحيان حين يُتَّبع هذا النهج في التفكير نجد أن الوقت الذي يُقضَى في التأمل السيكولوجي والبحث، أكثر من الوقت الذي يُقضَى في دراسة الكتاب المقدس، وهذا المبرر قوي؛ فالكتاب المقدس لا يتكلم إلا بطريقة غير مباشرة بالنسبة لكثير من الأسئلة التي يطرحها المشيرون، والمبدأ الذي يقول باستثمار الوقت مع أحد الكتابين، والذي له علاقة مباشرة بالموضوع المطروح، يؤدي إلى أن يصبح الكتاب المقدس مُهمَلاً، وحين يُطالَب المشيرون المسيحيون بأن يولوا الكتاب المقدس اهتمامًا أكثر، فإن الإجابة الشائعة هي أنهم يجادلون بالقول بأن الله لم يقصد إطلاقًا أن يكون الكتاب المقدس كتابًا للمشيرين، وقد قيل لنا إن كتابه الآخر هو المناسب بالأكثر لهذا الغرض.



شكل ١-١

لاحظ إلى أين يقودنا هذا الاستنتاج، إن جهودنا من أجل فهم المشورة لا تحتاج إلى توجيه من الكتاب المقدس، وما علينا فقط سوى التأكد من أنه أيًا كانت النتائج التي نتوصل إليها فإنها تتناغم مع الكتاب المقدس، والفرق كبير بين «يُوجَّه بواسطة» و«تتناغم مع»؛ ذلك أن المفكر أو الباحث الذي يسترشد بالكتاب المقدس يعترف بسلطانه تمامًا، أما الشخص الذي يستمد توجيهه من مصدر آخر ثم يسعى بعد ذلك لإيجاد التناغم مع الكتاب المقدس هذا معناه أنه يعتبر الكتاب المقدس مجرد أداة مساعدة، ونتيجة هذه الطريقة الأخيرة للتفكير لا يجب أن يُطلق عليها وصف كتابي.

وهذا النموذج ـ حسبما أراه ـ مسئول عن الكثير من المشورات التي يقدمها مسيحيون، والتي تبعد الناس عن المسيح، وإذا كان هذا صحيحًا، فلا شك في أن يكون هذا النموذج قد اعترته عيوب وأخطاء، أما خطره الأكبر ـ حسبما أرى ـ فهو عدم تقديره لسلطان الكتاب المقدس التقدير الذي يستحقه. لاحظ السمتين اللتين يتسم بهما هذا النموذج، واللتين تفسدان أي التزام حقيقي بسلطان الكتاب المقدس.

أولا: ما الذي يتعين عمله حين تتعارض نتائج الدراسة الكتابية مع نتائج البحث السيكولوچي؟ على سبيل المثال، لنفترض أن إجماعًا في الرأي السيكولوچي يقول بأن توبيخ الأطفال بشدة يولد فيهم نزعةً عدوانيةً، ولنفترض أيضًا أن معظم المفسرين استخلصوا مما جاء في (أمثال ٢٢: ١٥) أن الله يعتبر التأديب استراتيچية فعالة لإضعاف النزعة العدائية، فما العمل إذن؟ هل نتبع الفكر السيكولوچي أم الفكر اللاهوتي؟ أم نرتب فهمنا لأحدهما لنجعله متناغمًا مع الآخر؟ وإذا كان الأمر كذلك، فأي منهما الذي يفيد ترتيبه؟ ما هو التصرف الذي ننصح به الوالدين عندما ينزع أطفالهم إلى العصيان؟

أصحاب نظرية الكتابين يشيرون علينا — وهم على حق في ذلك — بأنه علينا ألا نثق تمامًا في أي من نتائج كلتا المجموعتين؛ فكل من الدراسة السيكولوچية والدراسة اللاهوتية تتطلب استخدام عقول محدودة وساقطة؛ فالأفكار التي نتوصل إليها - سواء من الطبيعة أو من الكتاب المقدس - قد تسيء تقديم الحق الذي أعلنه الله.

وبغض النظر عن مجادلة البعض بقوة بأن الكتاب المقدس معصوم من الخطأ، فإنه ليس بمقدورنا أن نخلع على فهمنا للكتاب المقدس نفس الثقة التي نوليها للنص نفسه، وهكذا أيضًا النتائج التي نتوصل إليها من البحث العلمي قد تعكس المفهوم الخاطئ الذي ننظر به أحيانًا إلى الأمور بدلاً من حقائق الطبيعة الفعلية.

وحين يحدث التناقض بين فكرنا اللاهوتي وفكرنا السيكولوچي، يشجعنا المفكرون الذين يتبنون مبدأ الكتابين على إعادة تقييم مجموعتي النتائج كلتيهما، وبالنسبة لهذا أود أن أُقر بوضوح بأنني أتفق مع هذا الإجراء، فهذا هو بالضبط ما يتوجب علينا عمله؛ فقد يكون ثمة خطأ في فهمنا للنص الكتابي أو في فهمنا للبيانات التي استخلصناها من الطبيعة، غير أن الطريقة التي نعيد بها فحص الكتابين - من وجهة نظري - يجب أن تُراعى فيها الدقة البالغة.

يجادل أتباع نظرية الكتابين بالقول إنه يتعين علينا أن نعيد دراسة مجموعتي النتائج - على ألا يخامرنا أمل كبير في اكتشاف «حق سيكولوچي» نستطيع أن نلزم أنفسنا به، وذلك في الكتاب المقدس وليس في المعمل؛ وعلى ذلك فالاعتماد على الإعلان الإلهي يقودنا إلى حالة من الشك لا يستطيع أن يدبر لنا الكتاب المقدس أو العلم مَهرَبًا منها.

فما الذي يحدث إذن ؟ ينتظر الآباء كلمة من الخبراء المسيحيين، لكن الخبراء ليس عندهم كلمةً أكيدةً، وباستعمال متناغم لطريقة الكتابين فإن التناقضات بين النتائج الكتابية والسيكولوچية لا يمكن حلها إلا بواسطة «الحكم الشخصي»، فقد تم في الواقع التخلص من الكتاب المقدس، وأصبح العقل البشري هو المحكِّم الأخير، وما يدَّعيه أتباع نظرية الكتابين من ناحية أنهم يعتمدون على الوحي الإلهي ثبت أنه ادّعاء باطل وذلك بعودتهم الحتمية إلى المذهب العقلي أو المذهب التجريبي.

الحق كله هو حق الله:

وثمة ملمح ثان خاص بنظرية الكتابين يسبب لي إزعاجًا؛ حيث يركز على استخدامه للحقيقة البديهية بأن «كل الحق هو حق الله» وهذه البديهية صحيحة؛ فالحق هو الحق سواء كان حقًا علميًا أو حقًا لاهوتيًا، وسواء وُجِدَ في معمل سيكولوچي، أو في مكتبة دارس الكتاب المقدس، أما القول بأن الحق الكتابي أكثر سلطانًا من الحق العلمي فهذا هراء؛ ذلك أن للحق سلطانه على الخطأ، وليس على حق آخر. وقد يكون لحق ما علاقة بسؤال معين أكثر من علاقته بحق آخر، غير أنه لا يوجد حق له سلطان يفوق سلطان حق آخر وسلطان الحق يكمن في مصداقيته وليس في المكان الذي وُجِدَ فيه.

وإذا واصلنا الجدال بالسؤال: «أي من الكتابين له سلطة أكبر بالنسبة للمشورة، هنا يمكن إقامة دليل عادل يؤكد أن الكتاب المقدس لديه ما يقوله للمشير أكثر مما يقوله له العلم السيكولوچي، وإذا شق المشير طريقه وسط تعقيدات الأعراض والشكاوى سيُواجَه أخيرًا باهتمامات أساسية تتعلق بالمحبة والغرض والخطية... وإذا كان الكتاب المقدس هو الإعلان الإلهي للإنسان عن الضروريات اللازمة للحياة، فعلينا في هذه الحالة أن نتوقع وجود إجابات عن الأسئلة الجوهرية المتعلقة بالحياة على صفحاته، غير أن اهتمامي فى الوقت الحاضر منصب على السلطان بأكثر من اهتمامي بالعلاقة، وبالنظر إلى أن كل الحق هو حق الله؛ فمن المعقول إذًا المجادلة بالقول إن سلطان الحق الذي من الكتاب المقدس هو - من ناحية ما - أقوى من سلطان الحق الذي يُكتَشَف في المعمل؟

وكما سبق القول، ليس بوسعنا الهروب - بأي شكل كان - من الشكوك التي تنتابنا حين نعلن فهمنا لما هو حق - بغض النظر عما إذا كنا قد لجأنا إلى الكتاب المقدس، أو إلى

العلم - وفي كل محاولة لتعريف الحق نستخدم عقولنا المحدودة والفاسدة، وبالنظر إلى أن تأثير السقوط في الخطية قد امتد ليشمل قدرتنا على التفكير، فعلينا إذن أن نعترف بأنه على الرغم من أن كل الحق هو حق الله، إلا أن ما هو حق قد لا يكون حقًا على الإطلاق.

وتدفُّق هذا المنطق ينقلنا - لا محالة - إلى المذهب التشكيكي المحبط، والذي قُدِّر لنا أن نهيم طوال حياتنا نخمن أي طريق ينبغي لنا أن نسلكه؛ ولذلك كان هناك أمران يؤرق من ناحية نظرية الكتابين؛ الأول - كما سبق وقلت - هو أنها تجبرنا على التقهقر إلى المذهب العقلي وذلك حين يتعارض فكرنا اللاهوتي مع الناحية السيكولوچية. ولم يعد يُتاح للكتاب المقدس بعد، أي دور له مغزاه في التحكم النهائي. أما الأمر الآخر الذي يسبب لي قلقًا فيتولد عن الأول؛ وهو يتعلق بالكيفية التي نرد بها على الشكوك المتأصلة في كل صيغنا (وهو شك يتواجد حتى حين يبدو الأمر وكأن الفكر اللاهوتي والفكر السيكولوچي يساند كل منهما الآخر) وفي مواجهة حالة الشك التي لا مفر منها، لعل أكثر المعايير قبولاً للاختيار هو المذهب العملي، ولكن ما الذي يساعدني الآن على إنتاج ما أقدر عليه، فإذا كان العلاج الأوّلي يخلصني من التوتر العاطفي فلماذا لا أنتفع به؟

والشكوى من أن العلاج الأوّلي قد لا يكون حقيقيًا، تفقد مبرراتها إذا سلّمنا بأنه ما من أحد بمقدوره أن يعرف ما هو حقٌ بالفعل، وإذا كان تقديم المشورة بأسلوب القيام بدور الأب يساعد امرأةً تعيسة على الشعور بالأمان، فمَن الذي بوسعه أن ينتقده، وفي عالم لا يمكن سماع الحق فيه، تكون النتائج صاحبة الصوت الأعلى، أما نظرية الكتابين - بعض صيغها تقول بالنظر إلى أن جميع التفاسير معرضة للخطر، فمن ثم يجب أن تعتمد على أكبر قاعدة ممكنة من البيانات - فتبتعد عن الاعتماد على الكتاب المقدس وتتجه نحو المذهب العقلي وأخيرًا المذهب التجريبي، وحين يحدث التناقض بين نتائج الفكر اللاهوتي والفكر السيكولوچي عليك أن تعمل على أن تكون هذه النتائج خالية من الخضوع للبيانات الكتابية وهذا هو المذهب العقلي.

ومن حيث إن جميع نتائجنا سواء الناجمة عن الفكر اللاهوتي أو السيكولوچي، لا بد وأن تظل تجريبية، فإن قرارنا بالتصرف يجب أن يخضع لما نعتقد أنه حق بدرجة أقل - بالنظر إلى أننا ببساطة لا نعرف حقًا - ونخضع بالأكثر لما نعتقد أنه سيعطينا نتيجة

فورية وتكون نتائج ملموسة على الأقل تلك التي بمقدورنا قياسها، وهذا هو المبدأ العملي التجريبي.

حجة تساند سلطة الكتاب المقدس

إذا كان هناك طريق يبعدنا عن الاعتماد على المذهب العقلي والعملي فيما نحاول بيان الطريقة التي نقدم من خلالها المشورة، فإن هذا الطريق لن يتم العثور عليه إلا بتوضيح أن نتائجنا - التي تحتمل الخطأ والناجمة عن دراستنا الكتابية - تستحق أن نعطيها قيمةً عند وضع نظريتنا أكبر مما نوليه لنتائجنا التي تحتمل الخطأ والناجمة عن دراستنا العلمية. وإذا كان للكتاب المقدس بطريقة ما أن يستعيد وضعًا يتسم بسلطة حقيقية على العلم، فيجب أن يتبيَّن أنه من المعقول أن نثق في الأفكار المستمدة من الكتاب المقدس أكثر من الثقة التي نوليها للفرضيات التي نتوصل إليها من دراستنا لعلم النفس، والخطأ محتمل في الحالتين ولكن، هل نشعر بأمان أكثر لو اعتمدنا على إحداهما أكثر من الأخرى؟

لاحظ بعناية ما تتطلبه هذه الإيضاحات، ويجب علينا أن نجادل بالقول إن الخطأ الأقل من المحتمل أن يفسد نموذج المشورة الذي يقوم على أسس كتابية بأكثر من تأثيره على النموذج الذي أقيم على أساس البحث العلمي، وهذا هو بالضبط ما أريد المجادلة بشأنه، وفيما يلي أربع نقاط في حجتي:

١- غرض الله من إعلانه عن ذاته في الكتاب المقدس يختلف عن قصده من إعلان ذاته في الطبيعة؛ ذلك أنه في الطبيعة أعلن عن قدرته السرمدية ولاهوته «رومية١: ٢٠»، لكي يدفع الناس إلى التسليم بمسئوليتهم تجاه خالقهم.

ومن المؤكد أنه أمر سليم أن ندرس الكون الطبيعي لكي نفهم بشكل أفضل كيف تعمل الأشياء حتى يمكن تدفئة البيوت في الشتاء، ويمكن معالجة العدوى التي تصيب الأذن، غير أن قصد الله الأدبي في الطبيعة هو معرفة أنه شخص يمكننا الاعتماد عليه، وعلى الرغم من ذلك فإن الله في الكتاب المقدس يفعل أكثر من ذلك بكثير، وغرضه الأدبي في إعطائه الكتاب المقدس لنا هو أن يشير بنعمته إلى محنتنا، ويخبرنا بالحل الذي أعده للمشكلة، ويعلمنا كيف نقبل هذا الحل.

وخلاصة القول إن الكتاب المقدس يخبرنا كيف نجد الحياة وهذا هو ما تهتم به المشورة وهو مساعدة الناس الذين يعانون من المشاكل التي تسلبهم حياتهم، كي يتغلبوا على هذه المشاكل وأن يعيشوا حياتهم على النحو الذي قُصِد لهم أن يعيشوا عليه.

ولم يُقصَد بالطبيعة أن تكون كتابًا عن الحياة، ولكن الكتاب المقدس قُصِدَ له أن يكون هكذا، والمشاكل التي يأتي بها الناس إلى المشير تتضمن دائمًا قصورًا أو شكوى في الحياة؛ القلق الذي يَحمِل من يعانون من رُهاب الخلاء على البقاء في البيوت، الكآبة التي تسلب الحياة فرحها ومغزاها، الإكراه أو الإلزام الذي يَحمِل الناس على عمل أشياء تتداخل مع العمل العادي؛ أي كل الحقائق التي تعترض التمتع بحياة فعالة. وإذا كان من المفترض في المشيرين أن يساعدوا الناس على أن يعيشوا حياتهم على النحو الذي قُصِدَ لهم أن يعيشوا على أساسه، وإذا كان الكتاب المقدس هو الكتاب الذي يخبرنا الله فيه كيف نحل مشاكلنا كي نعيش، فمعنى هذا أننا نتوقع من الكتاب المقدس أن يقدم مساعدة للمشيرين أكثر مما تقدمه لهم الدراسة العلمية للطبيعة.

٢- بساطة الكتاب المقدس هي السبب الذي يَحمِلُنا على الرجوع إلى صفحاته بثقة، وعلى الرغم من أن به الكثير مما يصعب فهمه؛ إلا أنه لا يزال الإعلان في صيغته اللفظية والبيانية، بمعنى أنه يتكون من كلمات عادية قالها أناس عاديون لأناس آخرين عاديين عن موضوعات تم التعبير عنها بطريقة عقلانية، ولكن الطبيعة ليست إعلانا إلهيًا لفظيًا؛ فهي تصور بدلاً من الكلام، وهي تقدم لنا ملاحظات غير منطوقة تحتاج لترجمتها إلى رموز لفظية حتى يمكن فهمها، وقد تحقق إحدى الصور ما تحققه ألف كلمة، ولكن عندما تكون دقة المعنى هي المبتغاة فإن العبارات تؤدي وظيفةً أفضل، والوضوح الفائق للإعلان الإلهي اللفظي مقابل أية صيغة أخرى يعد حجةً للاعتماد على الكتاب المقدس بأكثر من اعتمادنا على العلم عند عمل نموذج للمشورة.

٣- نقاء الكتاب المقدس كإعلان إلهي لم يقربه فساد يتعارض مع عيوب الطبيعة التي تئن وتلعن، وكل ما يقوله الكتاب المقدس يمكن الوثوق فيه، لأن تأثيرات الخطية حيل بينها - وبشكل خارق للطبيعة - وبين أن تلطخ تعاليمه، ولكن الطبيعة لم تتم حمايتها على هذا النحو، وما نتعلمه في الطبيعة قد يعكس نتيجة الخطية، وإذا كانت التقارير

العلمية تذكر أن الأزواج الذين مارسوا الجنس قبل الزواج يختبرون إشباعًا عاطفيًا في الزواج أكثر من الأزواج الذين لم يفعلوا ذلك؛ فإن هذه البيانات لم توجد إلا بسبب عمليات خاطئة شوهت الحياة ولم تتركها على الحال الذي أُريد لها أن تكونه.

ونحن بالطبع بوسعنا أن نتعلم دروسًا عن الجد والاجتهاد في النملة، ولكن ذلك مرده أن الكتاب المقدس أجاز هذا التعليم، وإذا كان لنا أن نتَّبع نماذج أخرى في الطبيعة دون أن نبالي بترخيص من الكتاب المقدس، فربما نفترس الضعيف، وننام طوال الشتاء، أو قد نتحرر جنسيًا. وكل ما يخبرنا الكتاب المقدس أن نعمله، بوسعنا أن نعمله مطمئنين من ناحية أننا على الطريق الصحيح؛ لأن الكتاب المقدس كامل من الناحية الأخلاقية في تعليمه، ولكن الطبيعة ليست كذلك. والنتائج التي يتم التوصل إليها من الدراسة الكتابية تستحق لذلك ثقتنا بأكثر مما تستحقه الأفكار التي نتعلمها من الطبيعة.

٤- لدينا الوعد الواضح بمساعدة الروح القدس إذا ما أتينا إلى الكتاب متضعين نلتمس التعليم بأمانة شخصية، وليس للعلماء مثل هذا الوعد في دراستهم.

تلك أربعة أسباب، وهناك أسباب أخرى هي:

الغرض الذي يرمي إليه الكتاب المقدس هو البساطة، النقاوه، والوعد بمساعدة الروح القدس حين ندرسه، وقد تضافرت هذه الأسباب معًا لتبرر الثقة في الاستنتاجات التي قد تحتمل الخطأ، والتي تم التوصل إليها من خلال دراسة الكتاب المقدس، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للاستنتاجات التي تحتمل الخطأ الناجم عن البحث العلمي.

وفيما كنت أحاول وضع نموذج للمشورة، بدأت بقناعة من أنه يجب السماح لدراستي لكلمة الله المكتوبة أن تسيطر على تفكيري بأكثر من أية بيانات أخرى؛ لأنه حينما يتكلم الكتاب المقدس فإنه يتكلم بسلطان، وحين لا يتكلم فيمكننا أن نلجأ إلى مصادر أخرى من المعلومات لمساعدتنا.

ودراسة تفكير أناس آخرين، سواء كانوا مسيحيين أم غير مسيحيين، قد تكون مستفزة، والبيانات السيكولوجية ونظرياتها يمكن أن تكون كمحفزات؛ حيث تدفعنا أن نتأمل في اتجاهات عديدة في تفكيرنا، وقدرتنا على التفكير وبديهتنا يجب أن يكون لهما دورًا في جهودنا التي ترمي إلى عمل نموذج للمشورة، غير أنه في كل ما نعمله، يجب أن

يمدنا الكتاب المقدس بالإطار الذي نعمل خلاله والمواعيد التي نستخلص منها نتائجنا.

وقد عرض الكتاب المقدس للكثير مما يتعامل معه المشير، ثم إنه - كما آمل أن أبيّن - يمدنا بقاعدة لفهم كل موضوع أساسي فيناضل معه المشيرون، والجدال الذي يؤكد سلطان الكتاب المقدس في مجال تقديم المشورة معناه:

١- إنه يتوجب علينا أن نأتي إلى الكتاب المقدس بروح الأمل والخضوع.

٢- على الرغم من أننا قد نعتبر أن الأفكار السيكولوچية محفزة، إلا أنه لا يجب علينا إطلاقًا أن نعتبر أن لها سلطانًا، والبيانات الفعلية للبحث السيكولوچي لا يمكن بالطبع تجاهلها. علينا أن نواجه كل ما نلاحظه أيًا كان ثم نأتي إلى الكتاب المقدس لنعرف السبب في وجود هذه البيانات، وما الذي ينبغي علينا عمله استجابةً لما لاحظناه، غير أنه في كل حالة يجب أن يكون القول الفاصل لتعليم الكتاب المقدس.

وفي هذا الفصل لم أؤكد على أنه يتوجب علينا الاعتماد على الوحي الإلهي في الحصول على المعلومات اللازمة للمشورة فقط؛ بل أكدت أيضًا على أن الوحي الإلهي الكتابي يجب أن يكون هو المرشد المسيطر الذي يوجه كل تفكيرنا فيما يتعلق بالمشورة.

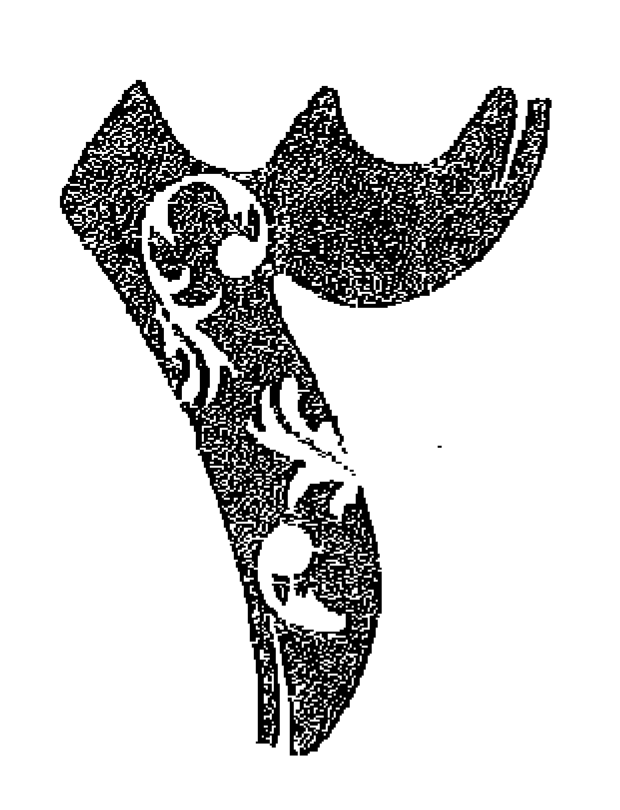
والآن أود أن أتقدم بالحجة خطوةً إلى الأمام؛ فالتأكيد على أن الكتاب المقدس يجب أن يكون مرجعنا في كل ما نتناوله، هذا شيء، أما الاعتقاد بأن الكتاب المقدس يتعامل بالفعل مع كل الأسئلة التي يطرحها المشيرون، فهذا شيء آخر.

وفي الفصل التالي سننتقل من التأمل في «سلطان» الكتاب المقدس في وضع نموذج للمشورة لمناقشة «كفايته» الشاملة لتلك المهمة، وإن المناقشة تتطلب منا النظر إلى الموضوع الصعب الخاص بتفسير الكتاب المقدس، وإذا كان الكتاب المقدس كافيًا، فكيف نجد في النص الأسئلة التي يطرحها المشيرون؟



الفصل الثالث

هل يوجد في الكتاب المقدس حديث موجَّه لكل مشكلة إنسانية ؟



هل الكتاب المقدس كتاب للمشورة.. أم أنه ليس كذلك؟ هل يقدم مساعدةً فعَّالةً للتفكير في الأسئلة الصعبة التي يضطر المشير إلى طرحها حين ينخرط في تفاصيل الحياة المتسمة بالفوضى.. أم أنه لا يفعل ذلك؟

وهل بوسع المشير أن يتعلم من دراسة الكتاب المقدس كيف يساعد شخصًا تمكن منه الاكتئاب.. أم أنه ينبغي عليه التوجُّه إلى مصادر أخرى؟ وهل به إجابات على أسئلة مثل:

كيف أتعامل مع مقاومة طالب المشورة؟ وما الذي يسبب حقًا «الشره المَرَضي»؟ هل أجد الإجابات مستترة في مكان ما بين سفر التكوين وسفر الرؤيا، أم أن الله لم يقصد إطلاقًا أن يقدم الكتاب المقدس إجابات على الأسئلة السيكولوچية؟

وأيًا كانت الأسئلة التي يجيب عنها الكتاب المقدس فإن إجاباته صحيحة، ولعلها لا تكون بالذات التي نريدها نحن في بعض الأحيان، لكنها دائمًا صحيحة. وحين يجيب الكتاب المقدس بالفعل على أسئلة المشير، يجب علينا تقبُّل الإجابات على أنها جازمة، وحين لا تكون الإجابات موجود هناك، فهنا يكون أمرًا ضروريًا ومشروعًا أن نبحث عن إجابات في أماكن أخرى بالنسبة للأسئلة التي لم نجد لها إجابات في الكتاب المقدس.

ويتوجب عليّ أن أذكر فرقًا جوهريًا بين نوعيتين من المشاكل التي تنتج كل منها قائمة الأسئلة الخاصة بها:

١ – المشاكل الناجمة عن أسباب مادية طبيعية.

٢ – مشاكل نابعة أساسًا من أسباب أخلاقية.

وتتضمن النوعية الأولى مشاكل مثل:

بعض - وليس الكل بالطبع - حالات الاكتئاب، وبعض حالات الاضطرابات الجسدية أو النفسية الأخرى.

المشاكل السلوكية أو العاطفية النابعة من الاختلال الكيميائي، الأذى البدني، أمراض انحلالية الأساس (على سبيل المثال، أعراض القلق الناجمة عن سن اليأس)، حالات العجز الناجمة عن قصور في الإدراك الحسي، والاضطراب العقلي الناجم عن المخدرات. أما المشاكل التي تندرج تحت النوعية الثانية:

فهي تلك التي يمكن إرجاعها إلى الاستراتيجية التي اختُبِرَت - على الرغم من أن حقيقية الاختبار قد يتم إنكارها - للتعامل مع معارك الحياة التي تتناقض مع الثقة العميقة في الرب، والتي لا تعكس ردًا ينم عن الطاعة المتزايدة.

كما آمل أن أبين في الجزء الثاني من هذا الكتاب، أن معظم ما يُعرَض على المشير يكون من النوعية الثانية؛ وعلى ذلك يمكن وبحق التجاوب معه على أنه بالضرورة من المشاكل الأخلاقية، وأود في هذا الفصل والفصل الذي يليه أن أثبت صحة كفاية الكتاب المقدس من ناحية تقديم بنية واضحة وكافية لفهم المشكلات التي من النوعية الثانية والتعامل معها، واسمحوا لي أن أطرح السؤال ببساطة: هل الكتاب المقدس كافٍ لتقديم إطار للإجابة على كل سؤال يواجه المشير؟

وإذا ما تم حسم موضوع السلطان الكتابي، هنا يتوجب مناقشة الكفاية، وليس ثمة فائدة من تأكيد سلطان الكتاب المقدس، وفي نفس الوقت يتم إنكار كفايته المقصودة، ولذلك يصبح من المهم للغاية تحديد نوعية الأسئلة التي قُصِد أن يكون الكتاب المقدس كافيًا للإجابة عليها، وهنا يمكن على الأقل اتخاذ ثلاثة مواقف مختلفة:

١- كلا، الكتاب المقدس ليس كافيًا؛ لأنه لا يجيب بصفة مباشرة عن كل سؤال يتعلق بالكيفية التي يتوجب أن نعيش بها حياتنا على هذه الأرض، وعن الكيفية التي يمكن أن نعيش بها الحياة طبقًا لنموذج فعال.

٢- نعم، الكتاب المقدس فيه الكفاية؛ لأنه يجيب بالفعل عن كل سؤال عن الكيفية التي يجب أن نعيش بها حياتنا على هذه الأرض، وعن الكيفية التي يمكن أن نعيش بها حياتنا طبقًا لنموذج فعال.

٣- نعم، الكتاب المقدس كافٍ؛ لأنه إما يقدم معلومات مباشرة، أو نوعيات جازمة للإجابة على كل الأسئلة عن الكيفية التي يجب أن نعيش بها حياتنا على الأرض، وعن الكيفية التي يمكن أن نحياها طبقًا لنموذج فعال.

وحين لا يكون الكتاب المقدس واضحًا بالنسبة لأمر ما، فإن النوعيات الكتابية تقدم إطارًا للتفكير في إجابة كافية بالنسبة لهذا الأمر.

وفيما نفكر مليًا في هذه المواقف، لا تنسوا أنني أُسلّم بوحي الكتاب المقدس وعصمته وسلطانه؛ فكل ما يقوله الكتاب المقدس صحيح، وتعاليمه ملزمة. والأمر المهم الآن هو فحص موضوع الكفاية، هل يقول الكتاب المقدس ما فيه الكفاية وبشكل يوجّه المشير المسيحي في كل ما يعمله؟

الموقف (١)

الكتاب المقدس لا يجيب بشكل مباشر عن كل سؤال مشروع يتعلق بالمشورة؛ وعلى ذلك فإنه من الضروري، بل من الصواب اللجوء إلى معلومات ونظريات سيكولوچية مفيدة في هذا الشأن.

هل الكتاب المقدس كتاب للمشورة؟

يقول كثيرون من المسيحيين:«بالطبع لا، فلم يخطط الله إطلاقًا لكتابة دليلٍ شامل خاص بتقديم المشورة، كما أنه لم يضع تعليمات للسباكين كيف يسلّكون بالوعة مسدودة؛ فالكتاب المقدس يتناول موضوعاتٍ روحيةً، كما أن السباكين مختصون بالبالوعات، وأطباء الأسنان مختصون في علاج أمراض الفم والأسنان، والمشيرون مختصون بالمشاكل النفسية، وعليك أن تحدد الكتاب الذي تقرأه على أساس نوعية اهتمامك».

وإذا اتبعنا هذا الخط من التفكير، فقد نتجه إلى الأفكار التي تولدت عن البحث النفسي (السيكولوچي) والخبرة الإكلينيكية، وليس بغية أن تحفزنا فحسب الملاحظات التي تتطلب توضيحًا، بل لنجد إجابات أساسيةً لأسئلةٍ مهمة عن الحياة، والتي بكل بساطة لم يعرض لها الكتاب المقدس، ويعترف الكثيرون أن الكتاب المقدس يوضح مواقف عقيدية وأخلاقية يتوجب علينا اتّباعها، أما تفاصيل فهم المشورة وطريقتها

فينبغي تعلمها من خلال وسائل أخرى، ومن المسموح به استخدام معلومات أخرى غير كتابية عند التفكير مليًا في الموضوعات المتعلقة بالمشورة.

لاحظ بعناية كيف تحدد كلمة «كتابي» عند اتباعنا الموقف (١) ونموذج المشورة يمكن أن يُوصَف بأنه كتابي إذا لم يخالف إطلاقًا التعليم الكتابي الواضح عن العقيدة أو الأخلاقيات، والأمر المهم هنا ليس ما إذا كانت أفكارنا عن المشورة «مأخوذة» عن الكتاب المقدس أم لا، بل المهم ببساطة أنها لا يجب أن تناقض الكتاب المقدس.

إنها لحقيقة بالطبع أن الكثيرين من المشيرين المسحيين الذين لا يقدِّرون الكتاب المقدس حق قدره قد شعروا بارتياح كامل تجاه هذا التفكير، لكن الكتاب المقدس يتناول الاهتمامات الدينية، أما فيما يتعلق بالإجابات على الكثير من الأسئلة المهمة عن الحياة، فعليك أن تُفسِحَ مكانًا أساسيًا لعمل علماء النفس المحدثين، ومع ذلك فإنها حقيقة أن بعض المسيحيين المحافظين الذين يشددون على عصمة تعليم الكتاب المقدس وسلطانه يعيشون بالفعل حسب هذا الموقف الأول. تأمل ما يحدث في كثير - من المؤكد ليس كل - من منابر الكرازة بالكتاب المقدس؛ يظل الرعاة آمنين وفي منأى عن المتاعب الحقيقية التي تنتاب حياة شعبهم، محتمين وراء التزامهم بالتفسير. ويبدأ الراعي بقوله: «أيها الرجال أحبوا نساءكم»، ولمدة الثلاثين دقيقة التالية يستمع الحاضرون في الكنسية إلى نتائج دراسته المخلصة والدقيقة للنص، وأثناء الشرح والتفسير إذ بأحد الرجال - في الثالثة والعشرين من عمره ويعمل مندوب مبيعات بإحدى شركات التأمين - ينظر إلى زوجته شذرًا - وهي المرأة التي كانت تثير فيه موجةً عاتيةً من الغضب في كل مرة تتكلم فيها لسبب غير معروف، ولقد أضافت العظة إلى شعوره بالذنب فقام وتقدم إلى راعيه طلبًا لمساعدته.

«لقد حاولت أن أحب زوجتي على غرار الحب الذي تحدث عنه بولس الرسول في أفسس، ولكن ببساطة لا أعرف كيف أفعل ذلك» - هذا ما اعترف به أثناء جلسة المشورة مساء يوم الإثنين - وأردف قائلاً: «لقد طلبت منها أن تسامحني وكنت أقضي أوقات منتظمة في قراءة الكتاب المقدس، ولكن المحاولة لم تنجح، ولمدة سنوات حاولت أن أتصرف بمحبة، آملاً أن تأتي مشاعر المحبة، لكنها لم تأتِ. فما عسى أن أفعل، هل أستمر فيما كنت أعمله؟»

قال الراعي: «سام، قوة الرب متاحة لك لتساعدك على أن تحبها حقًا، وعلى النحو الذي يتعين عليك عمله، وإذا كنت حقًا تريد أن تكون الزوج الذي اختاره الله لهذه المرأة، فعليك إذن أن تحترم تعهداتك للرب ولها، وتذكَّر أن المحبة الكتابية ليست شعورًا بل عملاً، عليك أن تواصل عمل ما تعرف أنه صواب»، وبعد بضعة أسابيع عاد «سام» إلى جلسة أخرى قائلاً: «أيها القس لقد حاولت أن أعمل ما قلته لي، لقد حاولت بالفعل، لكن الأمور تزداد سوءًا؛ الليلة الماضية ضربت زوجتي للمرة الأولى، وإني أكره نفسي لهذا، ولكن أخشى أن أُلحِق بها أذى شديد في وقت من الأوقات».

وعند هذه النقطة يشعر كثيرون من الرعاة الأتقياء أنهم في حيرة بالغة - ولهم حق في ذلك - لأنهم يفتقرون إلى الخبرة اللازمة للتعامل مع الأشخاص الذين يغضبون بعنف، ويبدو أن الإحالة إلى مشيرين ذوي خبرة في التعامل مع الأشخاص الذين يغضبون غضبًا عنيفًا أصبح أمرًا مناسبًا.

ولكن لماذا؟ هل هناك سبب لهذا الإجراء أكثر من الاهتمام بأن يتلقى «سام» أفضل مساعدة ممكنة؟ إنني أشك في أن وراء الكثير من تحويل الرعاة المشيرين عملاءهم للمترددين عليهم من المستشيرين طالبي المشورة، إلى مشيرين محترفين أكثر من مجرد الاعتراف بعدم الخبرة، والموضوع الذي يزعجني في أن هذه الإحالات تعكس أحيانًا اعتقاد المشير بأن الكتاب المقدس لا يكفي حقًا لتقديم المساعدة المطلوبة، والبعض تنعكس على وجوههم نظرتهم الحقيقية حين يقولون إن الناس سيكونون أكثر تفتحًا للإجابات الحقيقية للكتاب المقدس، بعد معرفة الأسباب العاطفية الحقيقية لمشكلتهم، والنقطة المهمة التي يجب ملاحظتها هي: «إنه لم يتم الاهتمام بشكل جاد بفكرة أن الكتاب المقدس ربما يستطيع أن يعطي مشورةً فيما يتعلق بموضوع غضب «سام» المفرط».

ومعظم المسيحيين يفتقرون إلى الثقة في ما يقال من أن الكتاب المقدس سيتناول بكلام نافع ومفيد كل موضوع يتعلق بالحياة، ثم إن الحلقات الدراسية - ودون قصد منها - تقوّي من هذا الشك أيضًا حين تفشل في مواجهة الطِّلبة بكل دقة ووضوح بالأسئلة المزعجة عن الحياة الحقيقية حتى أن الناس يتساءلون:

- كيف أقاوم الرغبة الملحّة في ممارسة العادة السرية؟

- يتملكني القلق كثيرًا فيما يتعلق بالمال، كيف أتخلص من ذلك؟
- ماذا عساي أن أفعل حيال الخوف من البقاء وحدي، وهو الأمر الذي بدأت أشعر به منذ حادث الاغتصاب؟
- لا أستطيع الاقتراب من الناس، كيف أتغلب على خجلي الاجتماعي؟
- لماذا أشعر بالخواء؟ أين هي الحياة الأفضل؟
- كيف أتعامل مع زوجي، إنه في غاية القلق على أطفالنا حتى أنه لا يكف عن وعظهم؟

الطلبة الذين يعبّرون عن قلقهم بالنسبة للناحية العملية لدراستهم التقنية، يمكن تذكيرهم بقوة كلمة الله، وإن وبأن مهمة الواعظ هي أن يعلن رسالتها بأمانة، ويبدو أن الفكر السائد هو أن نوعية المشاكل السابق ذكرها، ستختفي تمامًا إذا تقبّل الناس حقائق الكتاب المقدس العظيمة؛ وعلى ذلك لا ينبغي على الرعاة أن يقلقوا بشأن التفاصيل المحيرة والتي تكون أحيانًا منفرة والخاصة بحياة الناس، ثم إن النتيجة المطهرة للتعليم الكتابي سوف تطهر حياة الناس بطريقة ما دون أن يحتاج الراعي إطلاقًا إلى التدخل صراحةً في مجتمع متفتح، متعاون، يواجه مشكلاته بصراحة، ومثل هذا التفكير يسلب من الشركة بعضًا من قيمتها الحقيقية من ناحية منع التقسّي (عب ٣:١٣) ومن إثارة المحبة المتزايدة (عب ١٠:٢٤) لقد تفسخت كنائسنا إلى مجرد جماهير تكتفي بالحضور، وليس إلى مجتمعات، وما عاد لشيء أهمية سوى المنبر.

غير أن الرعاة الأمناء الذين يدركون ما يحدث في حياة الناس، سرعان ما يدركون أنه قد طُرِحَت عليهم أسئلة شخصية مهمة، وليس لديهم إجابات عنها؛ ولذلك يحيلون طالب المشورة إلى مشيرين مدربين، ويشعرون بعدم الارتياح لعجزهم عن إحداث تأثير للكتاب المقدس على نواح معينة من الحياة، غير أنهم يُعزّون أنفسهم بالقول إن هذه الموضوعات تتعلق بمشاكل سيكولوچية وليست روحية.

والرأي القائل بأن الوعظ الجيد والدراسة الجادة للكتاب المقدس سيحلان المشاكل الشخصية دون انخراط مباشر في هذه المشاكل، يثير فيَّ قلقًا آخر، وأحيانا أسائل نفسي ما إذا كان هؤلاء الأساتذة الذين يعلّمون وجهة النظر هذه بصراحة ليسوا مذنبين بالهرب بعناد من هذه المشاكل حمايةً لأنفسهم، ولعله ليس لدى البعض منهم فكرة

عما يفعلونه إزاء الأسئلة الصعبة التي يطرحها الناس، وقد تكون حياتهم هم أنفسهم قد ابتليت بالمشاكل التي ما زالت دون حل، وبدلاً من الإسراع إلى الكتاب المقدس بالأسئلة الملحّة التي أثارتها الحياة الحقيقية، نراهم يتوارون عن الناس وأسئلتهم وراء الحاجز المقبول وهو: الدراسة، وهنا يمكن لأدوات التفسير ومبادئه أن تصبح الذرائع التي ينتحلونها لإنكار حقيقة المشاكل التي لم يتم حلها، وتظل الحياة الحقيقية دون فحص والأسئلة الخاصة بالحياة الحقيقية تظل دون إجابة، في حين يعلن الوعاظ نسخةً لا حياة فيها من الكلمة الحية.

وإني أتناول هذا الموضوع بحرص لأني لا أريد أن يُساء فهمي؛ فالدراسة الواعية الدقيقة للكتاب المقدس لها أهميتها القصوى، ومعرفة اللغة العبرية، الآرامية واليونانية، ومعرفة السياق الثقافي الذي كُتِبَت فيه الأسفار المقدسة، من الأمور التي لا جدال في قيمتها الكبيرة، ووضع مبادئ للتفسير تمنعنا من إطلاق العنان لخيالنا في تفسير وتطبيق الكتاب المقدس وتطبيقه، يعد عملاً جديرًا بالثناء، ثم إن الطلبة الذين يدرسون الكتاب المقدس يحسنون صنعًا، إذا ما درسوا هذه المواد بجدية.

غير أن عمل التفسير والتأويل على النحو الذي يُمارَس به عادة قد أبعدنا - بطريقة ما، وإلى حد كبير جدًا - عن حقائق حياة الشعب، ولا بد أن يكون هناك خطأ ما، حين نجد أن الرسالة - التي بَعث بها إله محب إلى الشعب الذي خلقه - قد أصبحت رسالةً أكاديميةً يجب دراستها، أكثر مما هي حق عجيب يجب أن نستوعبه ونتنفسه.

إن الاهتمام بسد الثغرة بين ما يعنيه النص، وبين ما يفهمه الناس منه في أيامنا هذه، ليس بالأمر الجديد، ولكني أعتقد أنه مازال موضع اهتمام حقيقي، وهو أمر لم يتم حله إلى درجة كبيرة.

ولعل جوهر المشكلة لا يكمن في وسائل دراسة الكتاب المقدس بقدر ما يكمن في الغرض من هذه الدراسة، وإنني أتساءل ما إذا كان التركيز في التعليم في كثير من الحلقات الدراسية يَنصَبُّ - في جزء منه - ليس على فهم المعنى الحقيقي للنص، بل بالأحرى تجنب أية علاقة مُتواضعة بالارتباك الذي ينتاب حياة الشعب، ولعل تتبع أصل كلمة نادرة الاستخدام في اللغة العبرية وتاريخها، أسهل من المواجهة مع الحقائق الحالية المتعلقة بالمشاكل المعقدة في هذه الحياة، لفقد أصبحت المكتبة اللاهوتية بالنسبة للكثيرين

مخبأ يلوذون إليه هربًا من الحياة، بدلاً من أن تكون مكانًا للدراسة نخرج منه مسَلَّحين بكلمة الله الحية الصادقة ومستعدين للخوض في الأجزاء العميقة من حياة الناس، ولقد كانت النتائج مأساوية؛ فالكنائس التي تُدار بواسطة رعاة فشلوا في معرفة العلاقة المُلِحَّة بين الكتاب المقدس وكل مناحي الحياة، قد أصبحت حلقات دراسية مصغرة وصلت تواصل تقليد التقهقر والإنكار وتخفيه وراء تأكيداتهم المتبجحة بأنهم ينشدون الرأي المستقيم، والرسالة في مثل هذه الأماكن واضحة: «إن مجتمع شعب الله ليس هو المكان الذي نتناول فيه الاهتمامات الحقيقية التي لها تأثير بالغ على حياتكم؛ فنحن موجودون للمحافظة على الإيمان المستقيم ولتعزيز السلوك الذي يتناغم معه، أما مساعدتك فيما يخص مشاكلك الشخصية، فهذا ليس من شأن الكنسية».

ولكن لماذا لا؟ لماذا لا يكون من عمل الكنسية قيادة الناس إلى فهم الحياة والغوص إلى أعماق جذور المشاكل الشخصية، المشاكل التي نعاني منها جميعًا؟

ولا يجب على الكنسية إذن أن تشعر بالذنب إذا أخفقت في رعاية عيادة لطب الأسنان، أو فصلاً لتعليم الأطفال المعوقين؛ فهذه من الاهتمامات المشروعة، ولكنها لا تمثل دعوة الكنسية الفريدة؛ ذلك أن مسئولية الكنسية هي تعليم رسالة الكتاب المقدس وتعزيز أنماط الحياة التي تعكس هذه الرسالة؛ وإذا لم يكن الكتاب المقدس قد شغل نفسه بالمشاكل العاطفية، فهنا يكون من الصواب أن تحيل الكنسية هذه الأمور إلى أخصائيين أكفاء ممن لا يضعفون الإيمان الكتابي.

ويجب علينا أن نكون واضحين في هذا الشأن؛ فحين تنظر كنيسة تؤمن بالكتاب المقدس إلى مهمتها على أنها لا تتضمن خدمة للمعارك الشخصية العميقة الكامنة في داخل كل واحد منا، فإنها بذلك تقر في الواقع بأن الكتاب المقدس لم يتناول هذه الاحتمالات.

وعلى الرغم من ذلك، إذا كان الله قد قصد أن يخبرنا الكتاب المقدس عن الكيفية التي نفهم بها ونتعامل مع هذه المشاكل التي تتداخل مع الحياة كما يجب أن تكون، وإذا كان بالفعل كتابًا للمشورة، هنا يجب الرد على كل سؤال غير أساسي تتضمنه المشورة في إطار المجتمع المسيحي، فيما يتم الرجوع إلى الكتاب المقدس للحصول منه على الإجابة، ونحن هنا نواجه مشكلةً تفسيريةً أساسيةً؛ فلعله من المبادئ الخاصة بتفسير الكتاب المقدس ـ والذي يحظى بأكبر تقدير على الأقل في الدوائر المحافظة ـ هو المبدأ

الذي يقول: «التزم بالنص»، وقد تم تحذيرنا بشدة بألا نقول ـ لا أكثر ولا أقل ـ مما قصد الكتبة الأصليون أن يقولوه لقُرّائهم، وحين يتخلى أحد عن هذا المبدأ بغية العثور على معنى أعمق من الكتاب المقدس، فإن الذي يسيطر على فهمه لرسالة الله في هذه الحالة ليست كلمات النص الموحى بها، بل بالأحرى خياله الشخصي.

وحين «نرى» في النص ما نود أن نراه ـ لأي سبب كان ـ هنا تكون دراستنا قد فشلت في أن تستخرج من الكتاب المقدس ما هو موجود فيه بالفعل، بل إنها تضع في النص ما نعتقد أنه كان يجب أن يكون موجودًا فيه، ولكي نتجنب الكرازة برسالة في إطار سلطان الحكمة البشرية، فقط يجب أن يخضع الوعاظ والكارزون لما يتضمنه النص وألا يعلنوا إلا ما يقوله، وما يتضمنه محتواه فقط، وبحسب ما أفهمه يعد هذا المبدأ حجر الزاوية بالنسبة للدراسات المحافظة الجديدة، ويصر المسيحيون بالطبع على أن الكتاب المقدس يقدم مشكلةً فريدةً للمفسرين؛ لأن كلمات الكتاب المقدس تتجاوز تعبيرات البشر؛ فهي كلمات موحى بها من الله، ولذلك فهي لا تعكس الغرض الذي يرمي إليه كتبته البشريون فحسب، بل تعكس أيضًا قصد الله الأبدي منها؛ ولذلك سُمِح لنا بأن نجد في النص «صلةً» تتجاوز ما كان من الممكن أن يتوقعه البشر الذين قاموا بكتابته.

غير أنه في بحثنا عن علاقة له بأمور الحياة، يجب أن تظل الحدود قائمةً في مكانها. إذا كان لجهودنا التي ترمي إلى بيان صلة الكتاب المقدس بالحياة الحديثة أن تتم بتوجيه يتجاوز براعة البشر، وتطبيق ما جاء في الكتاب المقدس على المواقف المعاصرة، فيجب ـ بطريقة ما ـ أن يكون مرتبطًا بالمعنى الواضح للنص إذا كان له أن يتمتع بمكانة السلطان الإلهي، ويبدو لي أن مسئولية معرفة رسالة الله من النص وليس من خيالنا الخصيب، مسئوليةٌ صعبةٌ لا يمكن الوفاء بها ـ إنها ضرورية لكنها مع ذلك صعبة ـ فما من أحد قط جاء إلى الكتاب المقدس كشريط تسجيل فارغ من نوعية ممتازة مستعدًا لأن يسجل بأمانة وبدون تشويش ما يسمعه. ونحن جميعًا نقدم على النص كأشخاص لهم تاريخ معاصر عامر بالتحيز، وميول مسبقة، وتوقعات، وإنه لمن غير الممكن أن نصنف تمامًا ونتعرف على الكم الهائل من التأثيرات التي تجذبنا لنُفسّر فقرةً ما بطريقة أو بأخرى، ناهيك عن المقاومة الفعالة.

وإني لأشك في أن هذه التأثيرات تختلف بحسب الوضع الذي نعمل فيه، وأن

نعمل ملتزمين بالنص حين يكون عملنا هو التدريس في مدرسة أو كتابة مقالات للمجلات الدينية، فهذا شيء علّمنا بان بأن توقعات الفكر اللاهوتي الذي ننتمي إليه - إلى جانب الكثير من التأثيرات الأخرى - تميل إلى جذبنا نحو تفسيرات معينة، وعلى الرغم من ذلك، فإنه شيء آخر أن نظل أوفياء للنص حين يضعنا الله في وسط أناس متألمين يواجهوننا كل يوم بأسئلة ملحّة عن حياتهم ولا نجد الإجابة عليها في أية فقرة معينة، فماذا عسانا نفعل إذن ؟

الرعاة الملتزمون - الذين يريدون بإخلاص أن يلتزموا تمامًا بالنص ويردون على الناس بكلام له مغزى - يواجَهون بتوتر حقيقي للغاية، وتراهم يتلهفون على أن يجدوا علاقةً بالاهتمامات المُلحّة للشعب، غير أن التزامهم بألا يقولوا أكثر مما تَضَمَّنه النص، يبدو أنه هو الذي حال بينهم وبين التعامل مباشرةً مع هذه الحاجات المُلحّة.

ويبدو للوهلة الأولى أن هناك طريقتين للتخلص من هذا التوتر: إما تجاهل الأسئلة التي يطرحها الناس، وإما أو توسيع النص ليجيب عن أسئلتهم، وتاريخ التفسير باستخدام التشبيهات المجازية - حيث تلحق فيها الأهمية المجازية بالنص مع مراعاة قليلة أو حتى دون أي اعتبار لمعناه الواضح - عامر بصور إجبار الفقرة على أن تكون لها صلة بهذه الأسئلة؛ فتعامل الله مع الاكتئاب الذي تملّك «إيليا» بعد خلافاته مع «إيزابيل» - من بين أمور أخرى تتحدث عن أخذه سنةً طويلةً من النوم «١مل ١٩» - قد يُفسَّر بأنه يعني أنه على الناس أن يأخذوا راحةً حين تواجه الخدمة صعوبات، ولعلها نصيحة طيبة لكنها لم تُؤخَذ من النص؛ فالمحتوى الكتابي إلى جانب الخيال البشري - الذي يلهبه اهتمام بالغ لوجود علاقة بين النص وظروف الحياة - لا تتولد عنه مبادئ جازمة نلتزم بها في الحياة، أما الخيار الآخر لإزالة التوتر بين الأمانة في التعامل مع النص وعلاقته بأمور الحياة، يأتي بنا إلى الموقف «٢».

الموقف (٢)

يجيب الكتاب المقدس بشكل مباشر عن كل سؤال مشروع عن الحياة؛ ولذلك يُعتَبَر مُرشِدًا كافيًا لتقديم المشورة، يصر كثيرون من المسيحيين على أن نصوص الكتاب المقدس - والتي تُفهَم على أساس معانيها الواضحة الحقيقية - لها علاقة شاملة بكل سؤال مشروع تطرحه ظروف الحياة، وتأثير وجهة النظر هذه هي تجاهل أسئلة مهمة ووصفها

بأنها أسئلة غير مشروعة، فاسمحوا لي ببيان كيفية حدوث ذلك:

يؤكد ما قاله بولس لتيموثاوس بأن الكتاب المقدس قادر على إعطاء الحكمة لإيجاد الحياة، وأن كل الكتاب هو مُوحى به من الله ونافع، وهو يمدنا بكل شيء نحتاج إليه لنكون مهيئين تمامًا لأن نعيش حياتنا بحسب قصد الله (٢تي٣: ١٥-١٧)، ويقول البعض إن معنى هذا أنه - وإذا لم يجب الكتاب المقدس على أي سؤال متعلق بالحياة - فمعناه أنه لم تكن هناك حاجة لطرح هذا السؤال، ولكن، ماذا عن الأسئلة السيكولوچية مثل: ما الذي يسبب الخوف من الوحدة؟ أو كيف نساعد شخصًا حتى يتغلب على الاكتئاب؟

وما يعتقده كثيرون في هذا الشأن هو أن المشاكل السيكولوچية - إذا ما فحصناها عن كثب - سنعرف أنها ليست سوى ثمار حياة غير كتابية؛ وعلى ذلك يكون العلاج هو تعليم الناس كيف يعيشون، وتوبيخهم على الحياة بطريقة خاطئة، وتقويمهم حين يضلون وتدريبهم على النماذج الصالحة للحياة، ويقرر الكتاب المقدس - في الفقرة التي وردت في رسالة تيموثاوس الثانية - أنه نافع لهذه المهام بالذات، والمشكلة التي تعتري هذا التفكير - في رأيي - هي أنه يكاد يكون صائبًا، وإني أؤمن بكفاية الكتاب المقدس، وأؤمن بأن الاضطراب النفسي - إذا ما تم كشف القناع عنه - سيتبين أنه يعكس اضطرابًا روحيًا، وعلى الرغم من ذلك فإننا حين نرفع أصواتنا لصالح التزام جذري بكفاية الكتاب المقدس، نتعرض لخطر فقدان التعمق في تفكيرنا.

وهناك أمران يهماني بصفة خاصة لدرجة تجعلني أرفض الموقف «٢» على نحو ما ذُكر:

* وتحفُّظي الأول هو أنه من الممكن أن نضفي على المعنى الحرفي للنص علاقةً شاملةً، وهي ببساطة غير موجودة فيه، واسمحوا لي بتوضيح ذلك:

الرجل الذي تتملكه نزعة قوية لأن يرتدي ملابس النساء وبعد صراعه مع الخجل والخزي، قرر أن يثق في راعي كنسيته طلبًا للمساعدة، لكي يفهم هذه الرغبات الطاغية ويقاومها، وقد اتجه الراعي مباشرةً إلى ما جاء في (تثنية ٢٢: ٥) «لا يكن متاع رجل على امرأة، ولا يلبس رجل ثوب امرأة؛ لأن كل من يعمل ذلك مكروه لدى الرب إلهك».

وقد شرح الراعي ذلك بقوله إنه على الرغم من أن هذا التعليم جاء في ناموس

العهد القديم، إلا أنه يعكس حقًا أساسيًا فيما يختص بالفرق الذي لا يتغير بين الذكر والأنثى؛ وعلى ذلك يكون مُلزمًا في أيامنا هذه...

وهكذا تم الفصل في الموضوع: «إنه أمر خاطئ أن تستسلم لمحفزات فاسدة، لقد قال الله كلمته، وعلى الإنسان إما الطاعة أو العصيان».

ولقد وافق الرجل، وعرف أنه من الخطأ أن يرتدي ملابس النساء، ولكن إلحاح الرغبة في ذلك يبدو في بعض الأحيان طاغيًا لا يستطيع مقاومته، وهو يطلب مساعدته على طاعة الله، وهنا أيضًا، رد عليه القس الراعي بآية تقول: «لم تصبكم تجربة إلا بشرية، ولكن الله أمين، الذي لا يدعكم تُجرَّبون فوق ما تستطيعون...» (١ كو ١٠:١٣).

وهنا أيضًا تقبل طالب المشورة الأمر، غير أنه كان لديه أيضًا المزيد من الأسئلة، وفي بعض الحالات بالطبع يكون استمرار طرح الأسئلة انعكاسًا لمحاولة لتجنب مسئولية ما من ناحية إطاعة التعليم الكتابي الواضح، غير أنه في أحيان أخرى قد تكون الأسئلة صادرة عن صدق، وربما كان طالب المشورة يريد حقًا أن يعرف؛ لماذا تتملكه هو بالذات هذه الرغبة الخاطئة في حين أن معظم الرجال الآخرين ليسوا كذلك؟ ولعله يتشكك في أن هذه الرغبات ناجمة عن نماذج خاطئة أخرى، والتي - إذا تم التعامل معها - قد تخفف من طغيان الرغبة التي تتملكه إلى درجة معقولة، غير أنه إذا اتبعنا تفكير الموقف «٢» سنجد أن هذه الأسئلة غير مشروعة، وما كان يجب طرحها؛ لأنه ما من فقرة تم تفسيرها حرفيًا تستجيب مباشرة لها.

وإني أسلّم بأن الأسئلة المتعلقة بالرغبات الخاطئة لا ينبغي الإجابة عنها قبل أن تصبح إطاعة أوامر الله التزامًا أدبيًا، غير أنه ربما يكون من شأن المعرفة الواضحة للرغبة الجامحة في ارتداء ملابس الجنس الآخر، أن تفتح الباب أمام التوبة عن الخطية التي تحفز هذه الرغبات، وفيما يزداد فهمه للأمور الكامنة وراء مشكلته ربما يتعلم هذا الشخص - الذي تمكنت منه الرغبة في ارتداء ملابس النساء - أن يفرح بالأكثر بنعمة الله وقدرته على المساعدة، وسلسلة العبودية للممارسات الجنسية قوية، وتحطيمها قد يتطلب أكثر من الإصرار الحقيقي.

وأعترف أن الأسئلة التي تتجاوز السلوك المتعلق بارتداء ملابس الجنس الآخر، هي أسئلة مشروعة، على الرغم من أنه لم يتم الإجابة عنها مباشرة في النص.

ثمة توضيح آخر: هناك امرأة ينتابها الرعب لمجرد التفكير في ممارسة الجنس مع زوجها المحب الصبور، والذي يراعي شعورها وهي تسأل عن سبب ذلك؟ والسؤال حسب معايير الموقف يعد غير مشروع لأن الكتاب المقدس لا يتناول هذا السؤال بشكل واضح في أي موضع منه، وعلى ذلك فلا يجب طرحه، وقد نصحها المشير أن تطرح سؤالاً آخر، يتناوله بالفعل نص معين: «هل هو أمر صحيح أن أحرم زوجي من العلاقة الجنسية؟» وبالنظر إلى أنه توجد فقرة تتعامل مباشرة مع هذا السؤال في (١كو ٢٥:٧)، أعلن لهما المشير بكل ثقة أن الامتناع عن ممارسة الجنس، أمر مسموح به بشرط موافقة الطرفين، وعلى أن يكون ذلك لفترة قصيرة، وأن يكون القصد من ورائه تعزيز حياة الصلاة بالنسبة للزوجين، والخوف من الحميمية ليس مبررًا مسموحًا به لرفض الجنس.

أما المرأة المنزعجة - فإني أعتقد - أنها ستترك جلسة المشورة وهي تشعر بأنها لم تلقَ معونةً على الإطلاق، والأسوأ من ذلك أنها تشعر بأذى بالغ.

وتحت شعار كفاية الكتاب المقدس قد يتجاهل المشيرون المسيحيون أسئلةً بالغة الأهمية، وذلك بعدم ردهم إلا على الأسئلة التي يستطيعون الإجابة عنها بسهولة، والنتيجة هي اتساع الهُوَّة بين الكتاب المقدس وحياة الناس.

* وتحفُّظي الآخر على الموقف «٢» يتبع - وعن كثب - نهج التحفظ الأول؛ فحين نختصر سلسلة الأسئلة المسموح بها، يميل فهمنا للمشاكل المعقدة نحو التبسيط، فالالتزام بكفاية الكتاب المقدس نَجَم عنه في بعض الأحيان تفسيرات ضحلة سطحية لاضطرابات معقدة، والحلول السطحية تعزز قبول الحلول الخرافية التي لا تجد من يتحداها.

لنتأمل مشكلة فقد الشهية إلى الطعام، أستطيع أن أتذكر كيف أنه قد تملكتني حيرة عارمة حين تعاملت مع طالب مشورة يشكو لي من فقدان الشهية إلى الطعام، وكانت فتاة جميلة في السادسة عشرة من عمرها - والتي كانت تقل عن وزنها الطبيعي بثلاثة عشر كيلو جرامًا - وقالت لي إنها تشعر بالسمنة. كيف لك أن تفسر مثل هذا المفهوم الخاطئ والواضح عن الذات؟ ولكي تزيد الأمور سوءًا، فإنها لم تكن تتناول سوى وجبة بسيطة مرة كل يومين، وكانت تتدرب بجنون، عاقدةً العزم على أن تنقص المزيد من وزنها.

ذات مرة سألت رجلاً ملتزمًا بالأفكار التي عبر عنها الموقف «٢»: «كيف تفسر مثل هذا السلوك الغريب؟»

إنه من الصعوبة أن تجد إجابةً كتابيةً لسؤال لم يعرض له الكتاب المقدس على الإطلاق؛ وعلى ذلك غيّر صديقي السؤال الذي كنت أطرحه أنا - وكذلك والدا الفتاة - واستبدله بسؤال - قدر في ذهنه - إنه كان يتعين علينا أن نطرحه، والمهمة - كما فهمها هو - هي أن تجد نصًّا يكون الله قد أجاب فيه عن الأسئلة التي كان من المفترض أن يتم طرحها.

وتخبرنا فقرتان في الكتاب المقدس (١ كو ٣: ١٦-١٧ ، ٢ كو ٦: ١٦) إننا هيكل الله وإن أجسادنا هي هيكل للروح القدس (١ كو ٦: ١٩)؛ لقد رجع صديقي إلى هذه الآيات وشرح أن فقدان الشهية للطعام يمكن فهمه على أنه تمرد على مسئوليتنا أن نعتني - على نحو صحيح - بهيكل الروح القدس، وما يُطلق عليها «المشورة الكتابية» تركز على أن تولِّد في هذه الفتاة - التي فقدت شهيتها للطعام - احترامها لجسدها ، ونصحها بأن تعامل جسدها على هذا الأساس، ونتائج هذه المشورة - في أفضل حالاتها - ستكون تناغمًا خارجيًا؛ فلن تتحرر طالبة المشورة بالحق لتدخل بعمق أكثر في علاقة محبة مع الله ومع الآخرين، وحين نحدد الأسئلة التي يُسمح لنا بطرحها على تلك التي يجيب عنها الكتاب المقدس بوضوح، تكون النتيجة غالبًا فهمًا للحياة ومشاكلها بشكل مبسط يفتقر إلى التفكير وهو فهم يفشل في أن يدفعنا إلى اتكال متزايد على الرب.

خاتمة

المشكلة بالنسبة للموقف «١»، والموقف «٢»، هي نفس المشكلة؛ ذلك أنه لم يتمكن أي منهما من استخلاص الحق من الكتاب المقدس، والذي يجيب بشكل كافٍ على أسئلة المشير الضرورية.

الموقف «١» لم يبذل أية محاولة؛ لأنه ينكر أن الكتاب المقدس يقدم كل الأسئلة التي يحتاج المشير إلى معرفتها، وعلى ذلك علينا اللجوء إلى جهة مصدر آخر طلبًا للعون.

ويذكر الموقف «٢» أنه أيًا كانت المعلومات التي يحتاج المشيرون إلى معرفتها، يقوم الكتاب المقدس بتعليمها بوضوح وبشكل مباشر، وعلى ذلك فإن تلك الأسئلة التي نجد لها إجابات مباشرة في فقرة ما من الكتاب المقدس، هي وحدها التي تعد مشروعةً وضروريةً ويتعين على المشير أن يطرحها، والنتيجة هي فهم سطحي للمشاكل والحلول التي تبدو كتابية، ولكنها لا تقدم إلا النُذُر اليسير من المساعدة، ويتوجب أن تكون هناك استراتيجية أخرى للتعامل مع الكتاب المقدس - إذا كانت فكرة كفاية الكتاب المقدس صحيحة - وبالنظر إلى أن الكتاب المقدس يقرر أنه «كلمة الحياة»؛ فمن ثم يجب أن نكون قادرين على أن نجد بين صفحاته كل ما يحتاج إليه الأمر لتقديم مشورة فعّالة، وعلينا أن نجد هذه المعلومات، وفي تمديد للنص ليتيح تفسيرات - هي ببساطة - لا توجد فيه.

ولكن كيف يتأتى ذلك؟ كيف نتعامل مع الكتاب المقدس لنجد إجابات للأسئلة التي يطرحها المشيرون؟

يشرح لنا الفصل التالي طريقةً لنجد - في الحدود المعروفة للنص الكتابي - كل ما يحتاج المشير إلى معرفته؟



الفصل الرابع

الكتاب المقدس مرشد كاف للعلاقات الحياتية



هل الكتاب المقدس دليل لتقديم المشورة؟

تعتمد الإجابة عن هذا السؤال على الكيفية التي نعرف بها عملية تقديم المشورة، يعتقد الكثيرون أن هناك فرقًا بين تقديم المشورة والعلاج النفسي، ويقول البعض إن تقديم المشورة يتعامل على سبيل الحصر مع الاهتمامات الموجودة حاليًا، وفي محاولة لمساعدة الناس على التعامل مع حياتهم بإيجابية أكثر، وذلك بتقديم الدعم الحقيقي، النصيحة الحكيمة، والمهارات المتبادلة بين الأشخاص، مثل التقمص العاطفي، الصدق، والقدرة على التوضيح، فضلاً عن الحساسية والآراء الناجمة عن الفطرة السليمة، وهي من الأدوات الضرورية.

ويقول الكثيرون إن العلاج النفسي أمر مغاير تمامًا؛ فهو يغوص إلى ما هو أعمق من المشاكل الحالية - مثل التردد فيما يختص باختيار المهنة - ليكشف عن شبكة من الدفاعات، القلق، والمشاعر غير المقبولة أو الأليمة والموجودة في اللاوعي والتي تشترك معًا في خلق المشكلة المرئية، ويتناول العلاج موضوعات أكثر عمقًا مما تتناولها المشورة لأنه ينظر إلى ما هو تحت الشكاوى الحالية؛ حيث ينظر إلى الفعاليات الداخلية والتي تشكل بحق الاضطراب الذي يحتاج إلى تصحيح.

وهذا هو الفرق العادي: العلاج يتناول الفعاليات الداخلية، أما المشورة فليست لها علاقة بذلك.

وقد امتُدِح «فرويد Freudian» - وعن حق - لتقديمه نظرية «التفاعلات النفسية للعقل الحديث»، ويشير هذا التعبير إلى القوى النفسية التي تعمل داخل الشخصية - وعادة دون وعي - والتي تستطيع أن تسبب اضطرابات سلوكية أو عاطفية، وقد علّمنا

أن ننظر إلى المشاكل على أنها أعراض لعمليات ديناميكية أساسية في النفس، وإذا كان تفكيره هذا صحيحًا، إذن فالمشورة التي تحاول مجرد تغيير الأعراض ـ على سبيل المثال، مساعدة شخص على اختيار المهنة التي يلتحق بها ـ تكون في بعض الأحيان مفيدةً، ولكنها دائمًا سطحية؛ لأن ذلك ليس أفضل من الطبيب الذي يصف الأسبرين للصداع، مع أن هذا الصداع سببه ورم في المخ يحتاج إلى عملية جراحية. وكان تأثير هذا العنصر من نظرية «فرويد Freudian» على العالم الغربي تأثيرًا كبيرًا، ولعل أكثر النتائج أهميةً نلمسها في اهتمامنا بالشروع في عمل نموذج «احترافي» لفهم المشاكل الشخصية والتعامل معها، وحين عرّفنا «فرويد Freudian» ـ وهو طبيب كان له قسط من الشهرة ـ بالقوى الموجودة في الشخصية بلا وعي منّا والتي بمقدورها أن تسبب المشاكل، شرع الناس يفكرون فيها على أنها «مرض» ووصفوه بأنه مرض نفسي، والفكرة التي نستخلصها من ذلك هي أن الاضطرابات الظاهرة في سلوك الناس وعواطفهم تعكس اضطرابًا غير مرئي في الهيكل الديناميكي لشخصياتهم، والمشيرون قد يحدثون تغييرًا نافعًا في المشاكل السطحية، ولكن الأمر يتطلب معالجين متمرسين في الناحية النفسية الديناميكية إذا أردنا تغييرًا عميقًا.

وعلى الرغم من أنه كانت هناك تحديات كثيرة للنظريات الديناميكية للشخصية، إلا أن معظم البدائل ما زالت متمسكةً بالفكرة الرئيسية الخاصة بالنموذج الاحترافي، حتى أن نوعية من المعرفة التقنية التي لا يمكن توافرها إلا من خلال التدريب المتخصص لابد منها لكي يكون العلاج حقيقيًا.

وعلى أساس طريقة التفكير هذه فإن المشيرين ـ معاونين ربما لم يكن تدريبهم يشمل دراسة علم النفس الديناميكي ـ مؤهلون للتعامل فقط مع المشاكل التي يدركها طالب المشورة وتكون تحت سيطرته، غير أنه إذا تطلب الأمر مزيدًا من المعونة، وحين يثبت أن النصيحة الحكيمة، والإقناع المعنوي، والتقمص العاطفي لم تكن كافية لحل المشكلة؛ هنا يجب استدعاء معالج متخصص يعرف كيف يتعرف ويعالج الحالات العميقة والدقيقة، والنقطة المهمة التي يجب ملاحظتها هي أن يسود الاعتقاد بصفة عامة أن المعالج المحترف (المتخصص) لابد منه للتعامل بكفاءة مع الأشخاص الذين هم على مستوى نفسي معقد، وفي الثقافة التي تتقبل هذه الفرضية، يُسمَح للمشيرين بدور محدود للغاية، ربما يماثل دور القس في مستشفى، وكل من المشيرين والرعاة

(القساوسة) عليهم الانتظار - خارج الباب - فيما يدخل المعالجون المختصون والجراحون حجرة العمليات ليستأصلوا بمهارة وعمق جذور المشكلة التي يعاني منها المريض. والمشيرون يشجعون القساوسة على الصلاة، لكن المعالجين المتخصصين، والجراحين هم الذين يعالجون، وهذا هو النموذج الاحترافي.

وإنني أعتقد أن «فرويد Freudian» كان على حق في ثلاث نقاط على الأقل؛ فلقد كان محقًا حين قال لنا إنه يتوجب علينا أن ننظر إلى ما هو تحت المشاكل السطحية، إلى الأسباب الداخلية الخفية. ويصف الكتاب المقدس قلوبنا بأنها خادعة، حتى إننا لا ندرك في بعض الأحيان بواعثنا (إر ١٧: ٩) وقد اختص ربنا بأقسى التوبيخات، أولئك الذين يتشككون في الأمور المرئية الخارجية، في حين أنهم يرفضون التدقيق بالنسبة لما هو في الداخل حيث المشاكل الحقيقية (متى ٢٣: ٢٣-٢٨).

وقد أصر «فرويد Freudian» أيضًا - وأعتقد أنه على صواب - على أنه بغية التعامل مع الناس بفاعلية ودقة، يجب أن يتوافر للمرء فهم واضح عن الكيفية التي تعمل بها طبيعة الإنسان من الداخل؛ حيث من غير الممكن أن تلاحظ ذلك بشكل مباشر (أم ٢٠: ٥).

كان «فرويد» مصيبًا في تفكيره أنه من بين الوسائل الضرورية لفهم فعاليات الآخرين - وقبل كل شيء - هو أن تفهم نفسك (متى ٧: ٣-٥)، وهذا هو السبب في أنه في معظم برامج التدريب يتوجب على أي طالب يريد أن يتدرب على التحليل النفسي، أن يتم التحليل بالنسبة له هو أولاً، وإذا لم تكن غلطة «فرويد Freudian» وغيره من أصحاب النظريات الدنياميكية تتمثل في إصراره على ضرورة اهتمامنا الوثيق بالقوى التي تعمل داخل الشخصية دون وعي منا، فما هي غلطته إذن؟ أعتقد أنه بوسعنا القول إن غلطتهم الرئيسية هي رفضهم دراسة وقبول وجهة النظر الكتابية عن الإنسان؛ فبالنظر إلى أنهم لم يقبلوا الخطوط الإرشادية التي توفرها المعلومات الكتابية، فقد أدت بهم نظرياتهم إلى فهم ناقص، وغير متوازن - وفي بعض النواحي غير أخلاقي - عن ماهية الإنسان وكيف يعمل، ولو كانوا قد خضعوا لسلطان الكتاب المقدس كطلبة متجددين يدرسون شخصية الإنسان أعتقد أن اهتمامهم بعلم النفس الديناميكي كان سيقطع شوطًا إلى الأمام في فهمنا لهذا الأمر بأكثر مما عليه الأمر الآن.

لقد كان تأثير هذه الغلطة عميقًا؛ فهي لم تؤدِ فقط إلى بروز «علم النفس الديناميكي» الذي ينكر الحق المهم المُعلَن عن الإنسان، بل إنه ذهب إلى أكثر من ذلك؛ حيث أنه أضعف الثقة في الكتاب المقدس كمرشد شرعي لفهم الأجزاء العميقة للشخصية الإنسانية، بل أنه ويكاد يكون بمقدورنا أن نعد على أصابع يد واحدة عدد المفكرين الذين يعتقدون أن فهم العمل الفعّال أمر له أهمية، وأن الكتاب المقدس هو دليل كاف للمهمة، وحين نود أن نعرف السبب في أن شخصًا ما يداوم وبإصرار على غسل يديه؛ فإن الكتاب المقدس هو آخر ما نفكر في اللجوء إليه.

وما هي الفقرة التي نحتاج إلى دراستها على وجه التحديد لنفهم «الاضطرابات الاضطرارية» ؟ حين نعمل مع شخص من الشواذ (المثليين)؛ فإن الكتاب المقدس يخبرنا أن نعتبر الشذوذ الجنسي خطية، وأن ننصح بالطهارة الأخلاقية، غير أنه لكي نعرف السبب في أن هذا الشخص من المثليين، وما الذي يمكن عمله لتغيير توجهه الجنسي المثلي علينا أن نقرأ كتبًا كتبها مختصون، وليست كتابات موسى النبي أو بولس الرسول.

وإني على قناعة بأنه يتعين علينا أن نتحدى ونظهر زيف هذا الادعاء القائل بعدم كفاية الكتاب المقدس، وهو الادعاء الذي عزّزه النموذج الاحترافي، وعلى ثقة من أن هناك فرقًا بين تقديم المشورة والعلاج، ولكني أصر على أن الكتاب المقدس ضروري وكافي، ليس فقط لتقديم المشورة بصفة عامة، بل وأيضًا لتلك النوعية المعينة من المشورة والتي عادةً ما تُسمى «علاجًا. وبحسب ما أفهمه، يعلمنا الكتاب المقدس مبادئ بوسعها - وبشكل شامل - توجيه جهودنا بالنسبة لتقديم المشورة بحرارة وبصيرة نيرة، ثم إنه يعرض لنا حقائق عن شخصية الإنسان تكفي لتوجيهنا إلى فهم كامل لما يُطلِق عليه المعالجون «الديناميكا، أو القوى المُحرِّكة».

وعندما أجادل مُؤَكِّدًا كفاية الكتاب المقدس؛ فإنني بهذا أشير إلى أن كل سؤال يحتاج المشير أو المعالج إلى طرحه، تجد له جوابًا في آيات الكتاب المقدس أو معانيها، والناس الذين تحت صراع - سواء يذهبون لتلقي المشورة أو يخضعون للعلاج - يعانون من مشاكل من ناحية الحياة بفاعلية كأناس لهم علاقات، وسواء كانت المشكلة قد بدأت منذ سنوات، بأم رافضة، أو أنها تدور حول أزمة راهنة مع طفل متمرد فإن الصعوبة في نهاية المطاف تكمن في العلاقات.

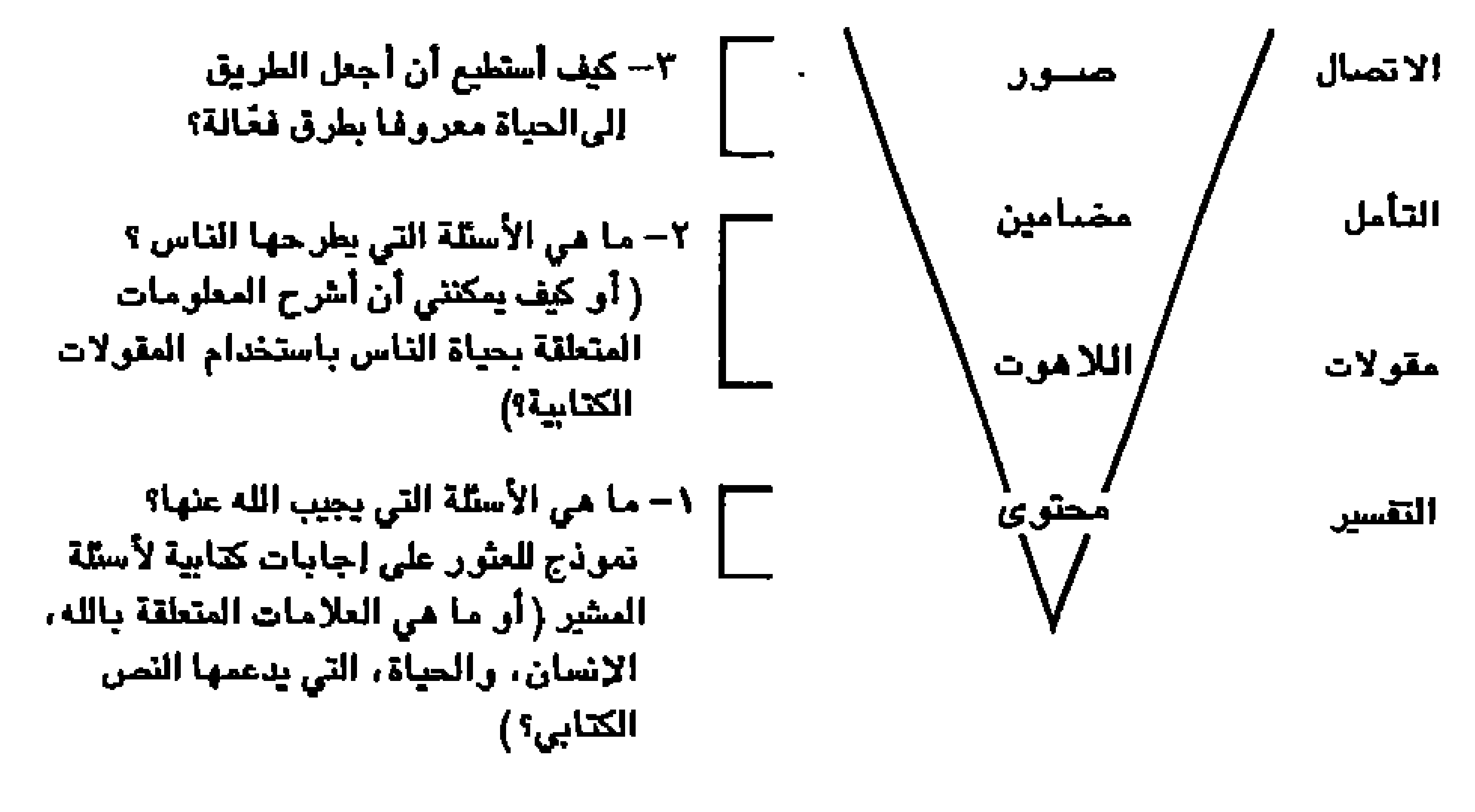
والمعاون الذي يسعى للتدخل طبقًا للحكمة الكتابية، تراه يعمل دائمًا لتحسين

العلاقات بمساعدة الناس على التغيير من الداخل قبل التغيير من الخارج، وهذا هو القول الفاصل، والعلاج الأخير، والأساس والأمر الذي لا بد منه وهو العلاقات؛ أولاً مع الله، ثم مع الآخرين والكتاب المقدس يُعدّ دليلاً فيه الكفاية؛ فهو كتاب للعلاقات الحياتية، وبوسعنا الآن ذكر الرد الثالث على السؤال «هل الكتاب المقدس فيه الكفاية للإجابة على أسئلة المشير؟»، نذكر أن الموقف (١) قال: «لا، الكتاب المقدس لا يكفي، لندع علم النفس يساعدنا».

الموقف (٢) يرد قائلاً: «إن فهم الكتاب المقدس فيه الكفاية، لكن عليك أن تحصر أسئلتك في تلك التي تم التعامل معها في إصحاح أو آية بعينها».

الموقف (٣) وجهة النظر التي أتمسك بها، وتلك التي أريد أن أتوصل إليها في هذا الفصل، ربما أوردها على النحو التالي:

إن فهم الكتاب المقدس فيه الكفاية للإجابة عن كل سؤال يتعلق بالحياة، ولكن ليس ذلك لأنه يجيب بصفة مباشرة عن كل سؤال مشروع؛ ذلك أن فكرة الكفاية الكتابية للمشورة تقوم على أساس افتراض أن البيانات الكتابية تدعم المقولات العقائدية التي لها مضامين تتعامل بشكل شامل مع كل موضوع له علاقة بالحياة، وهذا القول تعوزه اللباقة، غير أنه يتيح لنا أن نحترم كفاية الكتاب المقدس دون أن نبالغ في تبسيط الموضوع أو الخروج عنه، ويمكن توضيح هذا القول بالرسم كنموذج للعثور على إجابات كتابية للأسئلة التي يطرحها المشير.(شكل ٤-١).



شكل ٤-١

المحتوى : تفسير النص

كل جهد مسئول من شأنه تطوير الفهم الكتابي للمشورة، يقوم بكامله على المعلومات الكتابية، ورسالة الله التي أُعلِنَت في الكتاب المقدس، هي الأساس الذي لا بد منه لعمل نموذج كتابي للمشورة، وهذه كلمات ترضي بعض المسيحيين من الإنجيليين المحافظين، ولكنها تثير بعض المشاكل.

والمشير الذي لديه ثمانية مواعيد في اليوم التالي، حين يفتح الكتاب المقدس لدراسة مسائية، قد ينتابه الإحباط وهو يتنقل بفكره بين كتب التفاسير وقواميس الكتاب المقدس والفهارس والمعاجم: «غدًا، سأستقبل مشورة شخصية تقع عند الخط الفاصل بين الشخص السوي والشخص غير السوي، اثنين ممن يعانون من الاكتئاب، شخصًا يعاني من فقد الشهية للطعام، والِدَيْن لمراهق يتعاطى المخدرات، شخص يندمج مع جماعة منحرفة ذات طقوس غريبة (فِتيشيًا)، وزوج وزوجته على وشك القطيعة وانهيار الزواج، ولست أعرف فحسب، كيف أن قضاء وقت في دراسة «سفر الخروج» أقرأ فيه عن ثياب رئيس كهنة إسرائيل، أو في الإصحاح السادس في «رسالة العبرانيين» أحاول أن أفهم ما تعنيه فقرة «السقوط»، كيف أنه سيكون من شأن هذه القراءات أن تساعدني على الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها هؤلاء الناس؟»

وكان الإغراء القوي هو أن أترك العمل الصعب المتمثل في دراسة الكتاب المقدس - التي يبدو أنه لا علاقة لها بالموضوع - وأنتقل إلى الأمور العملية، ولكي يتم هذا - على الأقل بالنسبة للمشير - فإنه سيتخلى عن الكتاب المقدس فيما يفكر في الطريقة التي سيتبعها في علاج الشخصية التي تقع عند الحد الفاصل بين الشخص السوي والشخص غير السوي، وعلى أي حال، أين هي الفقرة التي تناقش ما الذي يتوجب على المشير عمله مع مشكلة من هذه النوعية؟ من الجلي أنه لا توجد فقرة تتناول هذا الموضوع.

كيف نبرر إذن قضاء المشير وقتًا طويلاً في دراسة جادة للكتاب المقدس؟ وما علاقة هذا بعمله؟

ومن المؤكد أنه من أجل نموه الروحي؛ فإن العبادة بشكل منتظم، وحضور الكنسية، من الأمور اللازمة لذلك وبالنسبة للمسيحي الناضج تعد الدراسة الدقيقة للكتاب المقدس أمرًا ضروريًا، ولكن ما هي علاقة هذه الدراسة بمسئولياته كمشير؟

العلاقة - في رأيي - هي علاقة فعلية حقًا، ولعله قد يكون من الأفضل فهمها بالتأمل مليًا في نوعيتين منفصلتين من الأسئلة:

١ - الأسئلة التي اختارها الله ليجيب عنها بوضوح في النص الكتابي.

٢ - الأسئلة التي كنا نريد وجود إجابات لها فيما نناضل مع حياتنا وحياة الآخرين.

ويبدو أنه من المعقول افتراض أن هاتين النوعيتين من الأسئلة غير منفصلتين تمامًا؛ فإذا كان الله مهتمًا بشكل ما بمعاركنا هذه، علينا إذن افتراض أن الأسئلة التي اهتم بالإجابة عنها، ذات صلة بالأسئلة التي سنطرحها إذا كان لدينا الإحساس بطرح الأسئلة الصحيحة.

وحقيقة أن السقوط في الخطية قد شوّه فكرتنا عن الحياة، والتي من أجلها نطرح أسئلة قد لا تكون لها أهمية على الإطلاق، أو إذا كانت أسئلة جيدة فإن افتقارها إلى الحكمة سيتلفها إلى حد ما على الأقل، وإليك الأسئلة التي نطرحها:

- كيف أحقق تمامًا كل ما أصبو إليه في الحياة؟
- ما هي الطريقة التي من المفترض أن أربّي بها أولادي كي يشبّوا صالحين؟
- لماذا لا أستطيع أن أشعر براحة وأنا وسط الناس؟

هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة الأخرى المماثلة - والتي لا حصر لها - من الجلي أنها مهمة بالنسبة لنا، وفي هذا الإطار على الأقل تعد مشروعة تمامًا.

غير أنه بالفحص عن كثب، سيتضح لنا أن أسئلتنا تتولد غالبًا عن رغبتنا في أن تعمل الحياة بالشكل الذي نريده نحن، إلى جانب عدم رغبتنا في أن نتأمل بعمق وأمانة في بعض المشاكل المشينة والألم الرضيين المستترين في أعماقنا.

وقبل أن يحدونا الأمل في أن نجد حكمةً للتعامل مع أسئلتنا، علينا أولاً أن نضع بعض القواعد الأساسية، والتي على ضوئها نتناول مشاكل الحياة، وهذه القواعد الأساسية موجودة في الإجابات التي ذكرها الله بوضوح في الكتاب المقدس؛ أشياء من قبيل: من هو الله؟ وما الذي يتوقعه؟ ومن هو الإنسان، وكيف أفسدته الخطية؟

وكيف أن العلاقة مع الله ومع الآخرين أمر ممكن؟ كما يتضح الآن أن دراسة «ثياب هارون» في (خروج ٢٨)، والفقرة الصعبة التي عن «السقوط» في (عبرانيين ٦) لهما صلة بالموضوع؛ فهما معًا - وإلى جانب بقية الكتاب المقدس - تكشفان لنا الحقيقة عن كيفية عمل الله، وهذا ما يجب أن يُتَّخَذ كإطار للتفكير في حل مشاكلنا.

وعلى ذلك فالأولوية المطلقة في إيجاد نموذج كتابي للمشورة تم التعبير عنها بسهولة: «ادرس محتوى الكتاب المقدس»، وإذا أهملنا هذه الأولوية، سوف نضع أفكارًا وطرقًا للمشورة تبدو على علاقة جذابة بالأسئلة التي يطرحها الناس، ولكن هذه الأفكار والطرق تفتقر إلى دعم كتابي، وفى كثير من الحالات - وبالنظر إلى أن أفكارنا التي لم نصححها عن الحياة تكون دائمًا خاطئة - فإن أسلوب تقديم المشورة الذي ننتهجه سوف يشوّه حق الله، وهكذا فإن تفسير الأسفار المقدسة يشكّل نقطة البداية.

وكل مشير كتابي مسئول عن قضاء وقت في محاولة لفهم الكتاب المقدس، وهناك علماء بالطبع متفقهون في اللغات الكتابية، وعلى دراية بالثقافة التي كانت موجودة في الأزمنة الكتابية، وهؤلاء بوسعهم أن يقدموا لنا تفاسير أكثر دقة من الناحية الفنية من التفاسير التي يقدمها المسيحيون العلمانيون الذين يفتقرون إلى هذه المعرفة؛ وعلى ذلك، فإنه من الحكمة لأناس مثلي لم يتلقوا تدريبًا لاهوتيًا أساسيًا، الاستفادة من أفكار العلماء الكتابيين.

وبرغم ذلك هناك مشكلة بالنسبة للكثير مما يُعرَض على أنه تفسير، ويجب على المشيرين الكتابيين أن يأخذوا هذا في اعتبارهم؛ فحين يُنظَر إلى التفاسير على أنها غاية في حد ذاتها - بمعنى حين تقدم نتائج الدراسة التفسيرية الفنية على أنها «كلمة الله» مع معرفة لا تكاد تُذكَر عن الكيفية التي يُفترَض أن تؤثر بها هذه النتائج في شعب الله - هنا تصبح التفاسير عائقًا أمام الانخراط النافع مع الشعب؛ فنحن كثيرًا ما ندرس «كلمة الله»، ولكننا نعجز عن فهم «رسالة الله»، والمعرفة - حتى تلك المأخوذة عن تفاسير جيدة - تبعث على الغرور، ولكن المحبة - أي الاهتمام بالدخول في حياة الناس بحق الله - تبني، والتفاسير هي نقطة البداية وليست النهاية، وعلى الرغم ذلك فهي ضرورية كنقطة بداية والمبدأ هو: «اطرح الأسئلة التي أجاب الله عنها في الكتاب المقدس لكي تضع إطارًا للتأمل مليًا في الأسئلة التي تنبع من حياتنا، ودراسة المضمون هي نقطة البداية».

المقولات: تبنّي المبدأ

إن مجرد ذكر ما تعنيه فقرة معينة لا يستنفذ تمامًا كل ما تتضمنه دراسة الكتاب المقدس، والخطوة التالية هي تنظيم تعليم نصوص مفردة في أقوال واضحة عن الحق أو في شكل تعليم، والفكر اللاهوتي يقدم الجهد اللازم لوضع فهم مترابط منطقي للموضوعات التي تتناولها المعلومات الكتابية.

والعناوين الرئيسية العادية لفصول كتب «اللاهوت النظامي»، هي من نوعية التعاليم التي أقصدها، والموضوعات التي من قبيل علم الأنثروبولوچيا anthropology (من هو الإنسان؟)، وعلم دراسة الخطية hamartiology (ما هي الخطية؟)، ودراسة الكائنات والظواهر الروحية pneumatology (من هو الروح القدس وكيف يعمل؟)، والإسخاتولوچي eschatology (ما هي خطة الله للمستقبل؟) تتطلب لاهوتيين لتعريف الأقوال الخاصة بالأوضاع التي يُدَعِّمها النص.

وحين يصل اللاهوتي إلى موقف يتعلق بكيفية خلاص الإنسان - وعلى سبيل المثال بدراسة الفقرات المترابطة في الكتاب المقدس - فإنه يُعبِّر عن مفهومه بقول عقائدي، والعبارات العقائدية - بالنظر إلى أنها تمثل عادةً مجهودًا لربط فقرات مختلفة معًا - يمكن أن يُطلَق عليها «مقولات الحق».

وثمة مَيْل يُؤسَف له في الأوساط المسيحية، وهو تقييم ملائمة الشخص للخدمة - فقط - على أساس فهمه العقائدي والتزاماته، وإذا كان أرثوذوكسي العقيدة، فيُعطى علامة الموافقة بواسطة الرسامة، ولا يُعطى تفكيرًا كافيًا لقدرة الراعي مستقبلا على الدخول بحكمة وعمق إلى حياة الناس بالحق الذي يؤمن به. وكلنا نعرف نوعية خريجي الدراسات اللاهوتية الذين - بعد سنة أو سنتين من الخدمة - يشتكي كل منهم قائلاً: «أنه ما من أحد يطرح الأسئلة التي أستطيع الإجابة عنها؛ وإني على استعداد للدفاع عن آرائي فيما يتعلق بالمعمودية والمُلك الألفي، لكن الناس يسألون عن كيفية التعامل مع الأزواج الذين يدمنون الخمر، أو الأفكار غير السوية التي تستحوذ عليهم عن إلحاق الأذى بأطفالهم، لقد انتابني اليأس، وأعتقد أنه كان عليهم أن يلجأوا إلى أخصائي نفسي وليس إلى قسيس».

والنقطة المهمة هي أنه لو كان الراعي قد فكر في تعاليمه من وجهة نظر مختلفة، لكان قد شعر أنه مهيأ بشكل أفضل للتعامل مع المشاكل التي يواجهها، ولو كان الكتاب المقدس كافيًا حقًا لمواجهة اهتمام المشير، لما كانت هناك حاجة إلى أخصائيين للعلاج النفسي، بل إلى رعاة مهيئين بشكل أفضل.

ولا ينبغي علينا أن نعتقد ببساطة أن عملنا قد انتهى نحو تحديد موقفنا العقائدي بالنسبة لكل الموضوعات اللاهوتية التقليدية المهمة؛ فهذه النوعية من المعرفة تُعد أساسًا ضروريًا ولكنها ليست البناء، وما أن نصل إلى فهم للأسئلة التي أجاب عنها الله في

الكتاب المقدس - والمستمدة من التفاسير والفكر اللاهوتي - إلا ونكون مستعدين لاستخدام هذا الفهم للتفكير في المجموعة الثانية من الأسئلة، وهي الأسئلة التي يطرحها الناس فيما يتصل بصراعهم مع الحياة.

وما من أستاذ في كلية اللاهوت ينكر بالطبع أهمية تطبيق الكتاب المقدس على الحياة؛ ففي حلقات الدراسات اللاهوتية يتم تعليم الطلبة تطبيق النصوص حيثما يعيش الناس، فلماذا والحال هذه نجد أن عددًا قليلاً جدًا من خريجي الدراسات اللاهوتية هم المستعدون - نتيجة تعليمهم اللاهوتي - للتعامل مع ما يواجههم في العالم الواقعي؛ سواء في حياتهم أو في حياة الآخرين؟ لماذا أصبحت المنابر تُستَخدَم للحماية من مواجهة الناس، بدلاً من أن تكون منصة وثب للغوص في حياتهم؟ ولماذا يلجأ مدرسو الكتاب المقدس في بعض الأحيان إلى استخدام معرفتهم بالكتاب المقدس للمنظرة للتباهي ولتجنب الناس بدلاً من استخدامهم هذه المعرفة لمساعدتهم؟

الإجابة - على ما أعتقد - تتضمن الدرجة التي يحفظ بها معظمنا حياتهم من خلال الإنكار، والمجتمعات المسيحية تشعر - إلى حد ما - بالتزام نحو الحفاظ على الصورة التي تبين أن الأمور على ما يُرام حقًا، ونحن بهذا نتعلم الاشتراك في مؤامرة للظهور بصورة تخالف الحقيقية، بأن نظهر حياتنا زاهيةً من الخارج، وأن ننكر الفراغ والمرارة وعدم الرضا، تلك التي نشعر بها في الداخل وكذلك علاقتنا غير الفعالة وافتقارنا إلى الصداقة الحقيقية مع الآخرين.

ونتيجة لذلك تجدنا لا ندرك على الإطلاق بعضًا من المعارك الخفية، والتي هي من أفظع المعارك الحقيقية التي تواجهنا بها الحياة؛ فنحن نواجه بكل وضوح الحقائق المريرة من فقدان الوظيفة أو موت أحد الأطفال، غير أننا نادرًا ما نولي اهتمامًا كبيرًا للمعارك «الفعّالة» التي تدور في الداخل، مثل الامتعاض من الأب الذي لا يبدي إطلاقًا أي اهتمام، التعطش إلى القبول والذي بدأ منذ سنوات مضت من أم تنزع دائمًا إلى الانتقاد، شعور بعدم الكفاية متأصل في معاناة طويلة من الرفض الاجتماعي، والخوف من الرجال الذي نجم عن اختبار غشيان المحارم، واهتمام مشوش من ناحية مواجهة زوجة نفورة أم مواصلة محبتها في صبر، أو شعور مزعج من ناحية العلاقات السطحية التي لا تبدأ ولا تنتهي.

قليلون جدًا ممن يشغلون مراكز قيادية في الكنيسة هم الذين يرغبون في مواجهة هذه النوعيات من الحقائق بأمانة، ونحن ككنيسة نسينا التعامل مع الأسئلة التي يطرحها الناس إذا أُتيحَت لهم الفرصة لطرحها، وإلى أن نجد الشجاعة للتخلي عن حذرنا وأن نواجه بأمانة التوترات، الشهوات، الاستياء، والمخاوف التي تنهش فينا من الداخل، لن نفهم إطلاقًا المدى الذي ينطبق فيه الكتاب المقدس على الحياة، وحتى ذلك الحين، فإن محاولاتنا غير الفعالة لإيجاد ناحية تطبيقية للغرض الذي تستهدفه عظاتنا التفسيرية، فإن هذه العظات لن تؤثر بعمق في أي شخص، بل والأسوأ من ذلك أنها قد تسبب الأذى لأنها تقول للناس المتألمين إنه ليست لدى الكنيسة حلول، وإنهم لكي يجدوا مساعدةً بالنسبة لهذه النوعية من المشاكل، عليهم التوجه إلى المشيرين المحترفين، وكثيرًا ما أصبحت كنسيتنا وكلية اللاهوت الخاصة بنا من المجتمعات التي تتسم بالتمسك بالأخلاقيات، مع حرصها على تطبيق قواعد صارمة لآداب المعاملة، وغاية ذلك المحافظة على إنكارنا هويتنا الحقيقية والمشاكل التي نواجهها، والنتيجة هي معتقدات تقليدية جامدة فاترة تعصف بحياة الكتاب المقدس.

و «كلمات» الله فقط هي التي يمكن فهمها في معمل للدراسات اللاهوتية، أو في دراسة لأحد المفكرين، ولكي نفهم «رسالة» الله يجب أن نأخذ فهمنا للنص ونغوص بعمق في حياتنا وحياة الآخرين، نعترف بارتباكنا، ونصلي لكي يعطينا الرب حكمة، ونلتزم بقوة بثوابت إيماننا فقط، ونتسم بالصراحة بالنسبة لأي شيء آخر، وإذا كان لنا أن نفهم مقولات الحق على أنها مقولات الحياة، وإذا كنا ننظر إلى حق الله على أنه الطريق إلى الله، علينا إذن أن نواجه ما هو تحت سطح حياتنا، وعلينا أن نفكر مليًا وبقوة عن السبب الذي أوقعنا في هذا المأزق الرهيب، وما الذي عسانا نفعله لنخرج منه، والأسئلة التي يجبرنا واقع الحياة الأليم على طرحها، يجب أن نأتي بها إلى الكتاب المقدس ونحن على ثقة بأننا سنجد فيه الحلول التي نحتاجها:

- لماذا لا أرتاح لدى لقاء أناس جدد؟
- لماذا أشعر بغيرة من نجاح الآخرين، ولاسيما الذين يعملون في نفس مجال عملي؟
- كيف أتصرف حيال الألم الفظيع الذي يتملكني حينما أتذكر موضوع انتحار والدتي؟

- كيف أتعامل مع الحقيقة المرة بأن والدي لم يشعرني إطلاقًا بمحبته لي، وأن يكون متواجدًا عندما أحتاجه؟
- ما الذي يُفترَض أن أعمله حيال رغبتي المُلِحَّة في أن أكون امرأةً لأني أخاف جدًا من كوني رجلاً؟
- كيف أتعامل مع خوفي الرهيب، لو صرّحت يوما بما أشعر به حقًا فلن يريدني أحد، وسيرفضني الجميع؟
- لماذا لا أريد الاعتراف بمعاركي الداخلية؟

يتوجب علينا معرفة أن هذه الأسئلة لم يطرحها فقط المرضى في عيادة الطبيب النفسي، بل أنها إنها ترتع أيضًا في قلوب: قائد الكورال، مشرف مدارس الأحد، والزوجين الشابين الذين بدءا للتو المجيء إلى الكنسية، وجميع المسيحيين لديهم أسئلة عميقة مزعجة يجب أن يسألوها، وعلى الرغم من ذلك فإن الكثيرين لا يتحدثون عنها إطلاقًا؛ لأن طرحها ينتهك قواعد مجتمعنا. ومن المفترض أن يتعاون المسيحيون معًا، والمُلاحَظ أن كثيرين آخرين يتعاملون مع الحياة بإنكار ما يعانونه لمدة طويلة، لدرجة أنهم أصبحوا لا يدرون أنهم في معارك مع معاناتهم. والكتاب المقدس لن يصبح كتابًا حيًا وفعالاً في حياتنا حتى نأتي إليه بحقيقتنا كاملة. والدراسات اللاهوتية تحسن صنعًا - على ما أعتقد - إذا ما قسمت مقرراتها الدراسية إلى قسمين: القسم الأول يتناول الأسئلة التي أجاب عنها الله في الكتاب المقدس، والقسم الثاني لمواجهة معرفتنا بالكتاب المقدس بالأسئلة التي يطرحها الناس حين يعترفون حقًا بمعاركهم مع الحياة.

وإذا فعلت الدراسات اللاهوتية ذلك فإن أقوالنا المتعلقة بالعقيدة ستبرز بوضوح أكثر على أنها حقائق مُغَيِّرَة للحياة لها قدرة على تغيير الناس من الداخل وكذلك من الخارج، وإلى أن يحدث ذلك فنحن لا نفعل أكثر من الكرازة بالإنجيل، ونعلّم المهتدين الجدد أمورًا تقليدية تطلب منهم أن يتظاهروا بأنهم قد تجددوا.

المضامين: التفكير مليًا في الأمور:

فيما نكشف أنفسنا للحقائق المربكة المتعلقة بوجود الإنسان، سوف نُواجَه بالتحدي الذي يتمثل في مطالبتنا بتفسير ما نراه على ضوء المقولات الكتابية، وهنا ننظر إلى الحق الكتابي باعتباره الطريق إلى الحياة فحسب، بل إننا سننمو في إدراكنا كيف

أن مضامين هذه المقولات يمكنها أن تشرح لنا بشكلٍ كافٍ ما الذي يحدث في الحياة .

أتذكر حين عرفت لأول مرة أن معظم اللاتي يَقُومْن بالاستعراضات الجنسية، وينزعن إلى إظهار العورة (exhibitions) يشعرن بارتياح جنسي، ليس حين يعرضن أنفسهن، بل بالأحرى حين يرون الصدمة التي تنتاب ضحاياهن، هذه معلومات قد عرفتها من الحديث مع الناس ومن قراءة القصص والقضايا، ولم أعرفها من الكتاب المقدس.

والآن إذا كنت أعتقد أن المقولات الكتابية كافية للإجابة على الأسئلة التي يطرحها المشير، فعليّ إذن أن آخذ هذه المعلومة إلى الكتاب المقدس وأفكر، وينبغي عليّ أولاً أن أقرر في أية مقولة كتابية أتوقع أن أجد مضامين من شأنها أن تلقي الضوء على هذه المعلومة، ومن المؤكد أن عملية الخطية ستكون بين هذه المضامين؛ وبالتالي سوف أتأمل في المقولة اللاهوتية الخاصة بعلم الخطية (hamartiology)، ما هو خداع الذات؟ ما هو الغرض من الخطية؟ لماذا هي جذابة؟ وسأفكر أيضًا في نقطة مهمة وهي: «ما الذي يجعل الناس مسرورين؟» وذلك بالتأمل في قول صاحب المزمور إنه يشتاق إلى الله كما يشتاق الإيل إلى جداول المياه (مز٤٢:١)، وهل يمكن للاشتياق المشروع إلى الله أن يتحول بطريقة ما إلى اشتهاء أشكال شاذة من الشعور بالارتياح الجنسي؟ ولعل المقولة الكتابية الخاصة ب «الذكر / الأنثى» بها مضامين قد تساعدنا على حل هذا اللغز.

وربما كان الرجل الافتضاحي يريد أن يكون له تأثير من نوعية التأثير الذي أراد الله من الإنسان أن يختبره حين يمتلك عالمه، وربما توصل إلى النتيجة الخاطئة بأن التأثير الهادف لم يكن متاحًا، وعلى ذلك شعر بخواء سبب له إحباطًا عميقًا، وإحداث صدمة في امرأةٍ عن طريق عرض الدليل المادي على ذكورته، كان أساس خطته في العثور على الإشباع الجنسي الذي لا يستطيع أن يعثر عليه بأية وسيلة أخرى، ولعل هذا الافتضاحي كان مثالاً لوصف «إرميا» لأناس عطشى نقروا لأنفسهم آبارًا مشققةً ليس بها ماء فقد حصل على الأقل على إثارة زائفة وقتية أشبعت ذكورته (انظر إر٢:١٣).

ومهمة الطالب الذي يدرس الكتاب المقدس أن يفكر في الحياة في إطار المقولات التي يقدمها هذا الكتاب المقدس، وإذا اتفقنا أن نبين أن النتائج التي توصلنا إليها تعكس مضامين معقولة للمقولات الكتابية، فبمقدورنا في هذه الحالة ـ وبحق ـ الادّعاء

بأن أفكارنا كتابية، وتعتمد مصداقية تفكيرنا على قدرتنا في أن نثبت بالفعل أنها من المقولات الكتابية السابق تعليمها بوضوح.

ومن بين طموحاتي الشخصية، أن أفكر في كل مشكلة إنسانية عامة على ضوء المقولات الكتابية، حتى أصل إلى معرفة أسباب المشكلة وما الذي يمكن عمله لحلها، كما أعتقد أن فهمنا الكتابي للمشاكل التي لم يعرض لها الكتاب المقدس بشكل مباشر أمر ممكن إذا فكرنا في المضامين الكتابية الخاصة بالمعلومات التي نلاحظها.

وسوف أناقش في الجزء الثاني من هذا الكتاب الرأي الذي توصلت إليه لمقولتين كتابيتين أساسيتين - الأنثروبولوچي (من هو الإنسان؟)، وعلم الخطية (ما هي مشكلته؟) - وبطريقة تقدم إطارًا لبداية مهمة التفكير في مشاكل الحياة.

ولكي نفهم المشاكل التي يواجهها المشير بطريقة تستحق أن نطلق عليها «كتابية» ينبغي علينا أن نبدأ بالمقولات الكتابية المأخوذة من النص، ونجمع ملاحظات نتيجة نظرة أمينة إلى الحياة ونفكر بشجاعة حتى يصبح لها معنى، ثم ندرس بدقة العملية برمتها المرة تلو الأخرى، وإذا عبرنا عن العملية بمعادلة بسيطة ستكون على النحو التالي:

مقولات كتابية * ملاحظات من الحياة *

تأمل دقيق = فهم كتابي

صور: التواصل الفعَّال مع الناس

يريد المشير الكتابي أن يفهم الناس على أساس المفاهيم (أو المقولات) التي يعلّم بها الكتاب المقدس، ولكنه يود أن يفعل أكثر من ذلك؛ فغرضه الأساسي هو أن يوصل ما يعرفه بطريقة من شأنها أن تغير الحياة، والجراح الموهوب الحكيم الذي لا يقوم بإجراء أية عملية لا يفيد العالم بشيء يُذكَر.

وفي هذا القسم الموجز أريد أن أتناول جوهر التواصل الفعال؛ فأساليب تقديم المشورة مثل عمل التقارير، توقيت التفسير، وتقديم النصيحة تعد من الأمور المهمة، لكنها ليست موضع اهتمامي عند هذه النقطة، ذلك أنني أود أن أؤكد على مبدأ كتابي، الذي إذا انتُهِكَ سيُضعِف من فاعلية أكثر المشيرين مهارةً، وهذا المبدأ هو: «إن الرسالة التي نعلمها لن تنفذ إلى قلب الآخرين ما لم تكن قد نفذت إلى قلوبنا أولاً»، وهذا المبدأ مأخوذ عن فقرة مثل (تسالونيكي الثانية ٣:٧، ٩) حيث يطلب الرسول بولس من

الآخرين أن يتمثلوا به قائلاً: «إذا أنتم تعرفون كيف يجب أن يُتمثل بنا لأننا لم نسلك بلا ترتيب بينكم ... لكي نعطيكم أنفسنا قدوةً حتى تتمثلوا بنا...»

انظر أيضًا (فليبي ٣: ١٣-١٧)، (كورنثوس الأولى ٩:٤-٢٧).

والرسالة المسيحية على وجه الخصوص يجب أن تتعمق في جوهر كياننا قبل أن يكون بمقدورنا أن نعلنها للآخرين بقوة؛ فالمهارة والمعرفة دون النضج في الأمور المتعلقة بالمسيح لا تؤهل أحدًا ليكون موصلاً جيدًا للحق المسيحي.

وما لم يواجه المشير حقيقة أن الخطية تعمل بخبث في شخصيته هو، وأن يكون قد تعلم شيئًا بالنسبة لمعنى أن يتوب الإنسان من قلبه، فلن تتوفر له قوة تُذكَر تمكنه من توصيل ما يحتاج طالب المشورة إلى سماعه؛ فالتفسيرات الجيدة والفكر اللاهوتي الصحيح، يمكّناننا من أن نقول حق الله للآخرين بدقة، والتأمل الواعي في مضامين تلك الحقائق بالنسبة للأسئلة المتعلقة بواقع الحياة، تجعل من الممكن لنا أن نقدم الحق في إطاره الصحيح، لكن التعايش مع الحق في تناغم وثبات دائم هو الذي يؤهلنا لتوصليه بقوة.

لقد عرف طلبة كليات الآداب منذ فترة طويلة أن أساليب التشبيهات المجازية، الاستعارة، الأسلوب القصصي والخيال تُعد من الوسائل الفعّالة لتوصيل الأفكار إلى عمق عقول الناس، وحين تكوّن صورة للحق فإنها تضيف أبعادًا إلى مجرد قوله، وتجعل النقطة المهمة أكثر وضوحًا.

ومهمة المشير أو الوالدين أو الواعظ أن يكون الحق - الذي يريد الآخرين أن يسمعوه - جزءً من حياته، وهنا سنجد أن العبارات التي تصف الحق يصاحبها توضيح قوي لهذا الحق.

وحين يريد الناس أن يعرفوا شكل الله الآب، نوجههم إلى أن يروه في الله الابن، لماذا؟ لأنه رسم جوهره، «شبهه تمامًا» انظر (عب ١:٣)، وحين يريد طالبوا المشورة أن يفهموا كيف يمكن لحقائق الكتاب المقدس أن تعمق علاقتهم بالله وبالآخرين، وكيف أن العلاقات الحسنة تحل مشاكل الحياة، علينا أن نكون قادرين على أن نطلب منهم أن ينظروا كيف نعمل نحن كصورة لمن عايشوا الحق، وكيف أننا نجد في هذا عونًا لنا، وبدون فهم متزايد لكيفية عمل الرسالة الكتابية في حياتنا فإنه مهما كانت كمية التدريب على نظرية تقديم المشورة أو أسلوبها فإن ذلك لن ينتج مشيرًا كتابيًا.

علينا أن ندرس الكتاب المقدس، ونحدد مواقفنا العقائدية، ونتأمل مليًا في مضامين تعاليمنا فيما نواجه الحياة بأمانة، ونسعى لأن نُضَمِّن حياتنا حقيقية القوة والفرح التي نقرر إنها متوافرة في المسيح؛ فالمحتوى، المقولات، المضامين؛ والصور البلاغية ـ هذه العناصر الأربعة ـ تتضافر معًا لتعطينا طريقة للتعامل مع الكتاب المقدس، توضح لنا كفايته لتؤهلنا للعمل في مجال تقديم المشورة.

والخطوة التالية في تأهيل أنفسنا لهذا العمل، هي تحديد المشكلة التي تواجه الإنسان باستخدام التعامل مع الكتاب المقدس الذي وضعناه الآن، وهذا هو موضع تركيز الجزء الثاني.



الجزء الثاني

فهم الناس

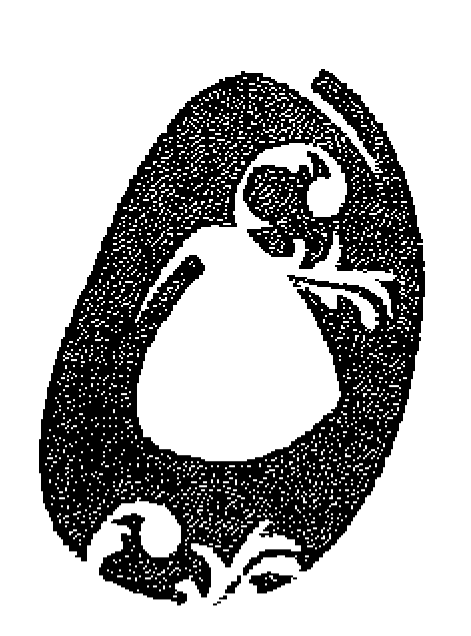
"صورة مشوهة وعلاقات مقطوعة"





الفصل الخامس

كيف يتسنى للناس أن يتغيروا حقًا ؟



للناس مشاكلهم، ووفقًا لمعايير مسيحية ضعيفة تهتم بمظهر الناس بأكثر من اهتمامهما بعلاقاتهم العميقة بالآخرين، تبدو الأمور بالنسبة لها ليست سيئة تمامًا، وكل كنسية لها نصيبها بالنسبة للنساء المحبطات، والأزواج الخائنين، والشباب المتمردين، غير أن معظم المؤمنين حالتهم طيبة للغاية.

غير أنه حين نلهث وراء الله بمحبة تتقد حماسةً، ونخدم الآخرين من قلوب عامرة بالعطف والحنان فإن المعايير التي تقيس ذلك، ستثبت أن الكثيرين منا مُقَصِّرون في هذه الناحية، والعلاقات - وفقًا لهذا المعيار - لم تكن في الواقع جيدة على النحو المطلوب؛ فليس أولئك الذين يكافحون مع نوبات القلق التي تنتابهم، أو الذين تتملكهم النزعات القوية التي تدفعهم إلى الجنسية المثلية هم فقط الذين يحتاجون لمساعدة، بل نحن جميعًا في حاجة إليها.

وإذا كان لنا أن نعرف كيف ندفع أنفسنا والآخرين نحو حياة نحياها كما يجب، فعلينا أن نتناول ثلاثة أسئلة حيوية:

من نحن؟ لماذا تواجهنا هذه المشاكل الكثيرة؟ وما هي الحلول؟

نحن في حاجة إلى إيجاد نموذج لفهم الناس، والمشاكل، وفي حاجة إلى حلول واسعة بما يكفي لتطبيقها على المواقف بصفة عامة، وبحيث تكون عملية بما فيه الكفاية لتطبيقها على مواقف معينة، ويناقش الجزء الثاني موضوع: «من نحن؟ ولماذا تواجهنا المشاكل؟»، أما الجزء الثالث فيتناول الحلول.

أولاً: «الناس»: إذا ما تخلصنا من الفوارق، فما الذي يجعلنا متشابهين؟ ما هي الأمور المشتركة بيننا، والتي يُعرَف منها أننا بشر؟ ومن أية ناحية تتشابه الطبيبة العرافة (الدجالة) الأفريقية، مع الجدة الحلوة ذات الشعر الأبيض التي تعيش في الضواحي الأمريكية؟ وما هي السمات المشتركة بين سكان المدن المتقدمة، وسكان الجبال النائية؟ وما هي المبادئ التي يتخذ الناس قراراتهم على أساسها؟ وما الذي يقودنا في الحياة؟ ومن أين تأتي العواطف؟ وهل هناك حقًا ما نطلق عليها أهدافًا وأفكارًا في العقل اللاواعي؟ أم أن هذه الأفكار ليست سوى أمورًا مختلفة (ملفقة) جاءت وليدة خيال علماء النفس؟ نحن في حاجة إلى معرفة من نكون؟ وكيف نعمل؟

ثانيًا: «المشاكل»: الأمر الذي لا يتطلب سوى قدر بسيط من الحصافة لنعرف أن هناك خطأ ما في الناس؛ فالآلة البشرية تم العبث بأسلاكها في مكان ما، وبعض الناس تتملكهم الكآبة حين يقسو أحد الأصدقاء عليهم، والبعض الآخر تراهم سعداء غير واعين بالرفض الشديد الذي يتعرضون له.

والكثيرون منا يشنون حربًا فاشلةً ضد النزعة التي تنتابهم والتي تدفعهم إلى أن يأكلوا بأكثر مما ينبغي، وقليلون هم الذين يتحلون بسمة ضبط النفس الحميدة، وبالنسبة لأعداد متزايدة من النساء الشابات فإن سمة ضبط النفس الحميدة، تتغير إلى إصرار على محاولة أن تصبحن نحيفات من خلال إتّباع نظام حمية غير سوي يؤذي صحتهن، بل وأحيانًا يسبب لهن الموت، ومعظم الزيجات تبدأ بالتوقُّع المفعم بالحرارة بعلاقة حميمة سعيدة، غير أن نصف هذه الزيجات تنتهي بالطلاق، ومعظمهما لا تتحقق تطلعاتها، وكثيرًا ما تظل الإحباطات الجنسية باقيةً دون حل، ويتم التعامل معها بالانسحاب العاطفي والبدني، والتحفيزات المنحرفة تضغط أحيانًا بكل قوة من أجل الإشباع، حتى أن الناس يضحّون بعائلاتهم وأعمالهم من أجل بضعة دقائق من اللذة الفاسدة.

والكنائس التي تبدأ بوعود حماسية بالوحدة تنقسم أحيانًا إلى معسكرين، الأمر الذي يتولد عنه حرب باردة، أو حرب ساخنة، أو انشقاق، وبعض الكنائس تتمتع بقدر من الوحدة الحقيقية، ولكن ما من أحد يحاول أن ينجح في شيء دون أن تواجهه مشاكل كبيرة.

وحين نسمع أن ابنًا لأحد أصدقائنا يعاني من مشكلة ما، نلاحظ علامات الرضا والكبر المختلطين بالاهتمام الصادق، وفي أحيان أخرى - أو مع أصدقاء آخرين - نشعر

برغبة عارمة في البكاء مع أولئك الذين لحقهم أذى، فما هو العيب الذي فينا؟ الواقع إننا لا نُحسن إقامة العلاقات مع الآخرين، لماذا؟ ما هو أساس مشاكلنا؟ هذا هو السؤال الثاني.

ثالثًا: «الحلول»: إغراء الاندفاع بسرعة إلى معرفة لغز القضية يجب مقاومته؛ فالنتائج الذكية التي توصل إليها المخبر السري، لا يمكن تقديرها تمامًا دون أن نعرف أولاً الصعوبات البالغة التي كانت تكتنف العقدة التي قام بحلها، وهذا المبدأ نفسه ينطبق على الحالة التي نحن بصددها؛ التقدير الكافي للحلول والذي يعتمد على فهم كامل للناس ومشاكلهم، وعلى سبيل المثال فالحل الذي تم في الجلجثة، لم يُقدَّر سوى إلى الدرجة التي فُهِمَت بها مشكلة الخطية.

إذا تخلينا عن العمل الصعب - والذي يكون في بعض الأحيان مملاً، والمتعلق بسعينا لمعرفة من نكون، ولماذا نكافح كثيرًا - هنا ستكون جهودنا التي ترمي إلى المعاونة، جهودًا سطحيةً، وتجدها في نهاية المطاف عقيمةً لا فائدة منها.

ومن بين العوائق التي تواجهنا أن معظمنا يفتقر إلى نظرية واضحة للتغيير؛ من أين لأب عصبي المزاج أن يتحلى بالصبر مع أطفال يثيرون غيظه؟ من أين لرجل متزوج حديثًا يتملكه الذعر، أن يصبح زوجًا واثقًا محبًا؟ كيف لامرأة تثيرها جنسيًا امرأة أخرى تتحول إلى اشتهاء الجنس الآخر؟ معظمنا بما في ذلك المشيرون والرعاة (القساوسة) لا يعرفون حقًا.

نحن نعرف أنه يتوجب على الناس أن يتغيروا، وأنه يجب على المسيحيين أن ينموا في المسيح، ونعتقد أنه بمقدورهم عمل ذلك، غير أنه بخلاف بعض الأفكار الأساسية عن الطاعة والصلاة وقضاء وقت في دراسة «الكلمة»، فإنه ليست لدينا فكرة واضحة عن الكيفية التي يحدث بها التغيير، وما الذي يحفز عليه، ونحن في كثير من الأحيان نخفي جهلنا وراء ستار مناقشات مؤثرة عن الفكر اللاهوتي، أو عن طرق التعليم المسيحي، أو بنية الكنيسة، غير أن ما يبدو أنه غائب دائمًا في معظم هذه المناقشات، هو فكر متماسك لنموذج خاص بالتغيير؛ فعند اجتماع مجلس إدارة كنيستك القادم، اطلب من الأعضاء أن يدلوا بآرائهم عن الكيفية التي يتغير بها الناس، وشجعهم على استخدام التوضيحات الشخصية للتغيرات التي حدثت في حياتهم إبان العام الماضي، ركز على أن تطلب منهم

أن يذكروا على وجه الدقة السبب الذي أدى إلى التغيير، وإنه لمن المحتمل جدًا أنك ستسمع الكثير من الصيغ التي سئمنا من كثرة تكرارها عن قوة الله وكلمته، وبعد الفحص تكتشف أن ما قالوه كان قليلاً جدًا، والواقع هو إنه ليست لدينا فكرة واضحة عن حلول لمشاكل كل الناس بمقدورنا أن نحولها إلى إستراتيجيات واضحة لمساعدتهم، وفي رأيي، أن السبب المباشر لفشلنا في وضع نموذج واضح للتغيير، هو فهمنا السطحي المشوش للناس ومشاكلهم، ولن ننجح في مساعدة أحد للتغلب على اكتئابه دون أن نفهم ـ قبل كل شيء ـ سبب وجود الاكتئاب، ولابد وأن يكون لدينا فكرة واضحة عما يجري داخل الناس قبل أن نستطيع إيجاد ثقة في التوجيهات التي نقترحها.

والمشيرون في الغالب الأعم يتجنبون الارتباك الذي يسببه استفهام أمين، ويتمسكون مستريحين بنظرية مغرية تبدو وأنها تجيب على عدد من الأسئلة، وإنه لأمر مغر أن نتجاهل بعض الحقائق التي ربما تفسد الاستنتاجات التي توصلنا إليها بصعوبة، وعلى غرار «د. واطسون Dr. Watson» نهنئ أنفسنا على نظرية قد تُرفَض في وقت لاحق، والطريق الأفضل هو الطريق المؤلم والذي اتخذه «شرلوك هولمز Sherlock Holmes»، الذي كان على استعداد لأن يظل في حيرة إلى أن يتم تفسير كل الحقائق، حتى أكثرها تفاهةً.

الناس، المشاكل، والحلول: نحن نحتاج إلى نموذج، إلى طريقة لفهم هذه الموضوعات المرنة الكافية لتناول كل المعلومات، والمحددة بشكل يكفي لإرشادنا في كفاحنا مع مشكلات الحياة، وفيما كنت أعاين الأرض التي سنعبرها، بدت لي خمس ملاحظات مهمة، وهي:

١- هناك سُبل كثيرة مختلفة لفهم الناس.

٢- البعض منا يتمسك ببعض الأفكار عن الموضوع، بدرجات مختلفة من ناحية الدقة والوعي.

٣- أيًا كان الرأي الذي نقبله فإنه سيؤثر بعمق في الكيفية التي نتعامل بها مع الناس، ومع كل نواحي الحياة.

٤- لا يمكن أن تكون كل الطرق صحيحة؛ فالكثير من الأفكار يناقض بعضها البعض. وعلى ذلك لابد وأن يكون البعض منها خاطئًا.

٥- إذا كان هناك شخص خالق وراء هذه الحياة برمتها؛ فعلى ذلك لابد وأن يكون من المستطاع أن نفهم الناس، المشاكل، والحلول فهمًا صحيحًا.

وقد ذكر أحد المؤلفين أن هناك بالفعل أكثر من مائتي نموذج مختلف لفهم الناس في المجال السيكولوچي اليوم، ومع وجود الكثير من الخيارات لنختار منها، فإن أية محاولة لتبسيط وتصنيف ما هو مُتاح سيضحى حتمًا بالشمولية.

غير أنه ربما من مزايا التصنيف أمام هذا الارتباك، أنه يستحق ما بُذل من جهد؛ فإذا كان بمقدورنا أن نرتب الطرق الكثيرة على أساس عدد قليل من الموضوعات المشتركة، فقد يتوفر لدينا في هذه الحالة أساس أفضل لتقييم الخيارات ولشق طريقنا إلى استنتاجاتنا، ولكي نكرر المفهوم الذي توصلنا إليه في الجزء الأول من الكتاب، فإن مقياسنا لصحة أية فكرة عن الناس، المشاكل، أو الحلول يجب أن يكون على أساس محتوى الكتاب المقدس.

ثلاثة نماذج أساسية:

حين يقول لنا طالب أو طالبة المشورة إنه مكتئب، فإن مهمتنا الأولى كمشيرين هي أن نقيِّم الوضع لمعرفة ما إذا كان السبب علةً بدنيةً أم لا، وليس من المناسب هنا أن نناقش كيفية فهم المعايير التي استُخدمت لاتخاذ ذلك القرار؛ لذلك دعنا نفترض الآن أننا قررنا وعلى وجه سليم بأنه لا يُوجد أساس طبي للاكتئاب، فما العمل الآن إذن؟ وفي إجابة على أسئلة تستفسر عن احتمال وجود علاقة بين الاكتئاب وأحداث الحياة، ذكر طالب المشورة أنه لا يوجد عامل اجتماعي واضح يسبب الاكتئاب؛ فلم يمت أحد من أحبائه، وصحته جيدة، والعلاقات العائلية تبدو سليمة، ولم يتعرض لأية كارثة، وهو راضٍ عن عمله ودخله المعقول.

وفي غالبية الأحوال، عند العمل مع الناس لا تجد اتجاهًا واضحًا يشير إلى الطريق الذي يجب اتِّباعه، وحتى عندما يُشار بوضوح إلى طريق تجده يؤدي في العادة إلى مزيد من الارتباك، وبالنظر إلى أن الناس يسببون الحيرة، فإنه لا يكون أمام المشيرين من خيار سوى أن يتبعوا التوجيهات المستمدة من النظريات التي يتبنونها بالفعل، وليس من المعلومات التي حصلوا عليها من طالب المشورة.

وعند العمل مع العميل طالب المشورة الذي يعاني من الاكتئاب، نرى المشيرين

يعملون طبقًا لما يعرفونه عن الطريقة التي يتصرف بها الناس، وعن السبب في المشاكل والحلول المتاحة ـ وبتأمل الحالة بنظرة أوسع ـ تجدنا كمشيرين نتبع إرشادات نموذج من ثلاثة نماذج أساسية، أي أن معظم الطرق التي تُعد بالمئات، والتي تُتَّبع لفهم الناس، يمكن تجمعيها تحت ثلاث نوعيات: النموذج الديناميكي (الفعَّال)، النموذج الأخلاقي والنموذج العلاقاتي.

وطبقًا للنموذج الديناميكي (الفعَّال) فالناس يقعون تحت سيطرة عمليات داخلية وكثيرًا ما يُطلق عليها «فعاليات الشخصية» لا يدرون في العادة عنها شيئًا، وجذور هذه الحقائق الفعالة ومصدر قوتها الحالية، نجدها في الماضي في طفولة الشخص المعني، ويتحدث المحللون النفسيون عن «التكوين الچيني» وهذا مصطلح يصف الجهود التي يبذلونها لمعرفة كيف أنتجت أحداث الطفولة المشاعر والمواقف الخاصة بهذا الشخص الحاضر.

ولعل الأمر مرجعه أن أمًا غير محبة ومسيطرة حجبت المحبة التي يحتاجها الطفل النامي، وأن أبًا ضعيفًا ومُحبَطًا فشل في أن يُمسِك بزمام الأمور المتعلقة بعائلته التعيسة. وأصحاب النظريات المتميزون بالفعالية الدائمة قد يتعجبون إذا تولدت في الطفل:

(١) نزعة لكراهية النساء اللواتي تبدو عليهن مظاهر القوة، وكذلك الخوف منهن.

(٢) صورة عن نفسه ـ على نمط والده ـ كشخص ضعيف لا يتعامل مع ظروفه إلا من خلال الخضوع والتراجع.

وهذه العمليات الفعّالة ـ كراهية، خوف من نوعيات معينة من النساء، وصورة ضعيفة عن نفسه ـ تمثل الأذى الذي لحق به في طفولته، والذي كان السبب في المشاكل الحالية؛ وعلى ذلك يحتاج الأمر إلى إصلاح، وحين يواجه هذا الشخص في حياته أمورًا مخيبةً للآمال، يأتي رد فعله طبقًا لما تمليه عليه الميول الموجودة في العقل اللاواعي، وقد ينسحب من العلاقات مع النساء، لكنه يظل معتمدًا على مجيء شخص قوي لكي يحسِّن له ظروفه.

ويرى كثير من المشيرين ممن يستخدمون «النموذج الديناميكي»، أن هذه المجموعة من العمليات السيكولوچية الداخلية تُعد مرضًا يحتاج إلى علاج، كما يُنظَر إلى طالب المشورة ـ بصفة رئيسية ـ على أنه ضحية الوالدين؛ فهو شخص يحتاج إلى

علاج ممتد يهدف إلى كشف بنية الشخصية وإعادة ترتيبها، وحين يبدو طالب المشورة غير قادر على تغيير أسلوب علاقته في الوقت الحاضر فإنه يُعتبر في هذه الحالة أنه لم يتحرر بعد من النواحي الداخلية المسيطرة عليه، ويحتاج الأمر إلى مزيد من الفكر الثاقب، ومن ثم علاج مستمر.

وبالنظر إلى أن النموذج الديناميكي (الفعَّال) يَعتبر المشاكل أعراضًا لأمراض تحتية، لذلك دُعِيَ «النموذج الطبي لفهم الناس»، وكما أن الأطباء يعالجون المرضى من أمراض بدنية، هكذا أيضًا يقدم المشيرون علاجًا للمرضى الذين يعانون من أمراض نفسية، ويتكون العلاج أساسًا من بحث عن الجذور الخفية للمشكلة، ويقول المشيرون الذين يستخدمون «النموذج الديناميكي (الفعَّال)» إن كشف هذه الجذور يؤدي إلى حرية متزايدة في التعامل مع المشكلة الحالية.

أما «النموذج الأخلاقي» فنظرته إلى الناس تتعارض بشدة مع «النموذج الديناميكي (الفعَّال)»، والمشيرون الذين يتّبعون هذا النهج يؤكدون أن أي تغيير في الاهتمام بسلوكيات المشكلة قد يوفر للناس أعذارًا يتهربون بها من المسئولية: «لا أستطيع أن أتحمل إذ تملّكني الاكتئاب إلى درجة تحول بين وبين تشذيب عشب الحديقة، وهذا معناه أن لديّ مشاكل عميقة في داخلي لم تُشفَ بعد».

والناس - بالنسبة للمشير الذي يتبع النموذج الأخلاقي - تراهم يتسمون بالعناد بأكثر من التشويش، وجوهر كل ما نعمله ليس شبكةً مزعومةً من العلميات الديناميكية بل بالأحرى إرادتنا، والناس مسئولون - أكثر من أي شيء آخر - عما يعملون؛ وعلى ذلك تركّز المشورة الجيدة، على نماذج مختارة من السلوك، ويقاس التحسن على أساس ما يحدث من تغيير في السلوك، ويتم تعزيزه بتجديد السلوكيات غير المسئولة، وتقديم النصح الذي يؤدي إلى التغيير المناسب، والكثير من مضمون «النموذج الأخلاقي» يدور حول إزالة الأعذار الكثيرة التي يتذرعون بها لمواصلة التصرف في إطار عدم المسئولية.

والتكليفات التي يُطلَب من طالب المشورة عملها في البيت، لها دور هام في تقديم المشورة على أساس «النموذج الأخلاقي»، والتعليمات التي توصي بقضاء وقت منتظم في دراسة الكتاب المقدس والصلاة، أو يطري أحد الأزواج شريك حياته، أو مراجعة

دفتر الشيكات، كل هذه الأمور اعتُبِرَت من الأدوات الأساسية التي تساعد الناس على حل مشاكلهم، وسواء عن عمد أم لا (الأمر يختلف)، لم يولِ اهتمام يُذكَر إلى البواعث الخلفية للسلوك سوى الإصرار على أن البواعث الصحيحة تعكس نفسها في السلوك السليم.

أما «النموذج العلاقاتي» فيتعارض مع كل من «النموذج الديناميكي» و«النموذج الأخلاقي» نتيجة عمليات ديناميكية يجب الكشف عنها، بل ولا يمكن إلقاء اللوم على نموذج الشخص الخاص بالخيارات غير المسئولة عن كل مشاكله، والنقطة الأساسية التي يجب أن تكون موضع الاهتمام هي العلاقات غير المرضية.

وبالنسبة للمشيرين الذين يتبنون «نموذج العلاقات» فإن أهم حقيقة عن الناس ليست في أنهم معقدون في من الناحية السيكولوچية «النفسية»، أو لا يمتثلون للمسئولين من الناحية الأخلاقية، بل هي بالأحرى أنهم خُلقوا لكي يُحِبُّوا ويُحَبُّوا؛ فقد خُلقنا لنعيش في إطارا العلاقات، ومن ثم فنحن نتوق إليها؛ فأكثر أجزائنا عمقًا تصرح من أجل العلاقة الحميمة، والانخراط الذي له مغزاه مع الآخرين.

ومن الأفضل - وفقًا لهذا النموذج - أن تُفهَم مشاكل الإنسان على أنها محاولات دفاعية للتعامل مع ألم الخوف والتوتر في العلاقات المهمة، وأن نتجاوب مع بعضنا البعض دفاعيًّا، فإننا بذلك نقلل من فرص التقارب التي من المشروع لنا أن نزيدها، والنتيجة هي وحدة أليمة تقوي إصرارنا على حماية أنفسنا من الأذى الذي نخشاه؛ فالناس أصبحوا محاصرين في دائرة أليمة من الأذى، الانسحاب الدفاعي، ثم المزيد من الأذى، والمزيد من الانسحاب.

والمشيرون الذين ينتهجون «النموذج العلاقاتي» يحاولون أن يقدموا لعملائهم علاقةً إيجابيةً بينهم تهدف إلى:

١-إزكاء الرجاء في تقليل الشعور بالوحدة من خلال التفاعل المفيد مع شخص واحد آخر على الأقل.

٢- تقديم وضع آمن لتجربة نماذج علاقاتية جديدة وغير دفاعية. أما القيم التي من قبيل الصراحة، الشجاعة، الضعف، الإصرار، فقد تم التأكيد عليها بشكل نمطي بواسطة مشيري العلاقات، والناس في حاجة إلى أن يعترفوا لأنفسهم بحقيقة ما يشعرون به تجاه

الآخرين وأن يتحلوا بالشجاعة في أن يظهَروا على حقيقتهم، وعلى التخلي عن محاولاتهم الملتوية لكسب المحبة أو تجنب الرفض، وعوضًا عن ذلك يقدمون أنفسهم للآخرين على حقيقتهم دون ادّعاء أو انسحاب.

الشكل (٥-١) يلخص أساسيات كل نموذج.

	المشكلة	الحل
النموذج الديناميكي	مرض	علاج
النموذج الأخلاقي	عدم تحمّل المسئولية- خطية	نصائح بتغيير السلوك
النموذج العلاقاتي	المعاناة من الوحدة	تأكيد- التعبير عن الذات

«شكل ٥-١»

معظم طرق تقديم المشورة تعكس جوهر افتراضات واحد أو أكثر من هذه النماذج الثلاثة، وبعض هذه الطرق يقع تمامًا في إطار نموذج واحد للمشورة التي تشمل في طياتها المواجهة والاهتمام والتغيير حسب الكلمة اليونانية الكتابية «nouthesia» تتيح إلى حد كبير نموذج أخلاقي، والمشورة (Rogerian) تركز على العلاقات، أما التحليل النفسي الكلاسيكي فمن الواضح أنه يتبع النموذج الديناميكي الفعّال، غير أنه ليس من السهل تصنيف السبل الأخرى بهذه السهولة.

والعلاج الخاص بالسلوك - على سبيل المثال - يُعد توليفةً غريبةً من النموذجين الديناميكي والأخلاقي في إصراره على أن الناس ضحايا البيئة السيئة، ويؤكدون على أن ما يحتاج إلى تغيير هو السلوك لا البني الداخلية، وعلاج «الجشطالتى»(١) وما يندرج تحته، وهو العلاج الأوّلي، ويعكس مزيجًا من عناصر العلاج الديناميكي، والعلاج الذي يهتم بالعلاقات.

وأعتقد أنه ليس هناك الكثير لكسبه من تحديد كل منهج بدقة على ضوء هذه النماذج الثلاثة، وعلى الرغم من ذلك فإنني أعتقد أن الافتراضات الأساسية لكل نموذج تعد جوهريةً لرؤية هذا النموذج للناس، وعلى ذلك تستحق بعضًا من التفكير.

والافتراضات التي نقبلها تحدد ما نفعله عند تقديم المشورة، وعلى سبيل المثال،

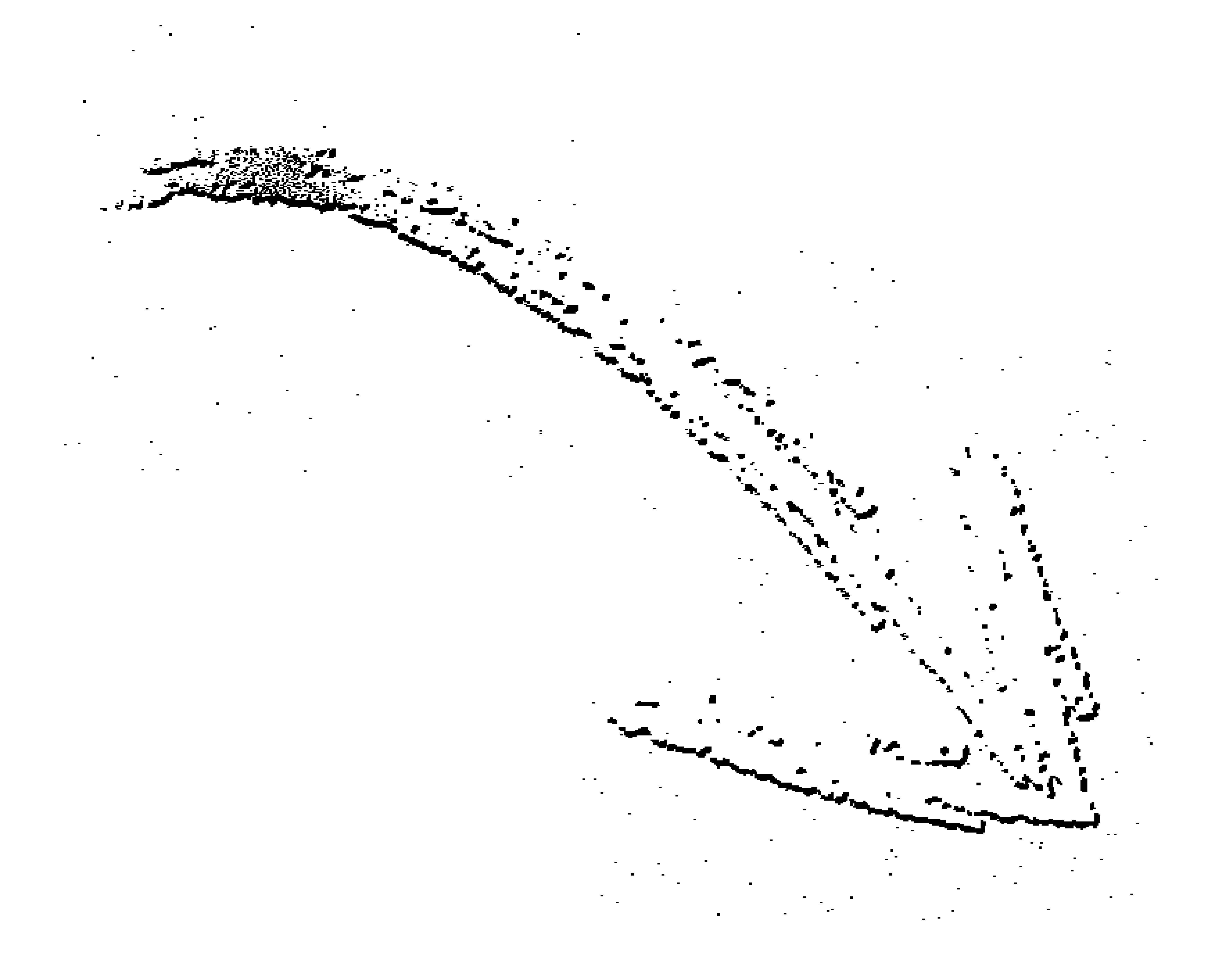
فإن مشيري « النموذج الديناميكي» نادرًا ما ينصحون الناس بتغيير السلوكيات. أما مشيرو «النموذج الأخلاقي» فيقدمون النصيحة الإرشادية دون تحفظ.

ويقضي مشيرو «النموذج الأخلاقي» وقتًا قليلاً في فحص ماضي طالب المشورة بعمق، أو في محفزاته الحالية البارعة، لكن مشيري «النموذج الديناميكي» يعتبرون أن لهذا الفحص أهميةً في المساعدة الحقيقية.

ويميل مشيرو «النموذج العلاقاتي» إلى أن يكون أقل اهتمامًا بالنسبة للموضوعات الخاصة بالاتّكال، وذلك على العكس من مشيري «النموذج الديناميكي»، الذين يبذلون جهدًا كبيرًا للتعامل مع موضوع التغيير، وتركيز «النموذج العلاقاتي» على العلاقة بين المشير وطالب المشورة يُعد أداةً كبيرةً للتغيير، وهذا يختلف إلى حد كبير عن تركيز «النموذج الأخلاقي» على التعليم كوسيلة من وسائل تقديم المشورة.

والفروق بين النماذج حقيقية، وبالنظر إلى أن كل نموذج يقودنا إلى اتجاه مغاير عند تلقينا المشورة، فإنه من المهم بالنسبة لنا أن نقرر بعناية ما نؤمن به، ولا يمكن لهذه النماذج أن تكون كلها صحيحة، ولو كان هناك معيار يُقاس به كل تفكير عن الناس والمشاكل والحلول، لتوجب دراسة كل رأي على ضوء هذا المعيار، وإن كنا قد انتهينا من قبل إلى أن الكتاب المقدس يعد معيارًا كافيًا وله سلطانه، فمن ثم بوسعنا أن نسأل إذا بدأنا بالكتاب المقدس فأي نموذج للمشورة سيظهر؟

هل يتوجب على المشيرين أن يفحصوا الشخصية بعمق كما يقترح أصحاب «النظرية الديناميكية»، أم يجب اعتبار هذه النوعية من تحليل العمق على أنها «خارج الحدود» بالنسبة للمشيرين، وإنها من اختصاص الروح القدس؟ وهل ينبغي على المشيرين الكتابيين أن تنَصَّب غالبية نصائحهم على تغيير السلوك، وربما التأكيد على الصلاة، وقراءة الكتاب المقدس وحضور الكنيسة، كطرق لابد منها لإرشاد طالب المشورة وتدعيم إصراره على التغيير؟ أم أن الكتاب المقدس يدعم صورةً للناس أكثر تعقيدًا مما أخذه أولئك الذين يركّزون على تغيير السلوك؟ وهل يتعين على المشيرين الكتابيين أن يفسروا مسئوليتنا من ناحية أن نحب بعضنا بعضًا كسبب في اختيارنا نموذجًا علاقاتيًا؟ أم أن هناك مكانًا لفحص المرء، دوافعه وأفكاره بشكل أعمق ولمواجهة أقوى؟ فأي نموذج من هذه يُعد كتابيًا أكثر من النموذجين الآخرين؟ هل اثنان منهما؟ أم خليط من النماذج الثلاثة؟ وسنبدأ بتناول السؤال «مَن نحن؟»





الفصل السادس

الناس يحملون صورة الله



منذ عهد قريب قضيت بعض الوقت أتجول في الممرات الطويلة للقسم السيكولوجي (النفسي) لإحدى الجامعات الأمريكية الكبرى، وقد وجدت جزءًا كبيرًا جدًا مخصصًا للكتب التي تتناول دراسة الطبيعة البشرية، والواقع أن آلافًا من المجلدات كانت مليئةً بالأفكار المختلفة والمتعارضة لرجال ونساء من المفكرين الذين تصارعوا مع السؤال: «من أكون أنا؟»

وأتذكر أنني شعرت بإحساس عميق بالعجز يتملكني فيما كنت أواصل تقليب الصفحات، هل يعرف أحد الإجابة؟ هل يمكن لشخص موثوق فيه أن يجيب على هذا السؤال؟ أم أنه يجب أن نستسلم لما يُقال من أننا نتاج تفكير خيالي؟ هل بوسعي أن أعرف يومًا من أكون حقيقةً، ومن تكون زوجتي، وأطفالي، ومن هم عملائي حقًا؟

ولن يفيد شيء أن أترك هذه الأسئلة باعتبار أنها فلسفية أكثر من اللازم، ثم أصر على العودة إلى موضوعات عملية «من نكون؟»، هذا سؤال له أهميته البالغة، وعلى المدى الطويل تراه عمليًا تمامًا وكل جهد يُبذَل لمساعدة الناس على أن يعيشوا حياةً مسئولةً ومنتجةً وعامرةً بالفرح يُفتَرَض أن له علاقة ما بالنسبة لهذا السؤال.

وحين يشجع المشير على إطلاق العواطف المكبوتة فهو يفترض شيئًا يتعلق بالطبيعة البشرية يدعم الفكرة القائلة إن التعبير العاطفي أمر صحي، وإذا عمل مشيرٌ آخر على استبدال المعارف السالبة بمعارف سليمة في محاولة منه للخلاص من الاكتئاب، فإنه يكون بذلك قد قبل النظرية التي تقول بأن العمليات الذهنية الواعية التي تحت سيطرتنا المباشرة تعد مهمةً للكيفية التي نعمل بها.

وتبدأ نظرية تقديم المشورة دائمًا - سواء بشكل واضح أو ضمني - بمجموعة من الأفكار الأساسية عن طبيعة الإنسان، وهذه الأفكار نافعة من ناحيتين؛ فهي تمثل حدودًا يمكننا في إطارها أن نتوصل إلى نموذج للمشورة، ثم أنها تعمل كمحفز يوجّه تفكيرنا نحو اتجاهات معينة؛ وعلى ذلك فإنه من الضروري أن نوضح رأينا بالنسبة لطبيعة الإنسان قبل الشروع في عمل نموذجنا الخاص بتقديم المشورة، وحين نبدأ في طرح الأسئلة عن جوهر طبيعتنا نكون قد دخلنا في مجال حديث سرعان ما يثبت أن البديهية، والفكر المنطقي، والملاحظات التجريبية غير كافية، وما لم يتقدم شخص يعرف كل الإجابات لكي يعطينا بعضًا من معرفته، فإننا سنطفو في اتجاهات متباينة دون شراع أو مرساة، وبدون الإعلان الإلهي سنحاصر بالشك الذي صَدَرَت بسببه آلاف الكتب التي لم تستطع حتى الوصول إلى إجماع كبير بالنسبة لموضوع طبيعة الإنسان، نحن في حاجة إلى الإعلان الإلهي، والأخبار السارة هي أن الله تكلم عن هذا الموضوع، وإذ أَخَذْتُ الإعلان الإلهي الكتابي كإطار لفكري، قدمت افتراضين للتفكير في الناس، وهذان الافتراضان قاما بالنسبة لي بوظيفة مزدوجة: الحدود، والمحفِّز.

أولاً: أفترض أن الناس مشابهون لله. ويذكر الكتاب المقدس بكل وضوح أننا خُلقنا على صورة الله، وأيًا كانت المعاني الأخرى لهذا القول، فإنه يتضمن الفكرة الأساسية أننا من بعض النواحي المهمة نشبه الله.

ثانيًا: أفترض أن شيئًا رهيبًا قد حدث كان من شأنه أن شوَّه هذا التشابه بشكل كبير، الأشياء التي بداخلنا والتي في العالم ليست الآن كما كان يجب لها أن تكون، وحين وقع آدم في الخطية شوَّه نفسه وشوَّه كل نسله إلى درجة بالغة حتى إننا نعمل الآن وإلى درجة كبيرة جدًا أدنى من المستوى الذي قصد لنا، ونحن الآن مثل طائرة بجناحين مكسورين تتدحرج على الطريق بدلاً من أن تحلق عاليًا في الفضاء، لقد انحطت الصورة إلى شيء بشع، أنها لم تُفقَد بل شُوِّهَت إلى درجة بشعة.

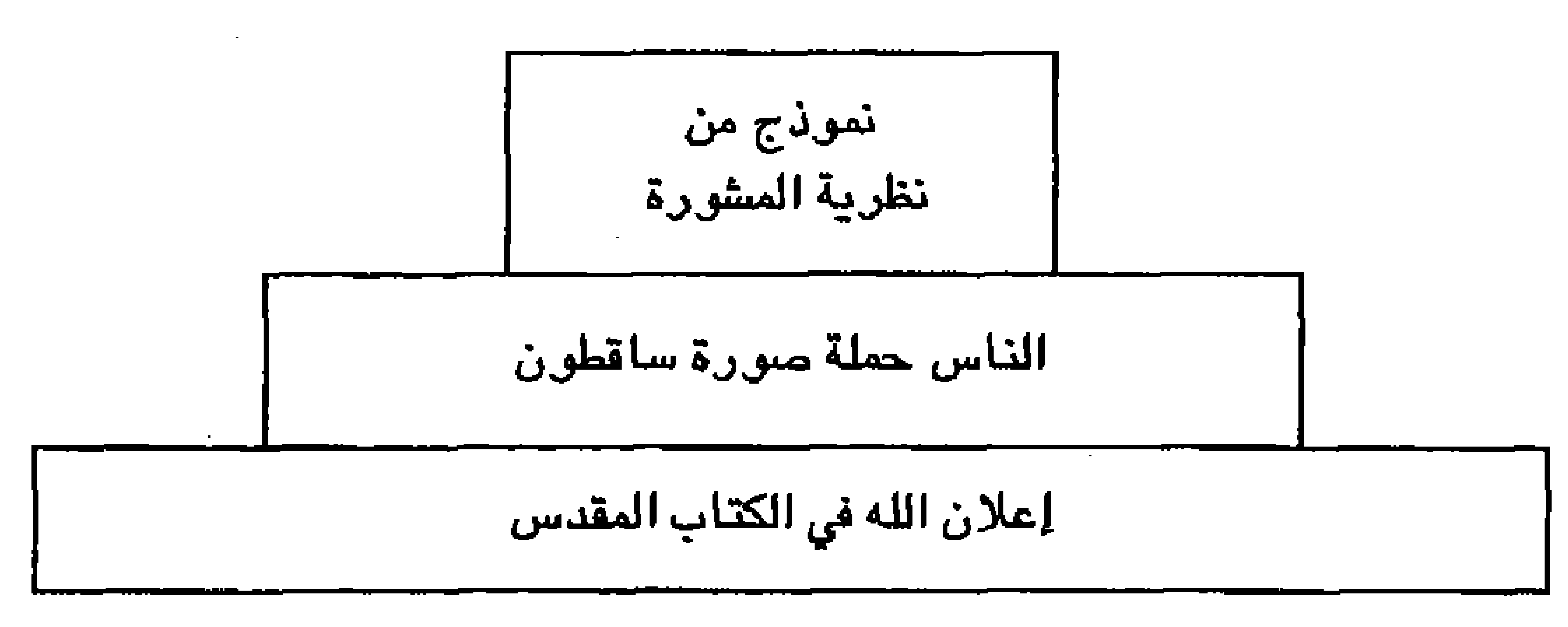
ونقطة البداية التي حاولت أن أفهم الناس من خلالها: هؤلاء البشر يحملون صورة السقوط، وقد قبلت هذه الفرضية لأن الكتاب المقدس قبلها، وفي (تكوين ١)، تم الحديث عن الله بدون مقدمة؛ فهو ببساطة «في البدء.... الله» (الآية ١).

وفي نفس الإصحاح، وصل الإنسان كخليقة خاصة وكان تفرده يعتمد على حقيقية أنه يحمل صورة الله.

«قال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا... فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه.» (تك ١: ٢٦-٢٧)

وبالنظر إلى أن الإنسان يحمل صورة الله، فقد استطاع أن يدخل في علاقة مع الله: «وباركهم الله وقال لهم...» (تك ١: ٢٨).

وفي (تكوين ٣) تم تسجيل سقوط آدم المأساوي في الخطية، وقُطِعَت العلاقة، وشُوِّهت الصورة، وبداية من (تكوين ٤) وحتى نهاية الكتاب المقدس، كان يُنظَر إلى الإنسان باعتباره حامل صورة ساقطًا، شخصًا يوسم بالكرامة (الصورة) والفساد (السقوط). وبغية أن يكون فهمنا للناس كافيًا، يجب أن نأخذ في حسباننا بقوة، جمال كرامتنا الأصلية وبشاعة الفساد المخزي، ونموذج المشورة الكتابي يجب أن يأخذ صورة الله، وسقوط آدم كنقطة بدايتها، كما هو موضح في الشكل ٦: ١



شكل ٦-١

صورة الله

المهمة الأولى، هي مناقشة السؤال الذي تَوَلَّد عنه جدال حاد لقرون عديدة، ومن المحتمل أن تستمر هكذا حتى عودة الرب، ما الذي يعنيه أنك خُلقت على صورة الله؟ وتناولي لهذا الموضوع ليس من المحتمل أن ينهي الجدال، بدلاً من ذلك، فإنني أخشى أن يُحبِط عمق مناقشتي القارئ غير اللاهوتي بتعقيداتها، والقاريء اللاهوتي بسبب إيجازها وعدم اكتمالها، وأطلب الصبر للمجموعتين كلتيهما، وما أرمي إليه هو أن أضع أفكارًا جوهرية تقودنا ليس إلى مجادلة أكاديمية، بل نحو نموذج للمشورة.

وعلى الرغم من وجود عشرات من الآراء تدو حول ما يشكل صورة الله، إلا أن هناك أربع أفكار مميزة برزت من وسط الارتباك، ولاقت قبولاً كبيرًا في العديد من الأوساط الدينية: سيادة / تمثيل، فضيلة أخلاقية، قدرة محايدة أخلاقيًا، تشابه.

ولكي أضع أساسًا كافيًا وقويًا لدعم بقية تفكيري، دعني آخذ وقتًا لأتأمل بإيجاز كلاً من هذه النظريات:

١- **الصورة كسيطرة وتمثيل:** البعض يجادلون بالقول بأن حمل صورة الله، معناه أن نتصرف نيابة عنه في هذا العالم، نمارس السلطان على الخليقة باعتبارنا وكلاء عن الله، ومسئوليتنا ودعوتنا هي أن نعكس بأمانة صفته وأخلاقه في كل ما نعمله.

في (تكوين ١:٢٦-٢٧) يسجل الكتاب المقدس أن أقانيم الله قررت أن «نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون ...»، والربط بين صورة الله ودعوة الإنسان أن يتسلط فُسِّر على أنه حجة لصالح الرأي القائل إن حمل الصورة معناه أن يكون لك سلطان كنائب عن الله.

٢- **الصورة كفضيلة أخلاقية:** كان «مارتن لوثر Martin Luther» يقول: «أن صورة الله تكمن في التميز الأخلاقي الذي تمتع به الإنسان عند الخليقة، وفقده عند السقوط في الخطية، ويمكن أن نسترده في المسيح». ويعلمنا العهد الجديد أن إعادة المسيحيين إلى صورة المسيح معناها أن ينموا في «المعرفة والقداسة والبر» (أف ٤:٢٢-٢٥، كو ٣:٩-١٠). وحسب رأي الكثيرين، تُعد الفضائل الأخلاقية التي تكون صورة المسيح أمرًا ضروريًا لتعريف صورة الله في (تكوين ١).

لقد خُلِق آدم وحواء وهما يتسمان بالفضيلة؛ فقد، كانا بريئين، بدون فساد، مصالحين، غير أنه منذ السقوط فقدت البشرية في آدم كل ادّعاء بالتميز الأخلاقي، ونحن الآن نتسم بعتمة الفهم بدلاً من أن نكون سريعي الفهم، ذوي ميول خاطئة بدلاً من أن نكون مقدسين، أشرارًا في سلوكنا بدلاً من أن نكون أبرارًا.

وعلى أساس هذا التعريف (الصورة تساوي الفضيلة) فُقِدَت الصورة تمامًا، والحديث عن صورة مشوهة بدلاً من صورة مفقودة يوحي بأنه مازال لدى الإنسان بعض الصلاح في داخله، وهذا الصلاح يذكّي نفسه لدى الله، لكن الكتاب المقدس

واضح من ناحية أن كل برنا «كثوب عدة» (أش ٦٤: ٦) وليس من بيننا من يطلب الله، كلنا «ضللنا» (أش ٥٣: ٦).

وصورة الله، إذا فُهِمَت على أنها تعني تميزًا أخلاقيًا يتسم به الإنسان قد فُقِدَت تمامًا، غير أنه يمكن استردادها بواسطة هبة بر الله وتقديس الروح القدس.

٣- الصورة كقدرة محايدة أخلاقيًا: وثمة مفهوم ثالث عن صورة الله توصل إليه اللاهوتيون الروم الكاثوليك؛ فهم يرون أن آدم عندما خُلِق لم يكن صالحًا أو شريرًا كان كائنًا محايدًا من الناحية الأخلاقية، مع رغبات «أدنى» يمكن أن تجره إلى المتاعب، وملكة تفكيره مكنته من رؤية العواقب، التي تنجم عن سماحه بأن تسيطر عليه رغباته، لكنه كان يفتقر إلى القوة الأخلاقية الواضحة التي تمكّنه من السيطرة على تلك الرغبات.

وتدخّل الله برحمته إلى جانب آدم بإعطائه قدرًا إضافيًا من النعمة «أُشير إليه بعبارة «donum superadditum» أي «المزيد من الصلاح»، وأصبح بمقدور آدم الآن أن يتصرف على نحو سليم حين تتصادم شهواته الدنيا مع عقله الأسمى، غير أنه عند السقوط في الخطية فقد هذه النعمة الإضافية، ونزل إلى كائن تتحكم فيه رغباته الجسدية، ولكي يخلص من حالة السقوط هذه لم يكن محتاجًا إلى مغفرة فحسب، بل إلى منحة أخرى من النعمة يمكن الاعتماد عليها ليعيش كما كان يجب أن يعيش.

والنقطة المهمة التي يجب ملاحظتها هي معرفة ما فُقِدَ عند السقوط في الخطية، لقد فقد آدم ليس حالة القبول في براءته الأدبية أمام الله، بل بالأحرى النعمة الإضافية التي يحتاج إليها ليعيش في صورة مقبولة أمام الله؛ وعلى ذلك، فالذي يجب استعادته ليس حالةً جديدةً من البر نقبلها كعطية من الله، بل إن ما يحتاجه الناس هو المزيد من النعمة للسيطرة على الشهوات الأدنى. والكنيسة - من خلال أسرارها المقدسة - تقدم هذه النعمة، وتُمكّن الخطاة من أن ينمو داخلهم البر الذي يطلبه إلهنا القدوس.

وتأثير هذا التفكير هو إضافة فكرة الفساد، بالقول بأن الإنسان في جوهره كائن محايد من الناحية الأخلاقية، ويحتاج إلى مساعدة لكي يكون تقيًا، وأصبحت حالة الخطية زلةً أخلاقيةً يمكن التغلب عليها بالحياة المستقيمة، ولا يزال موت المسيح يُعد

أساس المغفرة، إلا إنه يجب أن يصاحبه الآن جهد بشري لكي يصل الخاطئ إلى الموقف الصحيح مع الله، وهذا ليس سوى فكر لاهوتي عن الخلاص بالأعمال.

علينا أن نتوخى الحرص في مناقشتنا لموضوع صورة الله لتجنب الفكر القائل بأن الإنسان محايد من الناحية الأخلاقية، وتتساوى قدرته على عمل الخير مع قدرته على عمل الشر، وكما سيرد القول حالاً: أعتقد أن صورة الله تشير إلى قدرات أو سمات الشخصية، لكنني أرى أن هذه القدرات لم يكن لها وجود على الإطلاق ولن تتواجد أبدًا من فراغ أدبي؛ فقبل السقوط قال الله إن الإنسان حسن، وحين سقط آدم في الخطية أصبح كائنًا فاسدًا يحتاج إلى مغفرة وإلى هبة البر الذي لا يستطيع أبدًا أن يصل إليه وحده، وما أن نتبرر بنعمة الله وحدها، إلا ونُعطَى القدرة على أن نعيش في استقامة بوضعنا في المسيح، ولكن أعمالنا الحسنة لا تضيف إلى وضعنا من ناحية قبول الله لنا، ولكنها تعد ردًا شاكرًا إلى ذلك الذي أعطانا هذا الوضع.

٤- الصورة كشبه: يقول الرأي الرابع عن صورة الله، إن تشابهنا لله نجده في تعريف الشخصانية؛ فكل من الله والإنسان يمتلك سمات تميزه عن الكائنات غير الشخصانية.

منذ فترة مضت اشتريت مكتبًا ذا غطاء لفاف، وكانت بطاقة السعر تشير بوضوح إلى أن المكتب كان نسخة أصليةً وليست نسخة مصنوعة حديثًا، ومنذ ذلك الحين، رأيت نسخًا للصورة الأصلية التي تبدو وكأنها صورة أصلية. وللنسخ قيمتها من ناحية أنها تمثل الأصل الحقيقي، وإنها ليست الأصل ولكنها صُنِعَت بمهارة فائقة لتكون شبهه. لقد صُنِعَت على صورة الأصل... وبنفس هذه الطريقة أنت وأنا صور خُلِقت ببراعة فائقة، نحن نحمل صورة الله، ونحن من بعض النواحي نمثله، ومن نواحٍ أخرى توجد بالطبع فجوة من الاختلاف لا حدود لها، مثل اللانهائية، ويتحدث اللاهوتيون عن سمات الله التي تجل من الوصف، مثل كلي القدرة أو الكائن في ذاته، وهي سمات لا يستطيع الله أن يشارك فيها خليقته. هناك فروقٌ هائلة بين الله والبشر غير أنه توجد أيضًا تشابهات، وهناك سمات يمكن وصفها، جعلها الله في خلائقه. وفي كتابه المفيد «معرفة الله» يقول «ج. أ. بيكر» إنه حين خلق الله الإنسان وضع فيه سمات من سماته ويقول

«ج. أوليفربوزويل» في كتابه «اللاهوت النظامي» إن (تكوين ١: ٢٥-٢٨) تعني أن الإنسان خُلِق ليشبه الله في بعض النواحي المهمة.

والسؤال الواضح الذي نطرحه هو: من أية ناحية (أو نواح) نشابه الله؟ ومعظم المفكرين اللاهوتيين يتفقون مع «لويس سبرى شيفر Lewis Sperry Chafer» الذي يقول: «هذا التشابه في الجزء، هو في الجزء غير المادي وليس في الجزء المادي من الإنسان»، والتشابه ليس في مظهرنا ولكنه في جوهر شخصيتنا؛ فالله والإنسان كل منهما شخص، وكل منهما يمتلك الصفات والسمات التي تكون في مجموعها الشخص، فالحيوانات والأشجار والأحجار ليست أشخاصًا لكن البشر أي بني آدم، أشخاص مثل الله.

وأيًا كانت هذه السمات التي نشارك فيها الله كأشخاص، يبدو من الواضح أنها بقيت بعد السقوط، انظر (تك ٥:١-٣، ٦:٩، ١كو ١١:٧، يعقوب ٣:٩)، وعلى النقيض من وجهة النظر اللوثرية، يقول «شيفر Chafer»: «على الرغم من الكثير الذي ذُكِر بطول الكتاب المقدس عن مدى خطية الإنسان والهوة السحيقة التي نزل إليها، إلا أنه لم يذكر أنه فقد صورة الله. والواقع أن الكتاب المقدس يعلّمنا أن الإنسان الذي سقط في الخطية احتفظ بالصورة، وأن هذه الحقيقة هي التي تحدد مدى انحطاطه». ويوافق المصلح اللاهوتي «لويس بيركوف Louis Berkhof» على أن الصورة لم تُفقَد وهو يعلم بأن صورة الله تتضمن عناصر تنتمي إلى التكوين الطبيعي للإنسان، عناصر تنتمي إلى الإنسان كإنسان، مثل القوة الذهنية، المحبة الطبيعية، الحرية الأدبية، والإنسان إذ خُلِق على صورة الله، فمن ثم له طبيعة عقلانية وأدبية لم يفقدها بسبب الخطية، وليس بمقدوره أن يفقدها إلا إذا توقف عن أن يكون إنسانًا، ويختم كلامه بقوله: «لقد شوهت الخطية الصورة، لكنها ظلت موجودة في الإنسان حتى بعد وقوعه في الخطية».

وقد نوجز الموضوع على النحو التالي:

توجد صورة الله في سمات الشخصية الدائمة، وهي التي يتشارك فيها الله والإنسان، وهي السمات التي تحدد ماذا يعني أن تكون شخصًا أو ألا تكون شخصًا،

وقبل أن نتأمل ما هي هذه السمات، اسمحوا لي أن أقارن باقتضاب بين هذا الرأي عن صورة الله والآراء الثلاثة الأخرى التي سبق ذكرها.

المسئولية التي أُعطيت للإنسان لكي يمارس السلطان باعتباره وكيلاً عن الله، تحدد - ليس الصورة ذاتها - بل بالأحرى ما الذي دُعي الإنسان أن يعمله باعتباره حاملاً صورة الله، وبالنظر إلى أننا أشخاص نستطيع أن نفكر ونختار ونشعر؛ فعلى ذلك بمقدورنا أن نتسلط على خليقة الله كسفراء له، وأصبح هذا التسلط ممكنًا بسبب الصورة وهو ليس الصورة ذاتها.

بل ولا يمكن للفضيلة الأخلاقية أن تكون مساوية للصورة، وباعتبارنا أشخاصًا يحملون صورة الله فقد اخترنا أن نتمرد على الله (وهذا أمر ما كان يعمله من لا يحمل الصورة، حملة الصورة فقط هم الذين يختارون)؛ وعلى ذلك فقدنا أي ادّعاء بالفضيلة الأخلاقية لكننا ظللنا أشخاصًا، لأن «الشخص» الرحيم اختار أن يتعامل برحمة معنا «نحن» الذين نحمل صورته، وذلك بأن افتدانا وأعادنا، ليس إلى التشابه الشخصي - فلم نفقد التشابه إطلاقًا - بل إلى التشابه الأدبي (صورة) المسيح التي أُعلنت في العهد الجديد.

وعناصر الشخصية التي تحدد صورة الله يجب ألا ننظر إليها على أنها قدرات أدبية محايدة كانت موجودة في وقت ما في حالة لا تتسم بالخير أو الشر، ومنذ أن خُلق الإنسان حتى الآن لم يكن هناك عمل لا يتحرك سواء في اتجاه أخلاقي أو في اتجاه غير أخلاقي؛ فكل شيء عمله كان في حركة، والحركة إما أنها تجاه الله ولذلك تعد حسنة، أو بعيدًا عن الله ولذلك تعد شريرة، ولا يوجد شيء محايد من الناحية الأخلاقية بالنسبة لنا، ونحن ككائنات شخصية لها قدرة على الحركة نخضع دائمًا للتقييم الأدبي.

قدرات الشخصانية

نحن أشخاص، والله شخص، ونحن نشابهه من ناحية أننا نمتلك العناصر التي تكوّن في مجموعها الشخصية، ولكن ما هي هذه العناصر؟ وما هي بالضبط القدرات الشخصانية التي تكوّن صورة الله؟

لكي نجيب عن هذا السؤال يجب أن نستنتج المعاني من الكتاب المقدس، ولا

نعتمد على فقرات بعينها؛ فلا يوجد نص يبدأ قائلاً «هكذا يقول الرب عناصر الشخصية هي ...»، وعلى ذلك يتطلب الأمر منا أن نفكر كيف قدم الله نفسه في الكتاب المقدس، ونبحث ليس فقط عن تلك العناصر التي تميزه باعتباره الله السيد الأبدي، بل وعن السمات التي تعرّفه كشخص.

ونحن في ذات الوقت في حاجة إلى أن نسأل ما إذا كانت السمات التي نتعرف عليها قابلة للنقل، وما إذا كانت في حقيقية الأمر قد نقلت لنا. وحين نستطيع أن نسجل ذلك في قائمة مميزات الشخصية التي يتشارك فيها الله والإنسان، سيكون لدينا تعريف أساسي لصورة الله، وفيما يلي موجز بالسمات التي يشترك فيها الله والإنسان، وسنعرض لكل من هذه المفاهيم على نحو مفصل في الفصول الأربعة التالية:-

١- أشواق عميقة:

في (هوشع ١١:٨) يعبِّر الله عن حزنه لتمرد أولاده بعبارات مؤثرة وبلغة قوية مفعمة بالعاطفة: «كيف أتخلى عنك ... قد انقلب عليَّ قلبي يتلوى أسى في داخلي» وهذا ما يوحي بأنه توجد في شخصيته حقيقة ذاتية لا يمكن تعريفها ببساطة على أنها مجرد عاطفة، فهي أعمق من هذا، ومع الصفات السامية التي يتمتع بها الله في كينونته، إلا أنه يتوق لإعادة العلاقة مع أولاده. ويصف كاتب المزمور نفسه أيضًا ككائن يتوق بعمق واشتياق إلى الله يشابه اشتياق الإيل إلى جداول المياه (مز ٤٢:١)، وفي موضع آخر يقول: «عطشت إليك نفسي، يشتاق إليك جسدي» (مز ٦٣:١).

وكلمة يشتاق في (مزمور ٤٢:١) تعني رغبةً جامحةً ومسموعةً؛ فالاشتياق بالغ جدًا إلى درجة لا يمكن معها اعتباره رد فعل عاطفي لظرف معين، وهو شيء داخل الإنسان بمقدوره الاشتياق لإشباع توق ما في عمق أعماق الشخصية، وكل من الله والإنسان لديه القدرة على الاشتياق بعمق.

٢- تفكير تقييمي:

في أيام نوح عمل الله تقييمًا لحياة البشر، وقيل لنا في (تكوين ٦:٥): «ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم»، لقد فكر الله فيما آل إليه حال البشر واتخذ قراراته. وكان الإنسان يفكر أيضًا؛

كان يتأمل عالمه، ويضع مجموعةً من الأفكار التي يسترشد بها في حياته، وعلى الرغم من أنه «شرير كل يوم» في أفكاره، لكنها كانت أفكارًا لها اتجاه؛ فكل من الله والإنسان يفكر وكل منهما يصل إلى نتائج تحدد مقاصده.

٣- اختبار إرادي:

الله يقصد أن يعمل أشياء معينة، وكل ما يعمله «... إنما يكون حسب مسرته» (أف ١: ٩-١١)، وقد عُومل الإنسان باعتباره كائنًا مسئولاً قادرًا على تحديد الاتجاه واتباعه، وفي (فيلبي٢ :١٢- ١٣) قيل لنا:« لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا»، فهو (وضع الاتجاه) وأن «تعملوا» أي اتباع ذلك الاتجاه. وكل من الله والإنسان يستطيع اختيار أهداف معينة ليتبعها، واختيار أعمالاً معينة وُضِعَت لتحقيق هذه الأهداف «الأشخاص بوسعهم أن يختاروا بشكل إرادي».

٤- اختبارات عاطفية:

شعر ربنا يسوع بالحزن حين مات لعازر (يوحنا ١١: ٣٣-٣٦)، وغضب عندما ما حوَّلوا الهيكل إلى ركن للتجارة (يو٢: ١٤-١٧)، وهو يشعر بالرضا ويُسَر عندما نصنع مشيئته (عب ١٣: ٢١)، وفيما يتفاعل الله مع عالمه فإنه يختبر العواطف. لقد جلس نحميا وبكى حين سمع أن أسوار أورشليم قد تهدمت (نح ١: ١٤)، وأيوب في خضم صراعاته قال: «... أمعائي تغلي ...» (أيوب ٣٠: ٢٧)، وتحدث بولس عن نفسه بأنه «متحير» (٢كو ٤: ٨)، وفيما يتعامل الناس مع العالم فكل ما يصطدمون به يثير مشاعرهم.

وكل من الله والإنسان تعمل فيه مشاعره عند تعامله مع العالم؛ وعلى ذلك أقترح أن تُعرَّف صورة الله على أساس أربع قدرات هي:

- يتوق بشدة إلى شيء شخصاني.
- يقيِّم ما يحدث بطريقة عقلانية.
- يتبع بمشيئته اتجاهًا يختاره بنفسه.
- يختبر عالمه عاطفيًا.

والله لديه القدرة على أن يشتاق إلى ما يشعره بفرح عميق، وهكذا الأمر أيضًا

بالنسبة لنا. الله لديه القدرة على تأمل عالمه وتقييمه، وهكذا نحن أيضًا. الله له القدرة على أن يختار اتجاهًا ويتحرك على أساسه، وهكذا نحن أيضًا. والله لديه القدرة على أن يختبر المشاعر وهو واع بذاته، وهكذا نحن أيضًا. ويجب أن نتذكر طوال مناقشتنا لهذه العناصر الأربعة، أن الله كائن مستقل بذاته تمامًا؛ فهو لا يحتاج إلى أحد ولا إلى شيء لكي يعمل بفاعلية بكل قدراته، وعلى صعيد آخر نحن كائنات تعتمد تمامًا على الله، ولكي نستخدم قدراتنا، بل ولكي نستخدمها حتى بأقل درجة من الفاعلية، فإننا نحتاج إلى مساعدة خارجية فنحن لا نتمتع باكتفاء ذاتي في أنفسنا، سواء من ناحية وجودنا المادي أو من ناحية وجودنا الشخصي، وجوهر الخطية - كما سنعرض لذلك لاحقًا - هو رفض الاعتراف باتكالنا على الله، وادّعاؤنا بغطرسة وحماقة بالاستقلال، مع أن هذا الاستقلال ببساطة ليس له وجود.

وخلاصة القول: الله شخص مستقل له القدرة على أن يشتاق ويفكر ويختار ويشعر، والإنسان شخص متكل ولديه نفس القدرات الأربع، وإطار بداية فهمنا للناس يمكن تقديمه الآن ببساطة؛ فكل منا هو:

- كائن شخصاني يشتاق بعمق.
- كائن عقلاني يفكر.
- كائن إرادي يختار.
- كائن عاطفي يشعر.

وسوف نفحص كلاً من هذه القدرات من أجل وضع نظرية شاملة للإنسان يمكن على أساسها الإجابة على السؤال: من أكون أنا؟





الفصل السابع

كائنات تتكل على غيرها
"الناس شخصانيون"



إن استكشاف ما يدور بداخلنا بعمق، يمكن أن يكون مغامرةً مثيرةً، وقد تكون مخيفةً أيضًا، لكن الأمر سيكون مريحًا بالأكثر إذا ما ذهبنا داخل أنفسنا إلا بالقدر الذي يكفي لحل مشاكلنا الملحّة، ولاستعادة الشعور البهيج بأننا في حالة طيبة.

وحين تسوء الأمور وتتطلب نوعًا من التعامل، يشعر معظمنا بشيء من التوتر، وأحيانًا تكون المشكلة كبيرة أو غريبة بشكل يكفي لإثارة مخاوفنا أو قد تثير فزعنا، ومشاعر الاكتئاب التي لا تفسير لها، ونوبات القلق المتكررة والتي لا نعرف من أين تأتي، أو التحفيزات التي يصعب مقاومتها والتي تدفعنا إلى عمل شيء غير عادي أو غير أخلاقي يمكن أن تزعجنا «ما الذي ينتابني؟ هل أوشك أن أفقد عقلي؟» هذه هي الأسئلة التي يطرحها من ينتابهم الفزع، ومعظمنا طرح هذه الأسئلة في وقت أو آخر.

وشعورنا بالمسئولية يدفعنا دائمًا إلى محاولة التعامل مع المشاكل التي تواجهنا أيًا كانت نوعيتها، وحين يندلع التوتر أثناء جدال حاد، أو عندما يشتد غضبنا على زملائنا حتى إننا لا نبالي بحضور اجتماع للجنة، يقوم معظمنا بعمل شيء لمواجهة المشكلة؛ فتجدنا إما نصلي من أجلها، أو نحاول أن نبحثها مع الأشخاص الذين لهم علاقة بها، أو نعمل ما نعتقد أنه الصواب، ولكن بعناد ليس من السهل مواجهته، ونحن نميل إلى تجنب فحص أنفسنا بعمق لتقيم إسهامنا في المشكلة.

لماذا تجري الأمور على هذا النحو؟ لماذا يندر أن نهاجم مشكلة بعزم قوي حتى نصل إلى جذورها؟ هل نشك في أن الأمر سيكون أكثر إيلامًا إذا ما واجهنا جوهر المشكلة مما لو واصلنا تحملها رغم وضوحها؟ لماذا نستقر على مستوى من الفهم والذي

ـ سواء كان صحيحا أم لا ـ يولد فينا شعورًا طيبًا بأننا على الأقل نعمل شيئًا بخصوص مشكلتنا، ولكنه في ذات الوقت يبعد اهتمامنا عن الأجزاء العميقة التي في داخلنا.

دعني أوضح ما أقصده، أخبرني زوج في منتصف العمر ـ في جلسته الثانية الخاصة بالمشورة المتعلقة بالزواج ـ قائلاً: «أعتقد أننا قد حققنا الآن قدرًا من التواصل، لقد كنت على صواب في المرة السابقة حين ذكرت كيف أنني كنت دفاعي، لقد جعلتنا نفكر ولقد حققنا بالفعل بعض التقدم الجيد في الانفتاح على بعضنا البعض، فشكرًا لك لأنك وضعتنا على الطريق الصحيح وأعتقد أن الأمور ستصبح الآن على أفضل حال».

تحولت إلى زوجته وسألتها ما إذا كانت تشاطره تفاؤله، فأجابت ـ وقد أغرقت الدموع عينيها وشابت صوتها مسحة من الحزن والتحفز ـ قائلةً: « آمل ذلك، لكنني لست متأكدةً بأنني أشعر بكل ما كنت أتمنى أن أشعر به، هناك بعض الأمور ليس بمقدوري فحسب أن أقولها له، لأن الفزع سيتملكني»، فنظر إليها زوجها نظرة غضب وهو غير مصدق ما يسمعه.

ورجل آخر ـ وهو قس ـ أراد أن يتحدث عن ابنته المراهقة، والتي تملكتها حالة من الاكتئاب منذ فترة قريبة. كانت درجاتها تتناقص، كما أنها تصاحب أصدقاء غير مرغوب فيهم، وأصبح موقفها تجاه الأمور الروحية فاترًا.

ثم واصل الأب الحديث قائلاً: «أعتقد أن المشكلة الحقيقية تكمن في الضغوط التي تتعرض لها، ذلك أن لديها فكرة سيئة عن نفسها، ولعل ذلك مرده أنها أكثر طولاً من معظم البنات ـ وكانت دائمًا تبدي حساسية تجاه هذا ـ وأعتقد أن هذا جعلها تهتم بقبول المجموعة لها بأكثر مما ينبغي، وخطتنا هي أن نشدد عليها في اختيار من تقضي وقتًا معهن، وأن نجعلها تنخرط بالأكثر مع مجموعة الشابات في كنيستنا، وهي تقول إن هذا جزءًا من موقفها السيئ الآن تجاه الرب، وإني أريد أن أعرف ما إذا كنت تقترح بعض الخطوات الإضافية التي من الممكن أن تفيدنا في هذا الموضوع».

اقترحت عليهما بأنه علينا أن نرقب وعن كثب العلاقات داخل العائلة ـ بما في ذلك علاقة الزوج والزوجة ـ لأن توتر عضو ما كثيرًا ما يعكس نماذج من صعوبة العلاقة بين آخرين، تصلب القس في جلسته أما زوجته ـ التي لم تقل شيئًا أثناء الخمس عشرة دقيقة

الأولى من جلستنا ـ فقد أشاحت بوجهها بعيدًا عنا، وانتهى حديثنا حين تذكر القس اجتماعًا كان لابد وأن يحضره، وحين تساءلت بصوت عال إذا ما كانا لم يشعرا بارتياح لتوقع مناقشة شئون حياتهما العائلية، ابتسم كلاهما وقالا: «كلا ...» فيما كانا يسرعان بالانصراف. ومعظمنا لا يحسن ببساطة ملاحظة أنفسنا والتعليق بأمانة على ما نراه، وغالبًا ما توجد مقاومة لا إرادية للسؤال ما إذا كنا متكبرين، أو مدافعين، أو ممتعضين، أو مذعورين، أو مسيطرين فنحن سرعان ما نشعر بعدم الارتياح حين يقطع أحدهم حديثنا الاجتماعي الرائع، بأن يعرض أن يقدم لنا معلومات مباشرة عن كيفية الحكم على الآخرين، وحتى التعبيرات الواضحة عن المشاعر الحارة التي تنبع من أعماقنا يصعب أحيانًا التعبير عنها بشفاهنا، بل والأكثر صعوبة هو الاستجابة لما يصدر عن الآخرين.

لماذا؟ كلنا يعرف أن شخصية الإنسان غنية ومبهرة، وباعتبار إننا قد خلقنا على صورة الله، نعرف أن هناك الكثير مما يقال عنا أكثر من مجموعة من الردود على تحفيزات خارجية، وأولئك الذين من بيننا ممن يعتقدون أن البشرية قد سقطت في الخطية، لديهم مبرر للاعتقاد بأن الكثير مما يأتي بين المحفز والاستجابة، سيثبت أنه بشع ومنحرف، ونحن أكثر من مجرد آلات أدبية محايدة تعمل طبقًا لقوانين الطبيعة التي يمكن التنبؤ بها. والآلات المكسورة يمكن أن يصلحها التقنيون الذين يعرفون قراءة دليل الإصلاح، ولا معنى لأن نفكر بعمق في الطبيعة الأساسية للثلاجة التي توقفت عن التبريد، عليك فحسب أن تعرف كيف تعمل واكتشف الشيء المكسور، وقم بإصلاحه.

لكن الأمر ليس هكذا بالنسبة للناس؛ فنحن أكثر من أجزاء غير شخصية لنظام ثابت، ولكي تفهم الناس وأن «تصلحهم» عندما ينكسرون، علينا أن نعرف كيف يفكرون، وكيف يشعرون، ويتوجب علينا دراسة الموضوعات المربكة مثل الأهداف والمواقف ونتائج التأثيرات السابقة على تصرفات الراشدين.

والشيء الذي يجب أن يُعمل إذا أردنا أن نفهم الناس، هو الشيء الذي يقاوم بمنتهى الشدة وبصفة خاصة بين المسيحيين، ولقد سمعت ملاحظات مثل: «كل ما تريدون عمله أيها المشيرون هو التحليل النفسي لكل الناس، والناس سيكونون على حال أفضل لو قضوا مزيدًا من الوقت مع كلمة الله، والكف عن التفكير في أنفسهم».

وقد علق منذ فترة بسيطة ماضية أحد أساتذة كلية مسيحية بقوله الممزوج بقدر من العاطفة لطالب يدرس تقديم المشورة، بقوله: «إنني لا أرى حاجة لهذا التشديد على تقديم المشورة في الكنيسة، ذلك أنه إذا عمل الناس ما يقوله الكتاب المقدس فحسب، فإن حياتهم سوف تكتسب قوة».

وبالطبع سيحدث هذا، غير أن مساعدة الناس على عمل ذلك من قلوبهم ومن فكرهم ومن نفسهم، ليس بالأمر السهل. لقد فشل هذا الأستاذ في أن يفهم أن تقديم المشورة ليس سوى جزء من التلمذة، ولم يُقصد بها أن تستبدل الطاعة بالوعي الذاتي، لكن الأكثر من هذا إنه يعكس أيضًا المقاومة العامة لفحص الذات التي انتشرت في مجتمعاتنا المسيحية.

لماذا لا تشكل النظرة العميقة إلى الداخل جزءًا طبيعيًا لكل نمو مسيحي؟ لماذا يتم تجنبها، بل وتتعرض أحيانًا للنقد من قِبَل من يعتبرونها أنانية؟ والسبب - حسب ظني - ببساطة هو الخوف، ذلك أننا نخاف من المجهول، ونخشى أن نفقد السيطرة، ونخشى إفساد وجود مريح، ونخشى مواجهة حقائق غير مريحة عن أنفسنا، ونخشى الارتباك الذي يسلب منا اليقين عند اتخاذ قراراتنا. والكثيرون من الناس عند تلقيهم المشورة اعترفوا كيف كان الفزع ينتابهم عند البداية، وإحدى طالبات المشورة عبرت عن مشاعر العشرات من الآخرين، عندما قالت: «كنت في الواقع أخشى النظر إلى نفسي، كان الفزع يتملّكني من أن أجد بعض الأشياء التي لن أستطيع التعامل معها».

ويعيش معظمنا في خوف غامض من أن شيئًا ما يحدث داخلنا، وإذا ما واجهناه سوف يحطم ذلك القدر من الراحة التي نتمتع بها، ويبدو أن الموقف هو أنه أيًا كانت الأمور، طيبة أم سيئة، من الممكن أن تصير إلى الأسوأ، لذلك يستحسن أن نتركها كما هي، لا تنقب تحت سطح الحياة.

فكر في الأمور الكثيرة جدًا التي دفعنا بها إلى خارج نطاق اهتمامنا، ولعل ذلك مرجعه سطحية العلاقة التي كنا نأمل أن تكون مرضية إلى حد كبير، وأحيانًا يكون الفراغ المؤلم هو الذي يسلب من الحياة بهجتها، ويتركنا في كآبة وظلمة لا يستطيع أحد أن ينيرها.

ولعل ذلك مرده شعورنا الحقيقي نحو أطفالنا، خيبة أملنا من ناحية أن ابنتنا ليست جذابة على نحو خاص، فهي فتاة عادية وليست من النوعية التي تقود الهتافات، أو امتعاضنا من ابننا لأنه لا يتعاون من أجل تحقيق توقعاتنا منه، وليست لدينا الجرأة على الدخول في مكان مظلم، ونشعر بالإثم والخوف بأننا ربما نكون قد خذلنا أولادنا.

وفي أوقات أخرى ننكر الانطباع الذي أخذناه عن زملائنا، بأننا لسنا من الذين يحبهم الآخرون وبين آونة وأخرى يصيبنا المغص بسبب تحفيزنا على القيام بشي فظيع، مثل الإضرار بطفلنا أو الهرب، ولكننا نتظاهر بأنه لا يدور بفكرنا شيء من هذا القبيل. وشخصية الإنسان تعد مستودعًا لأكثر المشاعر والأفكار التي لا تصدق، غير أنه في كثير من الأوساط - وبصفة خاصة الأوساط المسيحية - يبدو أن الرسالة هي: «تجاهل هذا وابعده عن تفكيرك، ركز على المسيح بطريقة تسد الطريق أمام أي إحساس عميق بالذات، وحين تُتّبع هذه النصيحة، تكون النتيجة سلام مثل «سلام النعام» الذي يؤهلنا ألا نقيم علاقة إلا مع أولئك الذين يهربون من الحقيقية مثلنا، وكل واحد رأسه مدفونة في الرمال يمكن أن ينضم إلى شركة الرضا المصطنع، ولكن هذه النوعية من السلام تختلف تمامًا عن سلام الله، ذلك أن سلام الله يستطيع أن يحفظ قلوبنا وعقولنا في سلام فيما نواجه الحقيقية أيًا كانت عن أنفسنا أو عن عالمنا، وإنني على قناعة أن الكثير مما نُعجب به كنضج روحي، ما هو إلا تعديل هش لحياة بُنِيَت كلها على الإنكار، وكثيرون من الناس حالهم على ما يرام لأنهم يرفضون الاعتراف أو التعامل مع أي جزء من الحقيقة يشعرون بأنه قد يكدرهم، ولا سيما تلك الأجزاء التي في داخلهم (الحقيقة الداخلية التي يمكن إنكارها بأكثر من الحقيقة الخارجية).

فهل هذه خطة حكيمة للتعامل مع الحياة؟ وهل هذه وسيلة كتابية لتعزيز الرضا؟ وهل الإنكار أمر طيب؟ وهل كان الرسول بولس يشجّع على شكل من الإنكار، حين أخبرنا ألا نفكر إلا في الأمور الجميلة فقط (في ٤:٨)؟ أم أن الإنكار أمر سيء؟ وقبل أن أطلب منكم أن تتعمقوا في شخصية الإنسان، تستحق هذه النوعية من الأسئلة أن نوليها بعض الانتباه.

يتوجب عليَّ أن أتوخى الحرص في تحديد عباراتي، لأنني أعتقد أنه يوجد شكل جيد من الإنكار، والإنكار المختار ـ هو انسحاب وقتي بعيدًا عن الضغوط بغرض التجديد واستعادة القدرة على التفكير السليم ـ أمر ضروري ومرغوب فيه، وإني لا أعارض القيام بعطلات أو استراحة بين آونة وأخرى من تعب العناية بالمرضى من الأقارب، أو من القيام بدور الأم لثلاثة أطفال تتطلب رعايتهم بذل جهد كبير، أو من استضافة أصدقاء يعانون من الوحدة، ونحن جميعًا نحتاج إلى راحة من المسئوليات المجهدة.

وحين أتكلم عن الإنكار، تجدوني مهتمًا بالفكرة القائلة أن النضج يتأتى من عدم تفكير المرء في نفسه بعمق أكثر من اللازم، ودعوة المسيح أن ننكر أنفسنا تؤخذ في بعض الأحيان على أنها تعني إنه لا ينبغي علينا قضاء وقت في محاولة فهم ما يدور داخلنا، وإذا شعرنا بإحباط لا يجب أن نتساءل ما هي الدوافع أو المشاعر التي ربما يكون لها علاقة بهذا، وما علينا ببساطة سوى أن نقرأ كلمة الله، ونطالب بالوعود المناسبة، وأن نعمل ما طُلب منا عمله. والتفكير في الذات اعتُبِر أمرًا غير صحي، لأنه يركز على الذات وليس على المسيح، ولذلك فهو غير كتابي، والوصول إلى مرحلة النضج بناءً على هذا التفكير، يتطلب منا إنكار الكثير من الأشياء التي بداخلنا.

وهذه النوعية من الإنكار تعد خاطئة لسببين على الأقل:-

١- يسهم في فكرة أن الحل لمشكلة ما، هو أن تدور حولها وليس داخلها، ولذلك فإن موارد الله تصبح نافعة في تجنب المشاكل وليس في حلها.

٢- ويذكر الكتاب المقدس بكل وضوح أن الله زودنا بالقدرة التي تمكننا من استكشاف أعماقنا.

«نفس الإنسان سراج الرب، يفتش كل مخادع البطن» (أمثال ٢٠:٢٧).

والله يريدنا أن نستكشف تلك الأجزاء حتى يسكن الحق في أعماقنا «ها قد سررت بالحق في الباطن، ففي السريرة تعرفني حكمة» (مزمور ٥١:٦). وعلى الرغم من أن قلوبنا خادعة حتى لا تُعرف، غير أن الله يرى كل شي بوضوح، وهو يعطينا أية معرفة يجب أن نعرفها، وذلك من خلال:

(١) كلمته (٢) روحه (٣) شعبه (إر ١٧:٩-١٠، عب ٤:١٢-١٣، عب ٣:١٣).

وعلى ذلك بوسعنا أن نتوقع معرفة تلك الموضوعات المخفية، والتي تعوق نمونا إذا قدّمنا أنفسنا إلى الله في ضعف واتضاع، ولسان كل واحد منا يقول «اختبرني» (مز ١٣٩: ٢٣-٢٤).

وإنها حقيقة فتوجد أخطار ومخاطر حقيقية في نظرنا إلى الداخل عمدًا؛ فقد تنجم عن ذلك خسارة فادحة، فقد ننشغل - بدرجة تصل إلى حد المرض - بأعمالنا الداخلية، حتى إننا نعتبر أنفسنا نموذجًا يجب أن يُدرَّس وليس كحملة صورة يجب أن نطيع، والحقائق المتعلقة بنا، والتي كان يجب أن تكون موضع إدانة لم تثر سوى الخداع والافتنان.

والنظرة العميقة إلى الداخل قد تضعف إحساسنا بالخطية الشخصية - عكس ما كان يجب أن تعمله - وتغذِّي ميولنا الخادعة، وبدلاً من أن يولد إدراكنا بالخطية الماكرة، يمكن لفحص الذات المتواصل أن يؤدي إلى الأنانية التي تتنكر في شكل كفاح مقدس للتعمق مع الرب.

وكتحذير ضد سوء استخدام النظر إلى الداخل، علينا أن نتذكر أن جوهر القداسة هو أن نركّز على الآخرين، وأن نعبد الله بمحبة، وأن نحب الآخرين بشكل يدفعنا إلى العناية بهم والتضحية من أجلهم. أما فحص الذات الذي هو بحسب مشيئة الله، فله نظرة داخلية وإلى الأمام، وعلى الرغم من أن هذا قد يعرضنا لفترة من الألم الداخلي وكراهية الذات، باعتبارها من الحقائق التي سبق إنكارها، إلا أنها تتكشف الآن، ويجب أن يكون هناك التزام باستخدام كل ما يكتشف بحسب مشيئة الله، وأن نتعامل بكل شدة مع كل ما هو خطأ.

والاستبطان يمكن أن يصبح وسيلة لتجنب المسئولية بدلاً من القيام بها، كما يمكنه أن يعزز النزعة السلبية الكئيبة المتشككة، وذلك بأن يذكرنا بالأكثر بحالتنا البائسة وليس بجمال خلصنا - وهذا أمر سيء - وتشجيع الناس على أن ينظروا إلى أنفسهم بأمانة، والتخلي عن الإنكار كوسيلة للتغلب على المشاكل، يحمل قدرًا من المخاطرة؛ فهناك أخطار يجب مواجهتها، ومحاذير يجب توخيها، والإنكار له مجموعة أخطاره؛ فالإصرار بأن نبعد تركيزنا عن أنفسنا، ونركز على يسوع، كثيرًا ما يعكس رغبة من التمتع بمستوى الراحة التي لا يوفرها سوى إنكار الذات.

وتوجد بالطبع راحة في المسيح، ولكنها ليست على الإطلاق راحة تعتمد على التظاهر، ولقد عرف بولس الراحة في المسيح في وسط الآلام التي عرفها واختبرها، سواء على مستوى الصراع الداخلي، أو على مستوى الاضطهاد الخارجي؛ ففرحه لم يكن قائمًا على الإنكار، والنظر إلى يسوع لا يتطلب أبدًا إنكارًا لحقيقية ما يجري حولنا أو في داخلنا، بل ولا يتطلب التقليل من شأن بشاعة بعض أجزاء الحقيقة.

حين هاجمت الحيات اليهود أثناء وجودهم في البرية، كان ذلك مرده بالضبط أنهم نظروا أولاً إلى أنفسهم، حتى أنهم بعد ذلك نظروا إلى الحية النحاسية لمعاونتهم (عد ٢١: ٤-٩)، ومعرفتنا بمحنتنا الرهيبة يتولد عندنا تحفيز عاجل بأن نبعد تركيزنا عن أنفسنا، وأن نتجه نحو الاعتماد على يسوع، إنه أمر حسن أن نعرف حقيقة أنفسنا. ولعله بمقدوري أن ألخص تفكيري في عبارة واحدة: «الغرض الأساسي من فحص الذات هو أن نتعلم الاتكال على الرب»، وطالما اعتقدنا أن حل مشاكلنا موجود في يدنا، يظل التزامنا الطبيعي بالاستقلال قويًا، وهذه هي طبيعة الإنسان الساقط. ولكن حين يتملّكنا إحساس غامر بالعجز في مواجهة أمور لا نستطيع ببساطة مواجهتها، تهتز بقوة ثقتنا الذاتية التي أسأنا استخدامها، والثقة في اتكالنا تصبح خيارًا جذابًا.

والمشورة الكتابية تتضمن كشف ما كان مخفيًا بعمق من أجل تعزيز الاتكال، ولذلك فإنه أمر حسن وضروري للنمو الروحي الحقيقي أن نواجه ما كنا نميل إلى إنكاره. ونحن نعتقد إنه بمقدورنا أن نجعل للحياة مغزى دون أن نجعل الله مركزًا لحياتنا، ولكننا لا نستطيع ذلك، ورغم ذلك نظن أنه بإمكاننا القيام بذلك، وهذا هو السبب في أن الله وصفنا «بالجهل» (١كو ١: ٢٠). نحن نؤمن بشيء خاطيء وسخيف، ولا يصدق، ومناف للعقل والمهمة العظيمة الخاصة بتحويل عواقب السقوط إلى عكسها تتطلب منا دراسة أنفسنا، وبمقدورنا أن نحكم ما إذا كنا نرى الأمور بوضوح بروح الاتكال التي تنجم عن ذلك، وكلما رأينا أنفسنا بدقة زاد إدراكنا بحاجتنا إلى الاتكال على الرب.

لكن هذا هو بالضبط ما ألزمنا أنفسنا بتجنبه، ذلك أن اعترافنا بأننا عالة، يثير فينا الخوف من الضعف التام، وعن عدم سيطرتنا على مقاليد أمورنا إلى درجة نطلب معها أن نسيطر نحن عليها.

وفيما نستكشف جوهر كياننا الشخصي، علينا أن نتوقع أننا سنشعر بالمقاومة والارتباك، لأننا سنواجه أشياء يصعب مواجهتها لأنها تؤلم وتبكت.

كياننا الداخلي

في (يوحنا ٧: ٣٧-٣٨) دعا يسوع كل العطاش إلى أن يقبلوا إليه، ووعد أولئك الذين يقبلون إليه بأنه سيملأ جزءًا أساسيًا بالحياة، وهذا أمر فريد، مشبع تمامًا، ودائمًا، ولا يتوفر إلا فيه.

«إن عطش أحد فليقبل إليّ ويشرب، من آمن بي كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حي»

وتلك الحياة ـ كما قال يسوع ـ ستنفذ إلى قلب كياننا، وهناك في قلب شخصيتنا البشرية يوجد شيء أسماه يسوع كياننا الذي في عمق أعماقنا، وهو جزء عميق في داخلنا ستجري منه أنهار ماء واهب الحياة.

والكلمة التي استخدمها يسوع (الكلمة اليونانية koilia)، والتي ترجمتها بعض الترجمات إلى «بطن»، تعني حرفيًا مكانًا منطوقًا أو تجويفًا، ويمكن أن يُقصد بها المعدة أو البطن كما في (متى ١٢: ٤٠) حيث ذكر أن يونان كان في بطن الحوت ثلاثة أيام، لكن الكلمة نفسها يمكن استخدامها في تشبيه مجازي لتعني مكانًا مجوفًا خاليًا يتلهف بشدة إلى أن يمتلئ، وكل منا لديه ما أحب أن اسميه (قلبًا أجوف) في شخصيتنا، وهو جزء رئيسي خالٍ، لكنه يتلهف إلى الامتلاء.

وإذا ما امتلأ هذا القلب الأجوف، تجدنا نختبر إحساسًا عميقًا بالكمال، وبفرح لا ينطق به، وقناعة قوية بأن للحياة معنى، وأننا نؤدي واجبنا، وأن ما نعمله له أهمية، ولكن عندما يكون القلب الأجوف خاليًا ـ أو بمعنى أدق حين نشعر نحن بالفراغ ـ توجد طرق لإخماد هذا الإحساس، هنا تتمزق نفوسنا بألم لا يُحتمل، وينتابنا شعور قاسي بالوحدة يطلب الخلاص، وإحساس رهيب بأنه ليس هناك هدف، الأمر الذي يشلنا بالغضب والإحباط.

والرب يتعامل مباشرة مع هذا الألم الدفين الذي في قلوبنا، حيث يعد بأن يعمل لنا ما لا يستطيع أي خبير نفسي أن يحلم في يوم من الأيام أن يعمله؛ ذلك أن يسوع

يقدم لنا شيئًا عميقًا وكاملاً، ودائمًا يؤكد هويتنا، وفى ذات الوقت يحررنا من الأنانية، يسوع يقدم الحياة قلبًا كاملاً. وإنه لأمر مأساوي ومحزن أن الكثيرين جدًا ممن يقولون أنهم مسيحيون، يرددون تسابيح الحمد، وهم يشعرون بملء لكنه ملء مزيف، الغرض منه إقناع أنفسهم والآخرين بأنهم على أفضل ما يرام، والواقع إنه لا يوجد سوى القليل جدًا من واقعية الحياة، سواء في مجتمعاتنا المسيحية، أو في قلوب المؤمنين.

وهناك فقرتان أخريتان تلقيان ضوءًا مهمًا على القلب الأجوف وكيف يعمل، ذلك أن ما جاء في (رومية ١٦:١٨) يتكلم عن أناس هم عبيد ليس للمسيح بل لكيانهم الداخلي (koilia)، وفي رسالة (فيلبي ٣:١٩) يحذر الرسول بولس من أعداء الصليب، الذين إلههم هو بطنهم أو كيانهم الداخلي، وهنا أيضًا يستخدم نفس الكلمة.

ومن الواضح أن هذا البعد في شخصيتنا يعد قوةً يجب أخذها في الحسبان، فإما أنه المكان الذي يملأنا فيه روح الله بحياة نشطة وثرية، وإما أن يصبح قوة وحشية تتحكم دون هوادة في الاتجاه الأساسي لحياتنا، وحين يتم تجاهل دعوة يسوع بأن نقبل إليه، نصبح أخيرًا أناسًا مسوقين، نكرس أنفسنا في يأس لبحث عن الامتلاء لا طائل من ورائه.

والطبيعة سواء كانت مادية أو شخصية، تكره الخواء، والخواء الداخلي يصبح قوة كاسحة طاغية تدفع الناس للتضحية بأي شيء، وحتى بهويتهم في آخر المطاف بحثًا عن أنفسهم. والبحث عن الهوية أمر صحيح، وحملة الصورة جُعل لهم أن يتمتعوا بهويتهم الكاملة كأشخاص سعداء ينتمون إلى الله، وعلى الرغم من ذلك فإن حاملي الصورة الخطاة هم أغبياء بدرجة لا تصدق؛ نحن نبحث عن الملء في كل مكان، ما عدا في المكان الذي يمكن أن يوجد فيه، وما من أحد يطلب الرب، ونحن جميعًا نشرب من آبار مشققة لا تضبط ماء (إر ٢ :١٣)، والنتيجة هي حياة نحياها بالكامل في خدمة أنفسنا، وسعي أحمق وراء كل ما يقدم رجاء الامتلاء.

وكل ما يفعله الناس يتحرك في اتجاه مختار، والسلوك ليس ساكنًا على الإطلاق، بل نشط فعال دائمًا، والسلوك هو دائمًا سلوك في حركة، ونحن جميعًا نذهب وراء أي شي نعتقد أنه يعطينا ما نريد. ولكي نفهم الناس بعمق، يتعين علينا أن ندرك الآتي:-

- كل سلوك يتحرك في اتجاه هدف منشود.

• بدون أن يملأ ملء المسيح كياننا الداخلي، تجدنا متحفزين للتحرك نحو أي اتجاه مهما كان، معتقدين أنه سيخلصنا من الخواء الذي نشعر به في قلبنا الأجوف.

ونموذج المشورة الذي يفشل في التعامل بجدية مع القلب الأجوف - وذلك بتعزيز إدراك قوي بفراغه، وبتقديمه بكل وضوح الطريق المسيحي (والوحيد) إلى الملء - يُعد غير كتابي ويمكن التخلص من الأعراض، والمشاعر يمكن أن تصبح مسرة بالأكثر، ويمكن التمتع بشعور مضاد بأننا على أفضل حال، لكن إن ظلت الحقيقية المرعبة المتمثلة في بقاء القلب الأجوف دونما تغيير، يظل طالب المشورة عبدًا للإله الذي يعبده، وهو تطلعاته للإشباع، ويتوجب علينا مهاجمة المشكلة الرئيسة في شخصية الإنسان، والتي هي المجرم الحقيقي الذي وراء كل ما هو غير عضوي، والذي كان السبب في المحنة الإنسانية هو عزم ثابت على البقاء بمعزل عن الله، ورغبة مع ذلك أن تسير دفة الحياة بنجاح.

والمشورة الكتابية تتعامل مع الإنكار المتغطرس للإنسان بشأن اتكاله، وتأتي به إلى أن يدرك الحق من ناحية اتكاله الكامل، وذلك بنزع كل تظاهر بالاستقلال وهي عملية مؤلمة لابد منها، إذا كان المطلوب تحقيق نضج حقيقي. والتخلص من السيطرة على الأسلوب الذي ينال رضاءنا أمر مخيف، لأن هذا يضعنا في مجابهة خواء كامل ما لم يدخل شخص أخر، والإنسان الساقط في الخطية يفضّل الاحتفاظ بسيطرته على مصيره، وعلى الرغم من عجزه بدلاً من الثقة في عدم يقينية أنه أمين وصالح.

والمشاكل العاطفية التي نختبرها نحن البشر لها جذور أخلاقية، وعلى الرغم من أنها في معظم الحالات ليست نتائج خطية مباشرة متعمدة، غير أنه بمقدورنا أن نجد أساسها في التزام مدى الحياة - وكثيرًا ما يكون دون وعى - بالاعتماد على جهودنا لحماية أنفسنا من الشعور بألم (القلب الأجوف) وإلى أن نسحب الأغطية التي تخفي الجوهر الأخلاقي لمشاكلنا، لن نكون قد تعاملنا مع الموضوعات الحقيقية المسئولة عن آلام البشر.

وإلى هنا اكتشف بحثنا في داخلنا «قلبًا أجوف» وتطلُّعًا إلى الشبع يدفعنا إما أن نعود في أتضاع متكلين على المسيح، وإما أن نعتمد في غطرسة على مواردنا نحن لنجد الشبع.

والسؤال التالي واضح: ما الذي نتطلع إليه بالضبط؟ وما الفراغ الخاص «بالقلب الأجوف»؟ وما الذي يملأه؟ والإجابة نجدها في المفهوم الثاني الذي توصلت إليه، وهو العطش الذي في نفوسنا.

نفوسنا العطشى

الكتاب المقدس مليء بالخيوط المفردة، والتي نسجت معًا على صفحاته لتكون من خليط الألوان المبعثرة المتفرقة، نسيجًا مزدانًا بالرسوم والصور الجميلة، والخيوط التي من قبيل «كهنوت»، «تضحية»، «عرش داود» توفر دراسة مثيرة ونافعة، وهذا خيط - بحسب تفكيري - يستحق اهتمامًا أكثر مما يلقاه الآن، وهذا الخيط هو مفهوم «العطش». وكتبة الأسفار المقدسة يكررون المرة تلو الأخرى فكرة أن الناس عطشى، تأمل البعض فحسب من الفقرات الكثيرة التي تتخذ من عطش نفوسنا موضوعها الرئيسي:

«كما يشتاق الإيل إلى جداول المياه، هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله» (مز ٤٢: ١).

وكلمة «يشتاق»، يُستشف منها تطلُّع عميق إلى شيء تهفو إليه النفس البشرية يماثل في شدة الحاجة إليه لهفة الحيوان إلى الماء أثناء فترة جفاف طال أمدها، والفكرة الواضحة هنا هي أن الناس يتشوقون إلى الحياة، حياة ثرية مشبعة، وإلى واقع داخلي يتجاوز - إلى حد بعيد - مجرد البقاء. «أيها العطاش جميعًا هلموا إلى المياه، والذي ليس له فضة تعالوا اشتروا وكلوا... كلوا الطيب، ولتتلذذ بالدسم أنفسكم... اسمعوا فتحيا أنفسكم» (إش ٥٥: ١-٣).

نشعر بحزن في الكلمة البسيطة «أيها»، حزن على الناس الذين لا يأتون إلى الينبوع، ويُلاحظ أن المعاشرة التي تطلب المجيء تتطلب إدراك المرء مسبقًا بعطشه، وهذا مفاده أن رغبتنا في معرفة الله والتمتع به، تتوقف على معرفة أليمة بما ينقصنا، ويجب أن نتذكر أن العطش لم يكن على الإطلاق أمرًا مسرًا، إن الشرب (وتوقعه) هو الذي نتمتع به؛ وعلى ذلك فإنه من الصواب أن نعزز إدراك ما نهفو إليه، ولكننا لا نملكه، وذلك لتقوية رغبتنا في الرب، وحين يتنسم الطفل الجائع رائحة فطيرة تفاح خُبِزَت للتو، تراه يهمل اهتمامه بلعب الكرة ويسرع إلى البيت.

لاحظ أيضًا أنه في الفقرة التي اقتُبسَت من سفر إشعياء، تم تشجيع الناس على أن

يهملوا كل ما من شأنه عدم إشباعهم، وأن يتلذذوا بإمداد وافر من ذاك الذي يجلب لهم فرحًا حقيقيًا.

وللوهلة الأولى، يبدو لنا أن هذا يتناقض مع عشرات الوصايا الكتابية التي تحثنا على أن نقدم مصالح الآخرين على مصالحنا، والكتاب المقدس يعترف بأننا نتلهف بشدة لإشباع احتياجاتنا دون أن يلمّح إطلاقًا إلى توبيخنا لشعورنا بهذه الرغبات، وعلينا أن نقولها صراحة: «ليس من الخطأ أن نرغب في أن يملأ الفرح العميق نفوسنا؛ فالاشتياق إلى السعادة لا يحولنا إلى أشخاص أنانيين، وإنكار الذات لا يتطلب منا أن نتوقف عن الاهتمام باحتياجاتنا، سواء كنا سعداء أو لم نكن، أو أنه يجب علينا بشكل ما أن نترفع عن الاهتمام بما فيه خيرنا».

والأنانية والشعور بالاكتفاء الذاتي والانغماس في الأهواء، لها جذورها ليس في ما تهفو إليه نفوسنا، بل بالأحرى في تصميمنا وغطرستنا على التصرف بمعزل عن الله في بحثنا عن الشبع؛ ففي (إرميا ٢: ١٣) لم يدن النبي الناس لعطشهم، بل لموقفهم المتكبر واعتقادهم في كفايتهم الذاتية والتي نفهمها في حفرهم الآبار لأنفسهم.

«فقال لهم يسوع: «أنا هو خبز الحياة. من يُقبل إليَّ فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبدًا» (يوحنا ٦: ٣٥).

ويسوع لم يدن جوعنا وعطشنا، ولم يعتبره توجهًا ذاتيًا أنانيًا، بل على النقيض من ذلك استند إليه كمبرر قوي للمجيء إليه كما في (يوحنا ٧: ٣٧-٣٨)، وهو يدعونا إلى ترك كل الطرق الأخرى التي تعدنا بالفرح، وأن نُقبِل إليه لإشباع كل ما تشتهيه قلوبنا. وكل الطرق الزائفة التي تزعم أنها تؤدي إلى الفرح - وهذا ما يجب ملاحظته - لها شيء واحد مشترك فيما بينها؛ وهو أنها تقدّم استراتيجيات للعيش بمقدورنا - إلى حد ما - أن نسيطر عليها؛ فهي لا تطلب منا أن نستغني عن التزامنا القلبي بالاستقلال، ورسالة الله ثابتة: «الاتكال الكامل عليه هو الطريق إلى الشبع».

اسمحوا لي أن أوجز بعض الأفكار، في كل «حامل صورة» ساقط في الخطية نجد «قلبًا أجوفًا»، وهذا القلب هو مركز العطش، كما أن حلق الإيل الجاف، هو المكان الذي يشتاق إلى المياه، والقلب الأجوف يشير إلى العطش الشخصي العميق، وهو تلهُّف إلى

شيء ليس بمقدورنا إشباعه في أنفسنا ومن أنفسنا؛ وعلى ذلك يتعين علينا أن نسأل ما الذي نشتاق إليه بالضبط؟

ما الذي نعطش إليه؟

إذا وُجِّه العطشى إلى حيث يجدون الخلاص من ألم العطش، وإذا أراد يسوع أن يحررنا لكي نعيش من أجله بإرواء هذا العطش، فإنه يبدو من الطبيعي إذن أن نتساءل: «ما هذا الشيء الذي نحن جميعًا في أشد الحاجة إليه؟» وعلى الرغم من ذلك يبدو أن الكتاب لم يتطرق إلى هذا الموضوع؛ فلم يكتب بولس رسالة لأية كنيسة محلية ليوضح لها الارتباك الذي حدث بالنسبة لما كان يقصده الرب من دعوته للعطاش أن يُقبلوا إليه. فالعطش لم يُعط له تعريف على الإطلاق، ما الذي عسانا نفعله إذن؟

الإجابة تعتمد على طريقة تعاملنا مع الكتاب المقدس؛ إذا سمحنا لأنفسنا أن نطرح فقط الأسئلة التي يجيب عليها الكتاب المقدس بوضوح، فعلينا أن نطرح جانبًا الأسئلة المتعلقة بالعطش، وننتقل إلى موضوعات أخرى، وإذا اعتبرنا أن الكتاب المقدس كافيًا لإرشادنا فيما يتعلق ببعض الأسئلة المشروعة، فإننا سنغلق الكتاب المقدس ونواصل حيرتنا حول طبيعة عطشنا، وفي هذه الحالة ترانا نعتمد على:

١- المعلومات التي ربما نكون قد جمعناها من الملاحظات الموسَّعة.

٢- قدرتنا على التفكير الواضح، إلى جانب القدرة على الابتكار والتخمين الصحيح، والتي تساعدنا على أن نفهم ما نلاحظه، والمحصلة قد تكون مجموعة من النتائج المعقولة، والتي تظل برغم ذلك غير مؤكدة تمامًا عن هذا الشيء الغريب، ولو أنه صحيح والذي نسميه «العطش».

وهناك خيار آخر إذا نظرنا إلى الكتاب المقدس على أنه إطار كاف للإجابة على كل سؤال مهم عن الناس، هنا سنتأمل طويلاً وبجهد في طبيعة عطشنا، ونستمد المعاني المتضمنة في البيانات الكتابية، ونظل دائمًا داخل الحدود التي يعرضها الكتاب المقدس.

وفي إطار هذا المفهوم - الذي شُرح في الفصلين الرابع والخامس - دعوني أضع مسودة لإجابة كتابية عن السؤال: «ما الذي نعطش إليه؟» وأود أولاً أن أوجز تفكيري لأبيّن إلى أين سأتوجه، ثم أعرض حجتين بمزيد من التفصيل.

بالنظر إلى أن الله بطبيعته كائن «علاقاتي»، يوجد ثلاثة أقانيم في اللاهوت، يستطيعون التمتع بالعلاقات المتبادلة فيما بينهم، فإن الإنسان الذي خُلق ليكون على صورة الله، هو أيضًا كائن علاقاتي؛ فقد جُبلنا لتكون لنا علاقة مع الله ومع الآخرين، وهذا يعني أنه في أكبر جزء أساسي من كياننا، نتطلع إلى التمتع بما رُسم لنا أن نختبره، نحن نتطلع إلى «علاقة».

والله - بالطبع - أكبر من مجرد كائن علاقاتي؛ فهو أيضًا كائن له أغراضه، والذي يتحرك - وهو معصوم من الخطأ - تجاه غاية سبق وحددها. والتاريخ له اتجاه، وهو يتحرك تجاه نتيجة حددها الله. وعلى الرغم من أن الخطية قد أفسدت التصميم الأصلي الذي كان يجب أن تسير عليه الأمور، إلا أن الله يعمل على استعادة النظام الذي كان في قصده دائمًا، وقد خُلقنا لنكون جزءًا من خطة الله، ونحن في المسيح خُلقنا ثانيةً للاشتراك في حملة التطهير، ولقد خلقنا ولنا قدرة على التحرك في اتجاه لغرض معين، وهو أن نشارك الله في مقاصده ونحن أكبر من أن نكون أجزاءً لا حس لها في نظام سبق وضعه ليحركنا لمصير محتوم؛ وعلى ذلك فإننا في كياننا الداخلي - و كما أقترح - تجدنا نتعطش لأن نكون جزءًا من الخطة الأزلية، أن نحدث في عالمنا فرقًا يبقى على الدوام، نحن نتعطش إلى التأثير.

علاقة وتأثير:

العطش المشروع للنفس البشرية، يشتهي المسيحيون طاعة الله؛ لأن الطاعة هي شرط العلاقة الوثيقة، ونحن نتطلع إلى خدمة الآخرين، ونشعر بكمالنا وصلاحنا حين نفعل ذلك، والخدمة تشبع اشتياقنا إلى التأثير.

والعلاقة والتأثير هما من التطلعات الكامنة في عمق قلوبنا، والتي تجعلنا نشعر باتكالنا على الله، والله - الذي هو مستقل تمامًا - له كفاية في ذاته من ناحية العلاقة والتأثير، وعلى الرغم من ذلك ترانا في حاجة إلى إمكانيات لا نستطيع أن ننتجها أو نوجدها لكي نتمتع بقبول علاقة تقوم على المحبة، ونتمتع أيضًا بقيمة المشاركة في غرض له مغزاه وهدفه.

وحقيقة اتكالنا على الله وضحت تمامًا بعد سقوط آدم في الخطية، كان آدم يعيش في شركة تامة مع الله الذي كان يتكل عليه. ولو كان أحد الملائكة قد توقف في الجنة

ذات مساء وسأله: «يا آدم، هل تشتاق إلى علاقة وتأثير؟» فإنني أعتقد أن آدم كان سينظر إليه في حيرة ويقول: « لا أعرف بالضبط ما تعنيه، فأنا لدى الله، فما الذي أريده أكثر من ذلك؟!»

ولكن عندما قاطع الله آدم بسبب الخطية، فإن القدرة التي كان يتمتع بها آدم، والتي كانت تمكنه من التمتع بالله، أصبحت - على حين غرة - جوفاء، الجزء الجوهري أصبح خاويًا، ومن عمق أعماقه كان آدم يشتهي الملء الذي فقده، ولكن بسبب عقله المظلم بحث عنه في كل مكان ما عدا الله.

وقبل السقوط كان آدم يتكل على الله، ولكنه كان كاملاً؛ وعلى ذلك كان قانعًا راضيًا، وبعد سقوطه في الخطية، تجسدت حقيقة اتكاله في شعوره ينقصه بعيدًا عن الله، كان يشعر بخواء واشتياق للعلاقة والتأثير - على الرغم من أنهما في حد ذاتهما لا يشكلان خطية - ما كان سيشعر بهما إطلاقًا لو لم تكن الخطية قد قطعت شركته مع الله، وجميع نسل آدم سيناضلون من التذكرة الكئيبة التي تذكّرنا باتكالنا، هناك مكان جوهري أصبح خاويًا بسبب انفصالنا عن الله، الإنسان الساقط عطشان.

ونحن نتعطش لدفء المحبة الحقيقية وللإثارة الناجمة عن معنى حقيقي، وكلما ذقنا حقيقية اشتياقاتنا زاد إدراكنا لاتكالنا، ولبشاعة بعدنا عن الله، وفرح العلاقة الوثيقة به، وبعد أن تتبعنا مجرى هذا التفكير، دعنا نتأمل عن كثب طبيعة اشتياقاتنا:-

اشتياقاتنا للعلاقة:

لنبدأ بحقيقة أن الله ثالوث قدوس، ثلاثة أقانيم إله واحد، ومن المؤكد أن هذا سر، ولكن هذا السرية رسالة واضحة، هناك علاقة داخل طبيعة الله نفسها، والله كائن شخصي يعيش منذ الأزل في علاقة بين الأقانيم؛ فهو يشكّل مجتمعه الخاص به، وحين قرر الله أن يخلق كائنًا مختلفًا عن الملائكة، وضع خليقته الجديدة وأعطاها قدرة فريدة على الاستجابة لمحبته باختيار الدخول من علاقة معه ومع الكائنات الأخرى المماثلة، لقد خلق الله الإنسان ليكون في علاقة معه ومع الآخرين.

والإنسان في أساسه مخلوق للعلاقات، مثل الأطفال الذين يصرخون من أجل اللبن الذي يغذي حياتهم المادية، كان الناس يتطلعون في يأس إلى نوعية العلاقة التي تنجم عنها السلامة الشخصية. لنتوقف لحظة، إنه لأمر ممكن، بل وشائع جدًا أن نظل بعيدين

عن حقيقية اشتياقاتنا حتى ونحن نناقشها، ووصفنا لهذه الاشتياقات أسهل بكثير جدًا من اختبارها، ولكن هذا لن يجدي، ذلك أن طبيعة اشتياقاتنا تتطلب في حد ذاتها أن نشعر بها حتى نفهمها على نحو صحيح، وما من تعريف أكاديمي يمكنه أن يصف مدى لهفتنا وتوقنا إلى شخص يعتني بنا، وإنني أحث القارئ أن يتقبل فكرة الإحساس الفعلي بهذه الرغبة العميقة القوية.

فكِّر في الأوقات التي خذلك فيها أشخاص مهمون بالنسبة لك، فكر مليًا في الشعور بخيبة الأمل الذي انتابك عندئذ، واسأل نفسك: «ما الذي كنت تريد من ذلك الشخص أن يقوله أو يعمله؟ وما الذي كنت ستشعر به لو أن والدك قال لك بحرارة (إنني أحبك) بدلاً من الانسحاب في جفاء؟ ما الذي كنت ستشعر به لو أن والدتك جاءت تساندك بكل حنان بدلاً من انتقادك بشدة؟» ومن أفضل الطرق التي تجعلك على دراية بتطلعاتك، أن تفكر في أقسى مرة شعرت فيها بخيبة الأمل في علاقاتك بالأشخاص الآخرين الذين لهم أهمية عندك، وفكّر فيما كان يمكن عمله وكان من شأنه أن يفرحك.

دعوني أحاول أن أختصر هذا الاشتياق العميق للعلاقة في تعريف بسيط: «كل واحد منا يتمنى من كل قلبه أن يراه أحد على حقيقته، ويرى عيوبه ومثالبه ومع ذلك يقبله، وبالنظر إلى أنه ما من إنسان آخر بوسعه أن يرانا جميعًا، فإن سحابة من الشك الأليم تعتم على أفضل العلاقات: «ما الذي سيقولونه عني لو عرفوا...؟»».

وفكرة أن يستطيع أحد مواصلة التزامه نحونا بحرارة على الرغم من أن مساوئنا أصبحت مكشوفة بالنسبة له، هي فكرة خيالية، ورغم ذلك نتمنى هذا الاختبار، نحن نشتهي أن نكون في علاقة مع شخص قوي بما فيه الكفاية ليكون مخلصًا، شخص لا تلوث محبته أية ذرة من استغلالنا لمصلحته الشخصية، شخص يريدنا حقًا.

ونحن ـ كحاملي الصورة ـ نتوق إلى علاقة، وكحاملي صورة خطاة، ترانا نبتعد عن الله بحثًا عن هذه العلاقة. ولا عجب أن وصفنا الله بالحماقة، فأن نمر على ينبوع يتدفق منه ماءًا صافيًا باردًا ونحن عطشى، ونذهب بدلاً من ذلك إلى بئر مشقق ليس به سوى مقدار محدد من الماء العكر المليء بالبكتريا، فضلاً عن أنه فاتر فهذا بالطبع غباء.

وحين نلجأ إلى أي شخص غير الله ليشبع اشتياقنا العميق إلى العلاقة، لن نجني سوى خيبة الأمل، وهذا مضمون تمامًا؛ فحتى أفضل الذين في العالم، أو أكثر زوج محب (أو زوجة)، لا يمكنهم أن يعطوني ما أتلهف إليه، محبة نقية وشديدة لا تشوبها شائبة.

وعندما نعتمد على آخرين فلابد وأن نطلب منهم الاستجابة لكل ما نطلبه ونتمناه، وحين يخذلوننا نشعر بالألم والغضب، وهنا نبدأ في استغلال العلاقة لنحفظ أنفسنا من التعرض لمزيد من الأذى، ونعمل في ذات الوقت على أن نستخلص من الآخر المزيد مما نريده، ونتيجة ذلك ستكون البعد والفتور، وهي النتيجة الحتمية للتلاعب بالعلاقة وإساءة استغلالها، والناس الذين قُصد لهم أن يعرفوا فرح العلاقة، لن يشعروا إلا بألم الانفصال والوحدة... يا للتعاسة!

التوق إلى التأثير:

أتذكر حضوري جنازة أحد أساتذة الكلية، وهو شخص كنت أكنّ له احترامًا عظيمًا، وفي العديد من حصص الفلسفة كان يطلب مني أن أتخلى عن المعتقدات التي ورثتها فحسب، وأن أحدد المعتقدات التي يمكن أن أوليها التزامي، كان مفكرًا يتسم بالوضوح، وكان يستمع إلى محاولاتي لشرح الإنجيل، وبقدر علمي لم يكن مسيحيًا مؤمنًا حين مات. وفي الجنازة قال قس الكلية وهو نفسه كان مسيحيًا بالاسم فقط: «أن العدد الكبير من الخريجين والطلبة يشهدون لمآثر الأستاذ الفقيد، والتي من أجلها نكنّ له التقدير والاحترام»، وقد ذكّرنا هذا القس بتأثير ذلك الرجل على حياتنا باستخدامه تشبيها كاد يقلب كياني وهدوئي؛ فقد قال إن حياة الأستاذ كانت مثل سلسلة من آثار خطوات القدم المطبوعة على رمال الزمن، وعلى وجه الخصوص، على حياتنا، والغرض من مجيئنا إلى جنازته هو أن نتأمل في آثار الأقدام عنده، إلى أن تقوم حركة مد وجزر الأيام بطمسها إلى الأبد.

وفيما كنت أستمع لتلك الكلمات، كان كل شيء في داخلي يصرخ، ثم رددت صلاةً في سرّي بأن يكون الواعظ في جنازتي أفضل من ذلك الذي أسمعه الآن، وصليت من أجل أن يستطيع أن يؤكد بأمانة التأثير الدائم في الآخرين الذي أكون قد حققته في حياتي. وكان هناك في أعماقي جزء يثور بعنف من التشبيه المجازي الذي استخدمه

هذا القس، وأحسب أن هذا الجزء هو كياني الداخلي؛ كنت أتعطش إلى معنى، إلى تأثيرات، إلى أهمية.

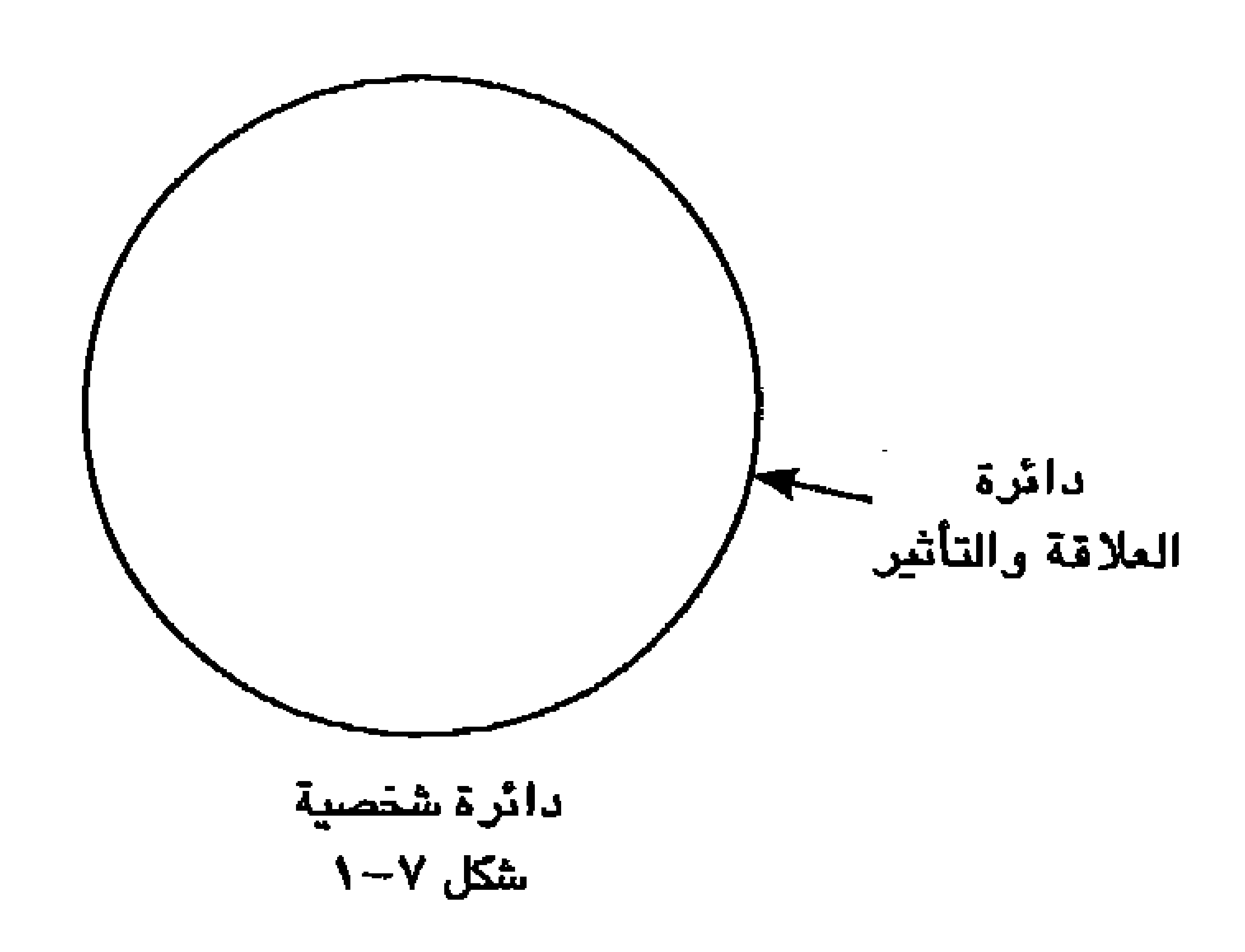
وكل منا يشتهي شيئًا مماثلاً، ولعل كلمة «كفاءة» تصف هذا الشيء، نحن نريد أن نعرف أننا قادرون على أداء عمل يجب عمله، نريد أن نترك تأثيرًا على عالمنا، فرقًا حقيقيًا يتسم بأهميته الدائمة.

ونحن نختبر هذه الرغبة في التأثير بطرق كثيرة؛ فالقيام بفحص سيارة تم علاجها حديثًا بالشمع، أو حديقة الفناء التي تم تشييدها حديثًا، يقدم لنا قدرًا من الرضا المشروع. لقد نجحت لأنني بذلت جهدًا كبيرًا، وتبدو الأمور على نحو أفضل، لقد أحدثت فرقًا، غير أنه توجد مشكلة بالنسبة لمحدودية هذا التأثير.

وملاحظة غاسل الإطباق بأن الأطباق النظيفة سرعان ما تتسخ، قللت من السرور الذي قد نجم عن غسلها؛ فالتأثير قليل الأمر ليس مثيرًا إلى درجة كبيرة، ونحن نريد تأثيرًا يكون هامًا ودائمًا. والتأثير الذي يمتد من الأشياء البسيطة (تشذيب أعشاب الحديقة الصغيرة)، إلى الأمور الأكثر أهمية (نجاح في العمل) أو (الأسرة المتفاهمة)، يقدم درجات مختلفة من الرضا ولكنه لا يكون كافيًا على الإطلاق.

دعوني أضع تعريفًا لهذا التعطش إلى إحداث تأثير على أنه رغبةً في أن يكون لدى المرء الكفاءة للقيام بعمل مهم، أو رغبة في معرفة أننا قادرون على الإمساك بزمام الأمور في عالمنا، وأن نعمل شيئًا قيمًا وحسنًا.

نحن أناس عطاش، ونتلهف إلى علاقة وتأثير، وهذه رغبات لا يستطيع تحقيقها سوى الله وحده، ويمكن وصف هذا المفهوم كما هو مبين في (شكل ٧-١) وتمشيًا مع فكرة المكان الخالي الذي يشتهي أن يُملأ، لنمثل الاشتياق العميق لكياننا الداخلي بدائرة، ولتشر الدائرة إلى قدرتنا أو عطشنا للعلاقة والتأثير، والقلب الخاوي لشخص الإنسان هو قدرة شخصية لم تُملأ.



شكل ٧-١

وبالنظر إلى أننا كائنات نعتمد على غيرنا، تعد قدراتنا كفرص للاكتمال تدفعنا نحو إمكانات خارج نفوسنا، وأنا لست كافيًا بالنسبة لنفس، ولا أستطيع أن أمدها بعلاقة أو تأثير، وبالنظر إلى أننا كائنات خاطئة، أصبحت قدراتنا اشتياقات يائسة يكتنفها خوف من أننا لن نجد إطلاقًا الشبع الذي نريده، ولو لم تسقط البشرية في الخطية، ما كنا سنعرف شيئًا أقل من العلاقة التي لم تقطع مع الله، وخبرتنا المؤثرة كانت ستكون الملء بدلاً من الخواء، الفرح بدلاً من الألم المزمن والعلاقة الكاملة بدلاً من الوحدة.

لكن السقوط قد حدث، وما نجم عن ذلك من خواء قلوبنا يدفعنا إلى محاولة العثور على الامتلاء، ولا نستطيع الهرب من الاشتياق، أما أن نتظاهر بأنه غير موجود، فهذا معناه السماح بطغيانه غير الملحوظ.

وكلنا نسير- بدرجة أو بأخرى - في طرق للإتمام ليس لها علاقة بالله، ولولا تحفيزات الروح القدس ما طلب أحد منا الله. وفي (إرميا ٢: ١٣) يدين النبي شعب الله لاعتماده على آبار مشققة في جهودهم لري عطشهم، أو هي آبار حفروها بأنفسهم لكنها لا تضبط ماءً، وليس من شيء يمكن للبشر أن يعملوه بوسعه أن يحقق الشبع الدائم أبدًا، وعلى الرغم من ذلك ترانا نصر على محاولة تدبير أمور حياتنا بأنفسنا، وهذه الحقيقة تظهر حماقتنا.

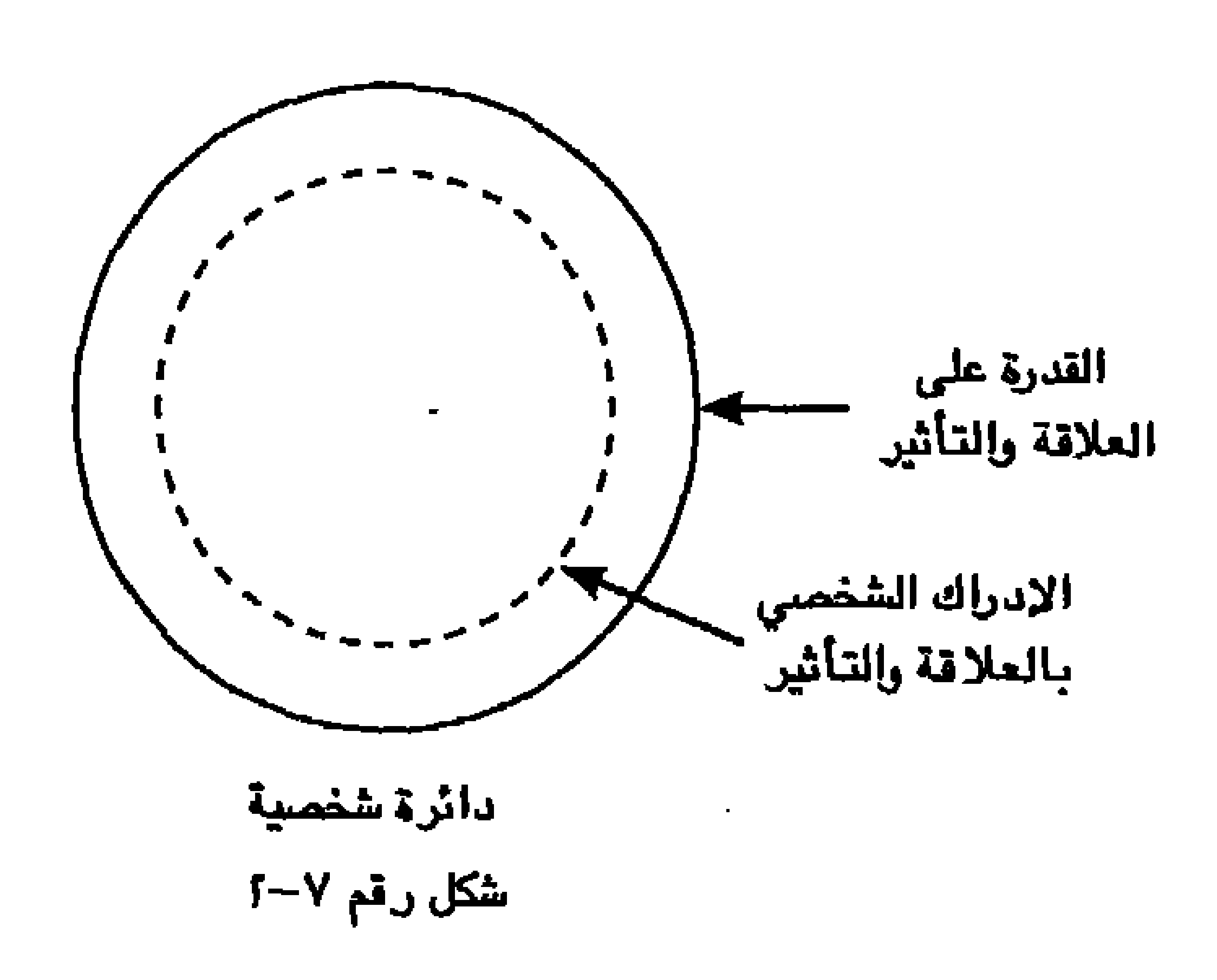
ولكن حماقتنا لا تظهر في الحال؛ فحتى الآبار المشققة بوسعها أن تضبط القليل من الماء لفترة بسيطة على الأقل، والإشباع الوقتي متاح في ملذات الخطية، والتأثير في أحد

الأصدقاء بفطنتنا أو في مجموعة بنضجنا قد يكون أمرًا بهيجًا، والانغماس مع امرأة تزيل عنا الضغط يبدو أفضل من الارتباط بزوجة عنيدة، « دوائرنا الخاصة » يمكن أن تُملأ تمامًا بشكل نسبى إذا وُضِعَت بعض الأمور في وضعها الصحيح.

وهنا أيضًا يمكن أن تساعدنا الدائرة على معرفة مفهوم الملء (شكل ٧-٢) فالدائرة المرسومة بالخط المتقطع تقيس بها الدرجة التي عندها يقول الناس - وهم واعون - إنهم يتمتعون بإحساس بالعلاقة والتأثير، وأساس هذا التمتع قد يكون مشروعًا (الحياة على أساس التخفيزات الإلهية) أو قد يكون غير مشروع (الشرب من آبار محفورة باليد قبل أن يجري فيها ماء).

والشيطان أستاذ في التزييف والكذب، وهو يقدم فرصًا لا حدود لها تقريبًا للشبع غير المشروع، ولو أنه يبدو مقنعًا للغاية، وهو يستغل رغبتنا الملحّة في الثراء السريع ليعمينا عن الفراغ طويل الأمد الذي ينجم عن اتباعه،ولا يوجد ألم أسوأ من الألم الذي ينجم عن دائرة شخصية فارغة.

نحن نشعر بخواء وتفاهة، وأن أحدًا لا يحبنا، وأننا عديمو الفائدة، وهذا الألم يتطلب الخلاص منه، والشيطان يتعاون بحرارة مع حاجتنا بأن يقدم الوسائل التي تجعلنا نشعر بتحسن سريع، وهو يستدرجنا لكي تُستَهلك قوانا بغرض العثور على الراحة، وحين يوقعنا في شباكه سرعان ما نشعر بسطوة العبودية للخطية.



دائرة شخصية

شكل رقم ٧-٢

وعندئذ تصبح الحياة جهدًا للحصول على المحبة والعثور على وسائل للتأثير، والغرض من محبة الله والآخرين، ومهمة تعزيز برنامج الله يتم تجاهله في خضم التركيز الأناني الشخصي على تحقيق إشباع الرغبات.

ويجب أن نتذكر أن الفرح المسيحي يأتي دائمًا نتيجة إتباع المسيح - وهو في حد ذاته ليس غاية - وهو لا يتوفر لأولئك الذين يطلبون الشبع على أساس شروطهم، والله يدعونا إلى أن نختبر الملء ولكن حسب شروطه هو ودون أي جدال، والشخص الذي يحاول أن يملأ دائرته الشخصية، سيفقد حياته فيما يحاول القيام بذلك، وذاك الذي يفقد حياته بإتباعه معرفة المسيح مهما كلفه الأمر، سيجد حلاوة العلاقة والتأثير الذين تتعطش نفسه إليهما.

ويُلاحَظ أن حجم الدائرة الداخلية لا تحدده حقيقة العلاقة والتأثير، بل اختبار الشبع الذي حدث بالفعل. وإذا رسمنا الدائرة الداخلية لتعكس ما هو حقيقي بالفعل، فسوف يُرسَم كل مؤمن مسيحي بدائرة شخصية كاملة؛ فنحن جميعًا موضع محبة وكل منا له أهميته، أما غير المؤمنين فسوف تمثلهم دائرة فارغة، وليس لأحد منهم علاقةً مع الله، ولا يتمتع أحد منهم بدور مختار في خطته. وإنني أحدد حجم الدائرة الداخلية على أسس موضوعيه لسبب بسيط: قد يشعر المؤمنون أنهم غير مطلوبين، وأنهم غير مهمين على الرغم من أنهم ينتمون إلى الله، وقد يشعرون أنهم مطلوبون وأنهم مهمون على أسس غير شرعية، وغير المؤمنين قد يشعرون أنهم غير مطلوبين وغير مهمين (وأحيانًا يكون ذلك نتيجة معرفتهم بحالتهم الحقيقية)، أو قد يشعرون أنهم مطلوبون وأنهم مهمون لأسباب غير شرعية، لا تحتاج إلى الله إطلاقًا، ومدى الاحتمالات تم توضيحه في (شكل ٧-٣).

المؤمنون

١- ملء شرعي

٢- ملء غير شرعي

٣- خواء غير شرعي

غير المؤمنين

٤- ملء غير مشروع

٥- خواء غير مشروع

٦- خواء مشروع

(شكل ٧-٣)

الحالة (١): مؤمن مسيحي ربما كان ينمو في معرفة المسيح كما أنه يتبع بشغف - بكل قدرته - الطريق الذي أوصاه المسيح أن يسير فيه، وفي قلب كيانه - سواء كانت الظروف حسنة أم مؤلمة - تجد إدراكاً بمحبة الله وقصده.

الحالة (٢): مؤمن مسيحي ربما يتبع أشياء ميعتمد خطأ عليها للإشباع (على سبيل المثال: احترام، تقدير، استحسان)، وإذا حقق ذلك سيشعر بالرضا لأنه مقبول وله قيمة، ولكن هذا على أسس غير شرعية لا تتطلب شركة مع المسيح.

الحالة (٣): المؤمن المسيحي في الحالة «٢» قد لا يصل إلى تحقيق أغراضه، وفى هذه الحالة، وعلى الرغم من أنه محبوب من الله وله قيمته عند الله، غير أنه لن يشعر بذلك.

الحالة (٤)؛ غير المؤمنين يتبعون جميعًا طرقًا غير شرعية للوصول إلى الشبع، وحين ينجحون يشعرون بالرضا عن أنفسهم على الأقل إلى درجة ما ولفترة من الزمن.

الحالة (٥)؛ غير المؤمن الذي يفشل في الوصول إلى الغرض الذي يعتقد أن سعادته تتوقف عليه، سوف يشعر بالخواء لأسباب خاطئة.

الحالة (٦)؛ غير المؤمن الذي يدرك أن خواءه كان نتيجة لابد منها لإتباعه أي هدف غير معرفة الله، إنما يختبر خواءً مشروعًا لأنه يتضمن اعترافًا بضرورة الخواء ما لم يعطِ الله الحياة.

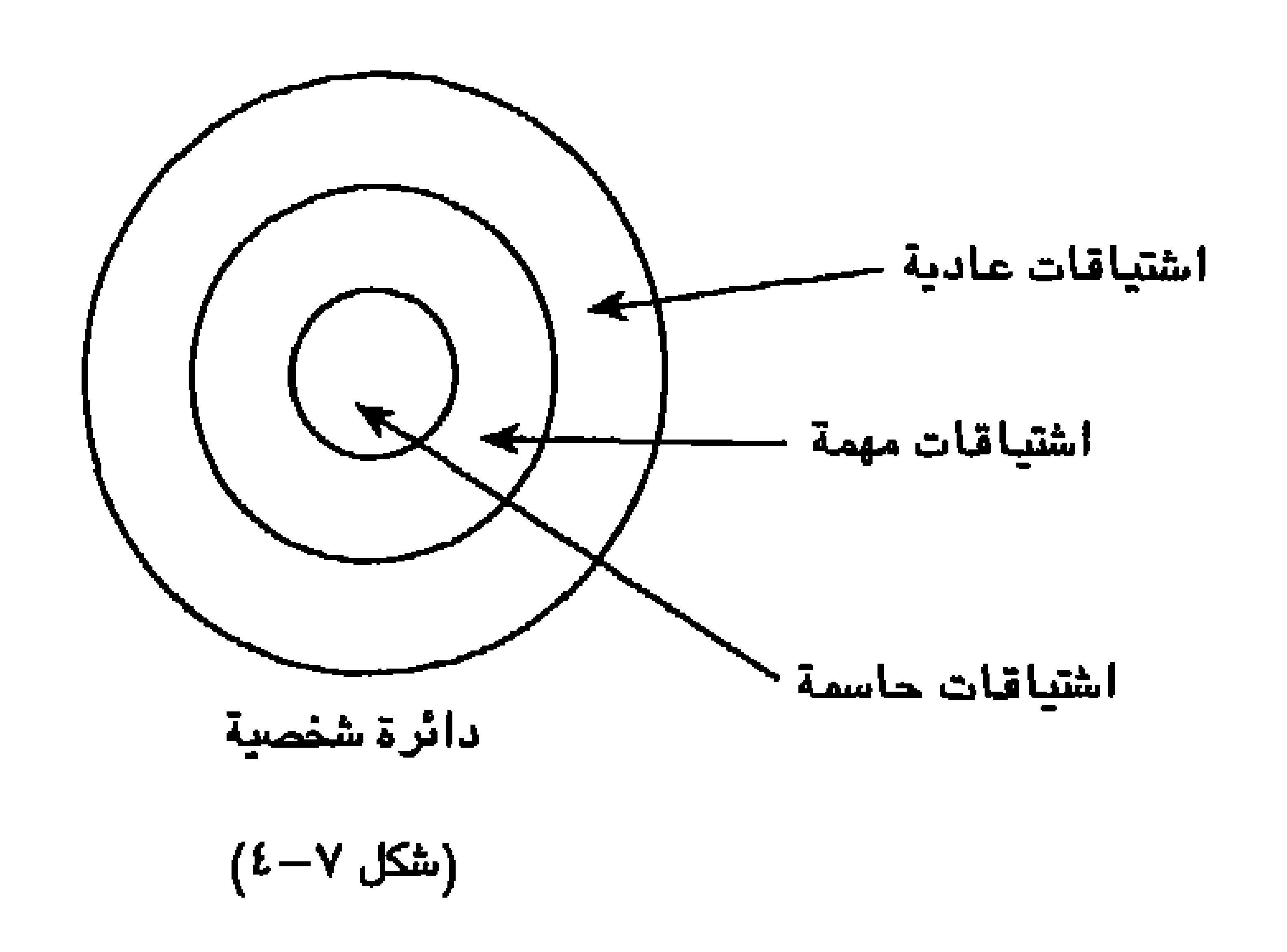
والنقطة الواجب تذكرها هي أن حجم الدائرة الداخلية التي بداخل الدائرة الشخصية لا تقول شيئًا يُذكَر عن حالة الشخص الروحية؛ فالناس قد يكونون ممتلئين أو في خواء مشروع أو في ملء أو خواء غير مشروعين، والقصد من الدائرة الشخصية أن تصف لنا شيئين:

١- ستكون لنا القدرة والاشتياق على اختبار العلاقة والتأثير «الدائرة الخارجية غير المتقطعة».

٢- نحن جميعًا ندرك في أية لحظة - سواء كنا نشعر بإحساس بأننا على خير حال أم لا - أن الإحساس بأننا على خير حال أو عدم وجوده ربما يكون قائمًا على أساس شرعي أو غير شرعي «الدائرة الداخلية المتقطعة».

ويحتاج الأمر إلى مفهوم آخر لإكمال الدوائر الشخصية، لدى الناس توق عظيم لا يمكن إشباعه إلا في المسيح، ونحن أيضًا لدينا اشتياقات أقل عمقًا لكنها اشتياقات حقيقية للغاية لا يشبعها الله مباشرة.

ارسم دائرتين متحدتي المركز حول الدائرة الشخصية (شكل ٧-٤) لتجعل الدائرة الخارجية تشير إلى الاشتياقات العادية، والدائرة الوسطى تشير إلى الاشتياقات الهامة، أما الدائرة الداخلية فتتمثل الدائرة الشخصية تلك الاشتياقات المهمة للعلاقة والتأثير والتي لا يمكن أن يحققها تمامًا سوى الله؛



(شكل ٧-٤)

التطلعات العادية هي الرغبة في أن تكون الأحوال ملائمة، الراحة، والأفضلية الشخصية؛ فنحن نفضل ألا تمطر يوم الإجازة وأن تعمل السيارة دون أن تتعطل، وألا تنتشر الرطوبة في البدروم (الجزء التحتي من المبنى)، وقد تكون هذه رغبات مشروعة نحاول تحقيقها من خلال الصلاة وأية احتياطات يمكن أن نتخذها، غير أنه حين تعتمد سعادتنا على إشباع الاشتياقات العادية تصبح أبعد ما يكون عن رغبات الروح الأكثر عمقًا.

الاشتياقات المهمة:

تتضمن الآمال المشروعة لعلاقات إنسانية عميقة ولتأثير مرئي على عالمنا، نريد أن نرى أقاربنا الذين لم ينالوا الخلاص وهم يقبلون على معرفة المسيح، نريد أن نرى أقاربنا المرضى وهم يستردون صحتهم، نريد أن نرى أطفالنا المعاندين قد عادوا إلى رشدهم، نريد أن نرى شركاء الحياة «الزوج والزوجة» غير المتجاوبين أن يبذلوا بعمق من أنفسهم، نريد أن يبارك الرب الجهود التي تُبذَل في الخدمة، وهذه الاشتياقات لها أهميتها بالنسبة لنا، وهي حقًا مهمة، وإذا لم تتحقق هذه الاشتياقات سيكون لذلك عواقب وخيمة؛ نتألم، نحزن، نشعر بالضرر غير أننا نعود ونقول إنه إذا كان فرحنا يقوم بالكامل على إتباع هذه الاشتياقات الحقيقية ذاتها، لا نكون قد دخلنا إلى إمكانية الحياة مع الله.

اشتياقات مهمة: هي التعطش العميق لكياننا الداخلي، إنه من الخطأ الاعتقاد أن ما يُشبع اشتياقاتنا العادية أو المهمة يمكن بأي حال أن يشبع تمامًا اشتياقات قلوبنا

الجوهرية، والمسيح وحده هو الذي بمقدوره أن يملأ كياننا الداخلي بالفرح، ومعرفة هذه الاشتياقات لا تقلل من الألم الذي تسببه التطلعات التي لم تُشبَع على مستويات أخرى لكنها تدفعنا نحو المسيح في اتكال تام بغض النظر عن أي شيء آخر قد يحدث.

ويمكن استخلاص نتائج عديدة من المفاهيم التي عرض لها هذا الفصل:

١- يناشد الله الناس أن يدخلوا في علاقة معه على أساس تطلعاتهم، وعلى ذلك فإن معرفتنا ما هي اشتياقاتنا واختبارها بعمق أمر مهم، والشخص الذي لا يبالي بتطلعاته لن يُجذَب إلى المصدر الذي يستطيع تحقيقها.

٢- والإنسان إذا ما كان في عقله السليم سيتبع الله باعتباره مصدر الإشباع، لكن الإنسان ليس في صواب، ليس من يطلب الله وهذا الفشل في إتباع الله يعكس حماقة البشر.

٣- كل ما نلجأ إليه لنجد عنده الشبع يصبح إلهنا، وإصرارنا على أن نملأ القلب الخاوي يصبح الطاغية الذي يتحكم فينا، ويُلاحَظ أن كل ما نعتقد خاطئين أنه سيوفر لنا الملء الذي نشتاق إليه، نجعله المحور الذي تدور حوله حياتنا.

٤- الشبع الذي نجده في إله مزيف لابد وأن يؤدي إلى انهيار في العلاقات، نصبح نحن الذين نطلب وليس من يضحون، نشغل فكرنا بأنفسنا بدلاً من الاهتمام بالآخرين (يعقوب ٤: ١-٣)

ملخص

الناس ليسوا مجرد آلات تعمل، أو حاسبات آلية مبرمجة الفكر، أو نظم حسية تشعر، نحن أشخاص، كائنات تتلهف بشدة للإشباع الشخصي، لقد جف حلق نفوسنا، وهو في عطش إلى ماء علاقة المحبة والتأثير الحسن.

ونحن نتلهف بمشروعية لهاتين النوعيتين من الماء، واللتين لا يستطيع أن يعطيهما سوى الله وحده، أما كل شيء آخر فيشبه المياه الغازية الحلوة الفوارة، طعمها لذيذ عند شربها ولكنها لا تروي عطشًا.

وحين نرفض اللجوء إلى الله طلبًا للماء الذي يعطيه هو، تتحول اشتياقاتنا إلى طغاة يستعبدوننا، ويحثوننا على أن نبحث عن الارتواء بأية طريقة ومن أي مكان، والنتيجة هي ترسيخ أنانيتنا وتقوية رغبتنا في انتهاك أي معيار أخلاقي للحصول على ما نرغب فيه، وهنا نفقد قدرتنا على المحبة والعطاء.

وفي المسيح نجد الحرية؛ فهو يقدم لنا شبعًا يحررنا لنستجيب له بالشكر والامتنان، وبالاهتمام بالآخرين وخدمتهم، والحق الكائن فيما يقدمه يحررنا من عبوديتنا لعطشنا ويعطينا القدرة على الحياة من أجل مجد الله.

وإذا كان كل ذلك صحيحًا، فلماذا يسير العطاش إلى جوار بئر ماء الحياة، ومع ذلك يحفرون آبارهم الخاصة، والتي في أفضل حالاتها لا تقدم إلا انتعاشًا وقتيًا؟ هذا أمر لن يكون له معنى، وحتى نفهم كيف أنه قد تم التعتيم على قدرتنا على التفكير، وهذا يأتي بنا إلى المقدرة الثانية الخاصة بالشخصانية، وهي مقدرة عقلانية تم تعتيمها.





الفصل الثامن

المفكرون الحمقى يرون أن "الناس عقلانيون"



ينبغي على المشيرين أن يعرفوا أن المستشيرين عملاء الذين يحاولون مساعدتهم يحملون صورة الله، وليس هناك حقيقة أخرى أكثر أهميةً وضروريةً لفهم الناس على وجه صحيح.

في الفصل السابق وضحت فكرة أن حملة الصورة كائنات علاقاتية كما أن الله علاقاتي، وهو يتمتع تمامًا بعلاقة المحبة بين الأقانيم، ويتطلع إلى التمتع بعلاقة وثيقة مع خلائقه. ولقد وُضعت فينا القدرة على أن نشبع بمحبته، وفى مقابل ذلك نحبه ونحب الآخرين. وذكرت أيضًا أن الله باعتباره كائنًا شخصيًا له أهدافه، بمعنى أنه يضع خطة ثم يتابعها، ونحن - مثله - كائنات لنا أهدافنا نضع خططنا للوصول إلى الأهداف التي حددناها لأنفسنا.

وفي هذه النواحي، نحن نشبه الله؛ فهو شخص له علاقات وله أهداف، وهكذا نحن أيضًا، ولكننا - بالضرورة - لسنا مثله من ناحية واحدة أساسية؛ فهو كائن غير محدود، مكتف بنفسه تمامًا، مستقل تمامًا، لكننا محدودون ونتكل عليه في كل شيء، نحتاج إليه من أجل الحياة - سواء من الناحية المادية أو الشخصية - ونحن ببساطة ليست لدينا موارد داخل نفوسنا، كما أنه ليست لدينا القوة على أن نأمر بالحصول من جهات أخرى على الموارد التي نحتاجها لإقامة علاقات محبة أو لمتابعة خطط مفيدة.

نحن نتكل على الله تمامًا، نعتمد على شخص خارج نفوسنا لكي يعطينا محبةً وسببًا للحياة، وبالنظر إلى أننا خُلِقنا لما لا نملكه - العلاقة والتأثير- فإن طبيعتنا ذاتها تتلهف إلى

نوعية الحياة التي قُدِّر لنا أن نحياها؛ وعلى ذلك نتوق إلى المحبة والغرض. وحين يتكلم المشير مع أحد عملائه، عليه أن يعرف أنه يتعامل مع «حامل صورة»، مع شخص ليس بمقدوره أن يكون حيًا وسعيدًا حقًا ما لم يكن على علاقة بالله، وأن يكون نشطًا وملتزمًا تمامًا بتنفيذ أغراض الله.

وكل « مشكلة شخصية » - أية مشكلة في الحياة لا يكون سببها سوء أداء عضوي - ترجع جذورها الأساسية إلى علاقة مقطوعة مع الله، والتزام بأولوية أسمى من معرفة الله، وإذا كان ذلك صحيحًا، هنا يجب أن تُوضع المشورة من أجل تصحيح العلاقة المكسورة مع الله، وذلك بتعزيز نوعية التوبة التي تؤدي إلى تمتع عميق بالله، وإلى التزام حقيقي بخدمته، غير أن معظم نظريات تقديم المشورة تحاول إحداث تغيير دون أن تتعامل إطلاقًا مع الموضوعات المتعلقة بالتوبة والطاعة، والنظريات القليلة التي تتناول بالفعل هذه الموضوعات تقلص التوبة، فتجعلها قرارًا بسيطًا بالعمل على أن يتناغم سلوك المرء مع المعايير الكتابية، والتوبة العميقة التي تهتم بالولاءات الماكرة المنحرفة لقلب مخادع نادرًا ما يتم تناولها في معظم أساليب تقديم المشورة.

إن أصحاب سيكولوچية الصورة المتكاملة، وأصحاب التعابير الهستيرية البدائيين، ومعالجو فقدان الذاكرة، يعتقدون أن التغيير الحقيقي يحدث حين يختبر الناس الألم تمامًا في الداخل «الإدراك الذاتي»، وقمع الذات وإعادة استخدام الذاكرة للقرينة، كل هذه الأمور تُعد من وسائل العلاج.

والعلاج الديناميكي النفسي يحدد المشكلة على أنها صراع تم إنكاره، ويحتاج الأمر إلى فهمه بوعي ومعالجته بالمواجهة وليس بالهرب من مكونات الصراع، والطريق إلى التغيير هو «البصيرة النيرة» وهذا يحدث حين يتم اختراق الدفاعات إلى درجة يكون الشخص فيها قد تحرر من النتائج خارج السيطرة الناجمة عن إنكار المعركة، ويعتقد المعالجون من ذلك التوجه الوجودي أن شيئًا ما في اللحظة الراهنة يجب فهمه، وأن «الإدراك» هو المفتاح، وبالنسبة للدنيوي ربما يكون إدراك ما يحدث بين شخصين عند تعاملهما معًا، أما بالنسبة للمسيحي فقد يتضمن الأمر بلوغ الذروة في إدراك حقيقة المسيح سواء كان ذلك من خلال اختبار «بركة ثانية»، أو فهم معنى «احسبوا أنفسكم أمواتًا عن الخطية لكن أحياء لله بالمسيح».

وثمة فريق آخر ممن يساعدون الناس، يؤكدون على عادات جديدة من التفكير باعتبارها الطريق إلى التغيير الحقيقي، ومؤيدو التفكير الإيجابي «التفكير في الاحتمالات»، «الموقف الإيجابي العقلي»، «أصحاب التفكير الكتابي» وأصحاب فكر «تأكيد الذات» كل هؤلاء يعلِّمون بأن سيطرة المرء على تفكيره أمر جوهري للنمو الشخصي، وفكرة أننا جميعنا مثل الله من ناحية أنه بوسعنا أن نغير الأشياء بحسب ما نرغب، وبالإيمان العميق بأنفسنا، وبالإصرار على السير في الاتجاه الذي ترسمه أحلامنا، كل هذه أمور أساسية لاتجاه رئيسي من فكر يُطلَق عليه حركة «العصر الجديد»، وفي هذه الأساليب لا تكون الخطية هي الموضوع، وإلا لأعدنا تحديدها على نحو مغاير بأنها فشل في إيمان المرء بنفسه، وتسخير إمكانيات المرء باستخدام القوى الإلهية الكامنة في أعماقنا، وهذا هو الطريق الموعود به إلى السلام والفرح والازدهار. وليس من بين هذه النهج ما يضع التوبة في قلب عملية التغيير، وعلى الرغم من ذلك فإن البعض يؤكدون على أن الخطية هي أساس كل المشاكل الشخصية، ولذلك اتجهوا نحو التوبة والطاعة غير أن الخطية - في غالبية الأحوال - يتم تعريفها بين هؤلاء الناس على أنها ليست سوى سلوك خاطئ ... ولقد قُلِّصَت التوبة إلى مجرد قرار للسلوك بشكل مختلف، ولم تعد الطاعة سوى أنها إصرار على عمل ما هو صواب، وهذه الجهود محمودة وضرورية لكنها فشلت في الوصول إلى المشكلة العميقة والخاصة بقلب شرير مخادع.

وكل من هذه النهج بوسعها أن تدَّعي بحق أن لها درجة من الفعالية، وأحيانًا يكون لها تأثيرها، وكلها تعزز التغيير، وعلى الرغم من ذلك فإن السؤال الحيوي هو: ما نوعية التغيير الذي يروجون له؟ ارتياح ظاهر، شعور قوي بالسعادة، زواج متناغم، أو الشعور بوعي متسع النطاق، وكل هذه يمكن تعزيزها عن طريق تقديم المشورة بخطط مختلفة، ولكن هل هذه النوعيات من التغيير جديرة بحاملي الصورة الذين جُبِلوا للعلاقة والتأثير؟

إنني أعترف بأن المشورة الكتابية يجب أن تهدف إلى نوعية فريدة من التغيير؛ فالخلاص من الاكتئاب والشعور بمزيد من السعادة، الزيجات الأحسن حالاً، ومزيد من السلوكيات الكتابية يجب أن يتضمنها تغيير جدير بحملة الصورة لكنهم لم يحددوه،

وحاملو الصورة يجب أن يتغيروا بطريقة تمكنهم من العبادة والتمتع بشكل وثيق بالله، والانخراط مع الآخر بشكل رحيم ومثمر، والتمتع بالله والتلاحم مع الآخرين أي العلاقات المتحسنة إنما هو التغيير.

وإذا كان لنا أن نفهم تعقيدات التغيير والمصاعب التي تعترضه، يجب أن يتوفر لنا قدر من الفهم بالنسبة للمحصلة النهائية للعملية، دعوني أصف لكم ما يبدو عليه حامل الصورة قد تغير بالفعل، وهو يتغير باستمرار وبعد ذلك بوسعنا التساؤل عن العملية التي أدت إلى هذه النوعية من التغيير، ثم تقييم الاقتراحات الخاصة بتنفيذ ذلك.

أناس أصحاء

الناس الأصحاء يتمتعون بالله بعمق، الأمر الذي يتم التعبير عنه بنوبات من النشوة الوجدانية بين آونة وأخرى يتبعها فترات طويلة من الولاء المتسم بالهدوء؛ فقد استقرت حياتهم فيه، وهم يعرفون أنهم في أعمق أعماقهم قد شعروا بلمسته.

وهذه اللمسة تحررهم بشكل متزايد ليكونوا متلاحمين تمامًا مع الآخرين، وهم أحرار في الدخول إلى حياة الآخرين بشكل صريح ومكشوف دون حماية أو دفاع لأنهم غير مهددين بألم الفشل والصراع الذي لابد وأن يحدث جراء الانخراط المتزايد في أوساط الخطاة، وهذا الألم الذي لابد منه لا يحملهم على التراجع خلف جدران ما هو مناسب: «سأعمل ما هو متوقَّع مني»، أو تقهقر تُضْفَى عليه الصبغة الروحية: «حسنًا، علينا أن نصلي من أجل هذا». والمسيحيون الناضجون لا يتراجعون، بل يزيدون من مستوى انخراطهم، والناس الأسوياء يفهمون بالفعل أهمية التوقيت والحذر وهم يتجهون صوب الناس الذين سيختبرون الصراع معهم، ثم إنهم يعرفون - كقديسين لم يتمجدوا بعد - أن جهودهم في الانخراط مع الناس لا يمكن أن تكون مواعيدها مضبوطة بشكل تام، أو أن حذرهم سيكون دقيقًا، ولكنهم يتجهون نحو الانخراط وليس بعيدًا عنه، والانخراط - وليس الانسحاب - هو أسلوب حياتهم؛ وعلى ذلك فإن حياتهم تتسم بقوة تامة، ثم إن حضورهم ذاته يشعر به أناس قلائل بطريقة تجعلهم يريدون أن يعيشوا في إطار أنبل وأكثر إيثارًا.

وثمة حقيقة أخرى هي أن الناس الأسوياء يختبرون فرحًا تشوبه الشوائب؛ فالحياة بالنسبة لهم يعيشونها في المقام الموسيقي الصغير، لكنهم يتوقعون بلهفة اليوم

الذي سيأتي فيه الموسيقار الأعظم ليعزف فيه النشيد الأبدي في المقام الموسيقي الكبير. والناس الأسوياء ينتابهم الحزن لأنهم يعرفون أن الأمور ليست الآن كما يجب أن تكون، وبرغم ذلك فإنهم لا يعبرون بغضب عن خيبة أملهم في العالم؛ فهم يتطلعون ليوم أفضل واثقين أنه قادم، لكنهم يئنون حتى لحظة مجيئه. والأسوياء لا يخافون من الارتباك؛ لقد تخلوا عن ادِّعائهم الاستقلال والسيطرة، ولذلك يمكنهم أن يتحملوا، بل ويرحبوا بعدم وضوح الرؤيا، فالارتباك يعمق احتمالية أن يقودهم شخص لا تنتابه الحيرة، ويدخلون بحرارة إلى اتكالهم المتأصل فيهم ككائنات محدودة، ويوفر لهم إيمانهم الشجاعة للتحرك في غياب الوضوح.

وهم يناضلون وبعضهم يفشلون، وهم يشعرون بالتجارب بعمق أكثر مما يشعر به غير الأسوياء، ومن آن آخر يستسلمون، غير أنهم يعرفون معنى أن يتوبوا من جوهر كيانهم، وأن يحطموا الأصنام التي كانوا يأملون أن تشبعهم، ويعودون إلى إله الحياة الذي من خلاله تتاح لهم العلاقة والتأثير.

والأسوياء ليسوا استثناء من أعراض المتاعب العاطفية الشائعة، لكن الأعراض لا تتحكم فيهم، أو على الأقل ليس لفترة طويلة، وأحيانًا يشعرون بوحدة قاسية وبألم لا يُحتَمل، وفي تلك الأوقات يبدو وكأنهم يتعاملون مع الحقيقة بأمانة أكثر مما كان عليه الأمر عندما كانوا يشعرون بأنهم على خير حال، ولكنهم يواصلون، مدركين لحقيقة عليهم أن يفهموها من شأنها أن تستبدل الوحدة بالحميمية المشبعة، والألم بالسرور الخالص، وأسلوب تعاملهم مع الله ومع الآخرين مختلف مثل الكتل الثلجية الرقيقة المتساقطة، ولكن هناك شيء واحد مشترك: قدرة متناهية على أن يتأثروا بالله ويؤثروا في الآخرين.

وهذا - كما أراه - تغيير جدير بحامل صورة، وحتى فيما أكتب عن ذلك أجد نفسي في شوق إلى المزيد من هذه النوعية من الحياة، أريد أكثر من مجرد التحرر من الذكريات الأليمة والعواطف المكبوتة، أريد أكثر من أن أعرف كيف تشكلت القوى التي في العقل اللاواعي في سنوات عمري المبكرة، أريد أكثر من نماذج سلوك متغيرة والخلاص من الأعراض الأليمة أريد شركة مع الله والآخرين، إنني أشتاق إلى ذلك كما يشتاق الإيل إلى جداول المياه.

وعلى الرغم من ذلك يبدو أن ما أريده هو من الأمور الشخصية؛ فأناس كثيرون لهم القدرة على التعبير عن مشاعرهم والتمتع بلذات معينة في الحياة، غير أن قليلين جدًا هم الذين يتمتعون بعلاقة عميقة مع الله أو مع الآخرين بطريقة تدفعني إلى غيرة مقدسة.

ما هي المشكلة؟ ما الذي ينبغي عمله لنحرك أنفسنا وآخرين - كل من يتطلعون إلى ما يعطيه الله بالفعل وبسخاء - تجاه مصدر كل ما نرغب فيه؟ ما الذي يحول بيننا وبين التحرك نحوه؟

رؤية سطحية للخطية

المشكلة هي الخطية، والعلاج هو التوبة والثقة والطاعة، غير أنه بقولنا ذلك، نجد أن الجهد اللازم لفهم المشكلة وعلاجها قد بدأ فحسب، ولكي نفهم السبب في أن حاملي الصورة يغفلون عن ينابيع ماء الحياة المنعش ويبحثون عن الارتواء في رمال الصحراء الجافة، فعلينا أن ندرك حماقة الخطية، وأن نفكر بعمق.

ولعل أكبر عقبة أمام فَهْم ما ترمي إليه المشورة الكتابية، هي الفكرة الضعيفة السطحية عن الخطية، اسمحوا لي بأن اقتبس بتوسع من كتاب «فعاليات الحياة الروحية» للمؤلف «ريتشارد لفليس» والاقتباس طويل ولكنه جدير بالاهتمام.

«إبان القرنيين الماضيين تعرض فهم الناس للخطية إلى انخفاض نسبي في الكنسية إلى جانب فهمنا لله، وقد رأى المصلحون أن طبيعة الإنسان الساقط تأثرت في كافة جوانبها بالوجود المشوه للخطية الأصلية، القوة الجبرية التي تعمل خلف أعمال التعدي التي يأتيها الإنسان. ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن للإنسان حرية الإرادة في أن يعمل ما يحلو له، وأنه بدون عمل الروح القدس المجرد تراه مُستَعبَدًا للخطية وبعيدًا تمامًا عن محاولة طلب الله وخدمته، وبدون النعمة تجد أن أحسن أعماله لا تزال قائمةً على أساس من عدم الإيمان، بل وحتى فضائله تراها قد نظمت كأسلحة ضد حكم الله...

« على الرغم من أن معظم الناس يظهرون في بعض الأحيان بمظهر الباحثين الحائرين عن الحقيقة وباحترام بسيط لله... غير أن الحقيقة هي أنه ما لم يحركهم الروح القدس، تراهم يكنون كرهًا طبيعيًا للإله الحق، ورغبةً جامحةً لانتهاك نواميسه وميل دائم لإدانته إذا ما خطر قط على بالهم؛ ذلك أنهم في عداوة أدبية مع الله الذي أُعلِنَ في الكتاب

المقدس. وبالنظر إلى أن مقاصده تتعارض مع مقاصدهم من كافة النواحي فإنهم في واقع الأمر يكرهونه أكثر من أي شيء محدود، وهذا ما بدا واضحًا في معاملتهم لابنه، وهم - وإلى حد كبير - لا يدرون هذه العداوة لأنها تكون في العادة مكتومة بسبب عدم إيمانهم».

« هذا التحليل العميق للخطية تم تجاهله في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، نتيجة تنامي حركة العقلانية والتي بسبب فهمها الغامض لله بدأت في تحديد الفضيلة بطرق لا تتعلق بعبادته والإيمان به، وذلك لكي تؤكد الصلاح الجوهري لطبيعة الإنسان. وأثناء الفترة نفسها، بدأ إدراك الكنيسة للخطية في التآكل إلى جانب معرفتها لله، وشيئًا فشيئًا بدأ تعريف الخطية بطريقة بدت دفاعيةً بالأكثر؛ الخطايا هي أعمال انتهاك تتم بوعي واختيار ضد النواميس المعروفة».

«وأثناء فترة أواخر القرن التاسع عشر، وفيما كان فهم الكنيسية للتحفيز اللاواعي خلف الأعمال السطحية يتلاشى، أعاد «سيجموند فرويد» اكتشاف هذا العنصر، ثم أعاد صياغته في أسطورة دنيوية واضحة وموسعة، ومن بين نتائج هذه النقلة الجبارة، أن الرعاة في القرن العشرين كثيرًا ما نزلوا بأنفسهم إلى وضع معلمي الفضيلة الملتزمين، في حين أن النواحي الأكثر عمقًا والمتعلقة بشفاء النفوس كانت تُوكَّل بوجه عام إلى أخصائي العلاج النفسي حتى بالنسبة للكنائس المسيحية».

« لكن بنية الخطية في شخصية الإنسان كانت أكثر تعقيدًا مما كان عليه الحال بالنسبة للأعمال والأفكار الفردية الخاصة بالتمرد المتعمد الذي كانت تعنيه الكلمة، والخطية بحسب تعريفها الكتابي، لا يمكن أن تقتصر على الأمثلة أو النماذج الخاصة بالأعمال الخاطئة، لأنها في بعض الأحيان تماثل بالأكثر التعبير السيكولوچي: «عقدة شبكية عضوية من المواقف والمعتقدات والسلوك الملزم المتأصل في البعد عن الله»، ولقد نشأت الخطية في ظلمة عقل الإنسان وقلبه حيث ابتعد الإنسان عن الحقيقة المتعلقة بالله وتبنى كذبة قيلت عنه، وكان من نتيجة ذلك أن تبعها عالم كامل من الأكاذيب عن خليقته، فثمة أفكار وأقوال وأعمال خاطئة تتدفق من هذا القلب المظلم، وذلك بشكل تلقائي وإجباري كما يتدفق الماء من ينبوع ملوث».

« أصبح قلب الإنسان الآن مستودعًا لتحفيزات وردود تصدر دون وعي أو ترتيب، لا يعرف الأشخاص غير المجددين عنها شيئًا إذا ما تُرِكوا لأنفسهم، لأن «القلب أخدع من كل شيء وهو نجيس، من يعرفه؟» (إر ١٧:٩). والآلية التي تشكل بها دون وعى مستودع الظلام هذا، وُصِفَت في (رومية ١ : ١٨-٢٣) مثل كتم المادة التي تسبب الجرح هكذا أيضًا وبصفة رئيسية تراهم يكتمون الحق عن الله وعن حالتنا، وظلامهم دائمًا ظلام إرادي، وعلى الرغم من أنهم لا يدرون أنهم يكتمون الحق، وهناك أفكار عديدة تنجم عن هذه الفقرة:

١- الخطية أكثر من سلوك خاطئ.

٢- تعريف الخطية بأنها ليست أكثر من مجرد «أعمال انتهاك ضد نواميس معروفة تُرتَكَب بوعي واختيار»، يعد تعريفًا سطحيًا ويهوّن من شأن حقيقة بشاعة الخطية.

٣- لكي نفهم الخطية، علينا أن نتأمل بحرص المعتقدات والأغراض الدافعة لهذه الأعمال.

٤- المعتقدات التي تقف وراء هذه الأعمال إلى جانب التحفيزات التي تتولد عن هذه المعتقدات هي - إلى حد كبير - جديرة باللوم ولو أنها تأتي دون وعي (العمى الروحي مرغوب ولذلك تم اختياره).

٥- عمل روح الله من ناحية الاستنارة الروحية والتجديد أمر ضروري، لكي يفهم الناس العميان روحيًا حقيقة بشاعة حالة الخطية التي يغطّون فيها.

٦- ما لم نفهم الخطية على أنها متأصلة في معتقدات وتحفيزات بعيدة عن وعينا، ونعرف كيف نكتشف هذه القوى العملية الكامنة في داخل شخصيتنا ونتعامل معها، ستواصل الكنيسة تعزيز النظم السطحية، في حين أن أخصائي العلاج النفسي - على أساس كتابي أو بدونه - سينجحون أكثر من الكنيسة في إعادة المضطربين عقليًا إلى حالة أكثر فعالية، وهذه مأساة يُرثى لها.

ولعل الخطأ الأكبر للكنائس المسيحية حاليًا يتضمن فهمًا ناقصًا وسطحيًا للخطية، على النحو الذي يصفه «لفيلاس». كثيرون من الرعاة يعظون بأفكار «مثل جبل الجليد» عن الخطية، كل ما يشغلهم هو الشيء المرئي فوق خط الماء، مثل قبطان البحر الساذج الذي يوجه سفينته حول قمة جبل الجليد دون أن يدري أنه يوجد جبل من الثلج تحت

السطح من الممكن أن يحطم سفينته، والمعلمون المسيحيون والمتتلمذون كثيرًا ما يَقنَعون حين يبتعد شعبهم عن السلوك السيئ للخطايا بحسب تعريف الكنيسة للخطية.

وهناك كم هائل من المعتقدات الخاطئة والأهداف التي أُسيء توجيهها، والتي لم تتطرق إليها الكنيسة إطلاقًا في إطار هذا النهج، والنتيجة هي تناغم خارجي ينخفض كتقدم روحي، وفراغ وفساد داخلي يعوق التمتع العميق بالله والانخراط مع الآخرين.

ويقول لنا الرسول بولس أن التغيير الحقيقي يتطلب أكثر بكثير من تغيير أنماط السلوك الخاطئ؛ فالتغيير الحقيقي يتطلب منا أن نتحرك في عالم العقل المظلم، ونتعلم معنى أن نتيح للروح القدس أن يجددنا في تفكيرنا الأساسي بحسب ما ينصحنا به في (رو ١٢ :١-٢) « فأطلب إليكم أيها الإخوة برأفة الله أن تقدموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله، عبادتكم العقلية. ولا تشاكلوا هذا الدهر، بل تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم، لتختبروا ما هي إرادة الله: الصالحة المرضية الكاملة».

والذهن المتجدد يتضمن أكثر بكثير من حفظ آيات الكتاب عن ظهر قلب أو تأمل الحقائق الكتابية، على الرغم من أن كليهما أمران نافعان ومطلوبان، فالمطلوب هو أكثر من ترسيخ «حياتنا الفكرية» وتذكير أنفسنا بما قاله الله في كلمته، على الرغم من أن هذا أيضًا أمر ضروري.

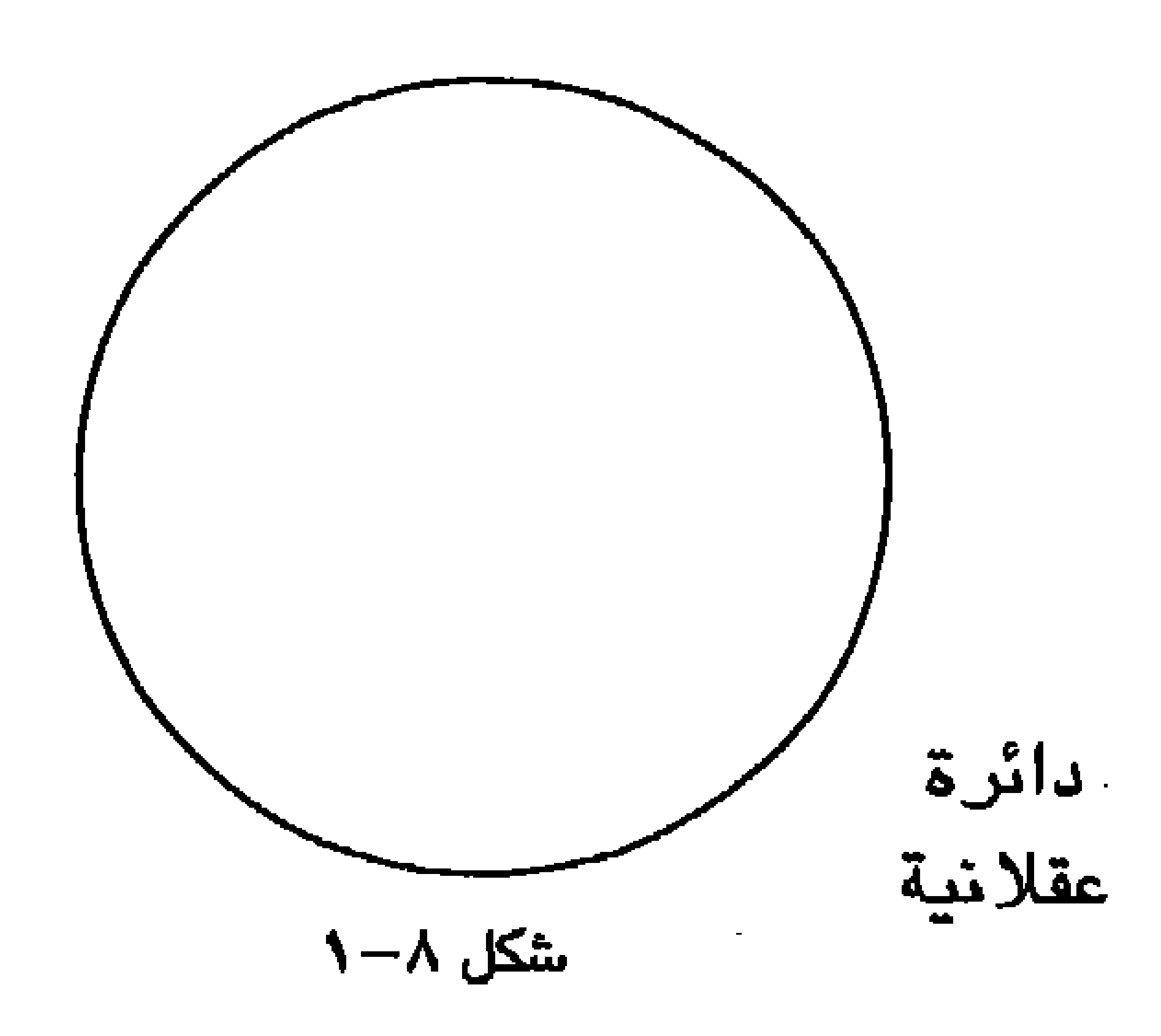
والذهن المتجدد لا يعني ذهنًا محشورًا بالعبارات المحفوظة المبهجة عن أفراح الحياة، أو عن قدرتنا على تحويل المأساة إلى فرح. والتغيير الحقيقي معناه تغيير في إنساننا الداخلي؛ حيث الفكر المخادع المليء بالأغراض الخفية عن أنفسنا، وعقل مظلم يتمسك بأفكار يمكن - إذا وعينا لها - أن نتبرأ منها، والتي يجب كشفها ومواجهتها برسالة الله.

وإذا كانت الخطية تتضمن حقًا معتقدات في العقل اللاواعي، وأهدافنا تنكر السحق بشأن الحياة في المسيح وتبعدنا عنه إلى مصادر مزعومة أخرى للحياة (طرق خاطئة تؤدي إلى الموت وتبدو لنا صحيحة).

إذن علينا أن ندقق جدًا في الطريقة التي نفكر بها، وما نفكر فيه وكيف يمكن تجديد تفكيرنا، وهذا هو لب العنصر الثاني من الشخصية باعتبارها صورة الله أي القدرة على التفكير.

تحديد الدائرة العقلانية

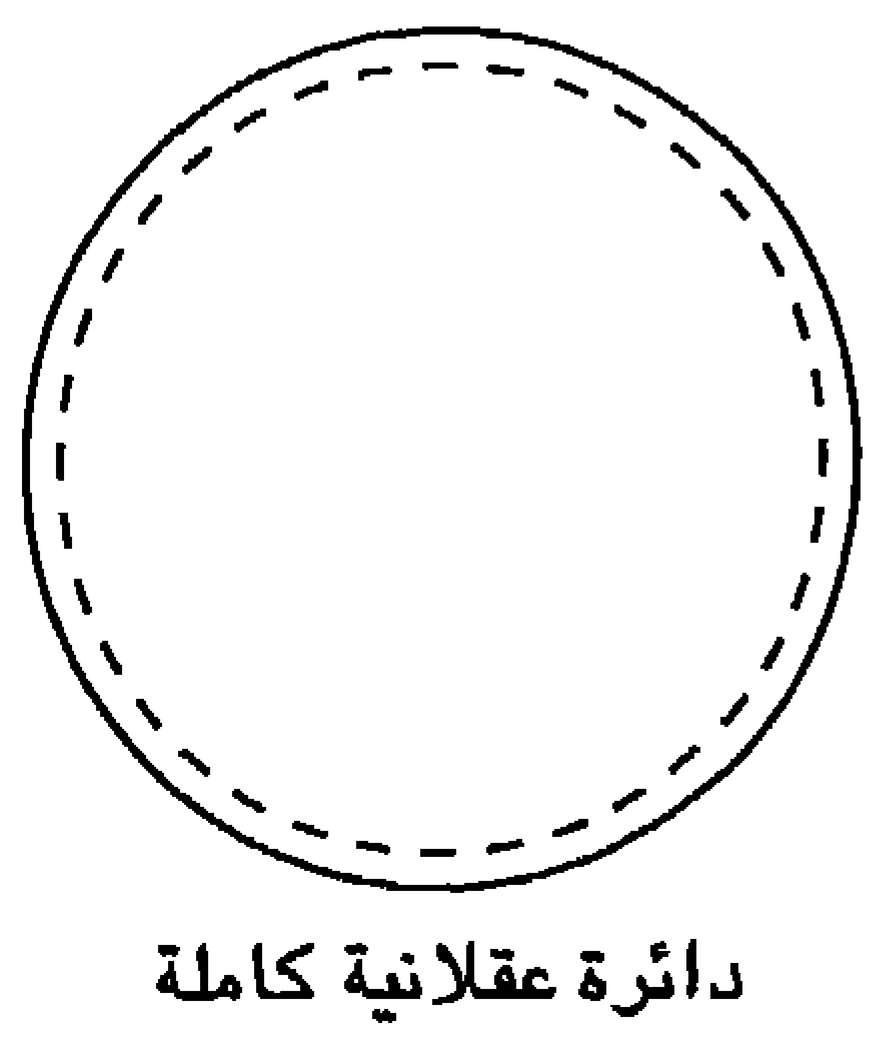
باعتبارنا نحمل صورة الله، فمن ثم نحن نشبهه، ونحن لا نشاركه استقلاليته بل نشبهه، فلدينا القدرة على أن نلاحظ عالمنا، وأن نكوِّن انطباعات عنه وننظم هذه الانطباعات في صور ومعتقدات عن الكيفية التي يعمل بها عالمنا، وأن نوجه حياتنا طبقًا لمعرفتنا ونخضع معرفتنا للتقييم والتغيير، خلاصة القول أنه بمقدورنا أن نفكر.



شكل ٨–١

لنرسم دائرة تمثل هذه المقدرة (شكل ٨–١) والله عند خلقه الإنسان زوده بقدرات عقلانية ـ وقبل السقوط في الخطية ـ كان كل ما يعتقده آدم كان يأتي صحيحًا، وقبل أن تدخل الخطية العالم كان ـ بطريقة ما ـ يرى نفسه على أنه على نحو سليم يتشكل على الله تمامًا، مُدرِكًا أن الحياة هي في الله، وأن الطاعة هي أساس العلاقة بين المخلوق والخالق.

ولم يكن آدم غبيًا، كان يعرف أنه لا يملك في داخله الموارد اللازمة للحياة، كان في حاجة إلى الله وكان يعرف ذلك، ولم يكن هناك ما يشده نحو الاستقلال والاعتماد على ذاته، وبهذه المعرفة الصحيحة عن البنية الضرورية للحياة، كان آدم يستطيع أن يفكر في أي شيء بموضوعية وبشكل سليم؛ فلم يكن الجهل قد انتاب عقله، وما كان غبيًا. لنرسم دائرة متقطعة المحيط لتعكس الدرجة التي يُعَدُّ تفكير المرء عندها صحيحًا (شكل ٨–٢).



دائرة عقلانية كاملة

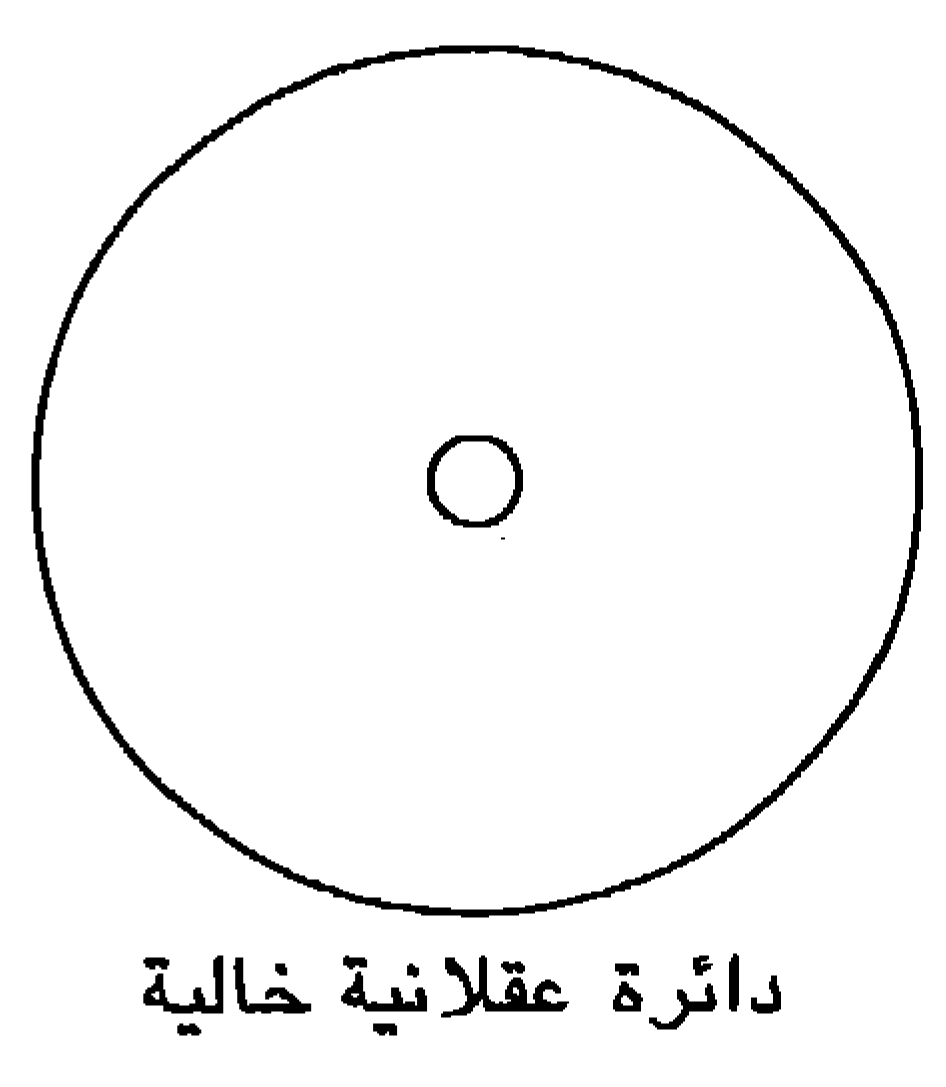
شكل ٨-٢

ولأسباب لا يفهمها أحد بشكل كامل، عمل آدم ما لا يُعقَل لقد خضع لدعوة الشيطان بأن يجد حياة أفضل من الحياة التي وفرها له الله، وذلك بإعلانه استقلاليته عن الله؛ لقد رفض طريق الاتكال معتقدًا أن نوعية أسمى من الحياة ستتاح له من خلال الانفصال عن الله.

وبهذا التمرد على الله أصبح الإنسان غبيًا؛ حيث ترك الأساس الضروري لكل تفكير سليم وهي الحياة في الله وليس في ذات الإنسان، وقد صدق كذبةً لطخت كل فكر آخر يقول إن حياة أفضل يمكن أن توجد عن طريق الاستقلال، التعبير عن الذات، حرية الإرادة وتقرير المصير، والكذبة التي صدقها آدم، كان لها تأثير جوهري على حياته كلها، ذلك أنه حين نفذها، ألقى بنفسه وبنسله كله في غياهب الظلمة الأدبية، لقد أصبح الإنسان متمردًا على الله، معتقدًا بأن الطاعة لله ليست ضرورية لحياته أو مطلوبة لحقيقة من يكون هو، ومن يكون الله. ونحن كبني آدم نعتقد طبعًا أنه بمقدورنا أن نملأ دوائرنا الشخصية بواسطة جهودنا وإمكانياتنا، لكن هذا لم يكن صحيحًا؛ فالشبع لا يتوفر إلاّ من خلال علاقتنا مع الله، وعلى أساس شروحه، ومع ذلك نعتقد أننا نعرف أفضل.

ونحن ملتزمون بالاستقلال، ومن جوهر كياننا نتصرف ضد الله ونحن في عداء معه، ونحن نكرهه لأنه يطلب منا ما نعتقد بغباء أنه سيسلبنا حياتنا ويطالبنا بالاستسلام والثقة والطاعة.

وبالنظر لأن جوهر تفكيرنا قد فسد نتيجة الكذبة التي تقول إنه بمقدورنا أن نجد الحياة بمعزل عن الله ، فإن معتقداتنا بالنسبة للأمور الأخلاقية خاطئة أيضًا، وبمقدورنا أن نحسب بدقة أن اثنين زائد اثنين يساوى أربعة في العالم المادي، ولكن عندما نحاول أن نتصور العالم الأدبي نكشف عن إفلاسنا الذهني، ويتضح أننا حمقى وجهلة وعميان ودائرتنا العقلانية خالية (شكل ٨-٣)



دائرة عقلانية خالية

شكل ٨-٣

وقد نعتقد أن تفكيرنا الأحمق كان يجب أن يصحح نفسه بنفسه، وحين ندرك أن أفكارنا بالنسبة للجهة التي نجد فيها السعادة كانت خاطئة، وأنه يجب أن ننتقل إلى خطة أخرى بنفس السهولة التي نغير بها مسحوق غسل الملابس حين نجد أن ما قالته الإعلانات عن هذا المسحوق لا يناسب ما نلاحظه في ملابسنا، وننتقل إلى أية خطة بديلة نعتقد أنها ستنجح ما لم تكن تلك الخطة تطلب منا التخلّي عن التزامنا بحرية إرادتنا.

وحين ترفض زوجة أن تمارس الجنس مع زوجها وتحتقره لأنة لا يفكر في أي شيء آخر، فيستبدلها بعشيقة دافئة متعاونة، فيبدو الأمر له كفكرة صائبة، والتحرك في هذا الاتجاه (ربما يكون لقاء في نهاية الأسبوع يؤكد له حكمة هذه الخطة) والنتيجة التي يمكن التنبؤ بها هي مشاعر طيبة تقدم إرضاءً ثريًا ومقنعًا يتعدى مجرد اللذة الجنسية، ولعله عن طريق الطلاق والزواج ثانية يمكن في الواقع المحافظة على هذه المشاعر الطيبة لمدة طويلة. والنقطة المهمة هي أنه بالنظر إلى وجود متعة في الخطية لفترة - قد تكون فترة

طويلة ـ فإن دائرة اللذة الشخصية غير المشروعة، والتي يتم الشعور بأنها مشبعة تمامًا، متاحة لكل شخص يريد أن يعيش مستقلاً، وهذا هو الجزء المخادع في الأمر، وهذه ورقة الشيطان الرابحة؛ فالاستقلال يبدو حقًا أنه يؤدي إلى الحياة، ويبدو أن كذبة الشيطان حققت نجاحًا أكثر مما حققه حق الله. والرضا كثيرًا ما يتم الشعور به في الحال بالنسبة للتعامل مع الأمور بشكل خاطيء وبأسرع مما يحدث لو تم التعامل معها بالطريقة الكتابية، والقديسون المذكورون في (عبرانيين ١١) عاشوا بالإيمان والكثيرون منهم ماتوا دون أن يتمتعوا بالثمار الزمنية لإيمانهم.

وكلما طال استمرارنا في السير في طريق الاستقلال، زاد عمق غوصنا في وحل تفكيرنا الفاسد والفراغ أيضًا يتسلل أحيانًا فتعزز مداركنا، ولكننا نسرع إلى رفضها باعتبارها دليلاً على عدم النضج، أو الاضطراب العصبي، أو عدم كفاية الإنجازات وتتدفق نوبات عارضة من اليأس معها جرعات العلاج والحماسة لقضية جديدة.

المخدرات أشكال جديدة من المتعة، ونوبات انغماس وانسحاب شخص وتأمله، أو... انتحار، وتظل حماقتنا على ما هي، ولا نزال نبحث عن الحياة دون أن نأتي إلى الله بشروطه هو. ويجب وبطريقة ما أن تخلي هذه الحماقة مكانها للحكمة، وبالنسبة للمسيحي المؤمن فإن السير على غرار غير المؤمنين في هذه الحياة يجب أن يحل بدلا منه ـ وبشكل متزايد ـ أسلوب جديد للحياة. والنتائج الملوثة للكذبة الكبرى ـ التي تقول إن الاستقلال هو الحياة ـ يجب إزالتها من أساس الشخصية، ويجب أن يُصَحَّح فهمنا للحياة بصفة مستمرة لكي يتناغم أكثر فأكثر مع الحق (يسوع المسيح هو الحياة)، ويعتمد التغيير على تجديد أذهاننا.

صور ومعتقدات

ولكي تفهم معنى ما كان يقصده بولس من قوله: «تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم»، علينا أولاً أن نحدد ما هي أنشطة أذهاننا التي تحتاج إلى تجديد، ما الذي يدور حقًا في ذهن الإنسان؟ والمعطيات الكتابية، تبدو للوهلة الأولى، أنها لا تقدم الكثير مما يساعد على الإجابة عن هذا السؤال، ولم يكتب بولس على الإطلاق وصفًا تصنيفيًا «لأجزاء» شخصيتنا ولم يرسم خريطة طريق سيكولوچية، وعوضًا عن ذلك

كان ينير على الشخص، المتطلع، المفكر، الذي له حرية الاختيار، الشخص الذي له رأيه، والذي يستطيع الدخول في علاقة مع الله على أساس المحبة والطاعة. غير أن بولس أشار بالفعل إلى عدد من الأجزاء الداخلية أو العمليات التي تتضافر معًا لتكوين ما أُطلِقَ عليه «الإنسان الباطن»، على سبيل المثال (أفسس ٣:١٦) أما «الإنسان الخارجي»، الشخص المرئي فقد قدم تعبير عن الإنسان الباطن «قلب، ذهن، نفس... إلخ»، ويوضح بولس أن التغيير الخارجي دون تغيير داخلي لا قيمة له على الإطلاق؛ ذلك أن الداخل في بعض الأحيان يحتاج إلى تغيير.

وبنفس الطريقة، احتفظ الرب بنقده المرير للناس المتدينين الذين يهتمون بالمظاهر، والذين لم يتأثروا بحق الله داخليًا (متى ٢٣ : ٢٥-٢٨). والناس الذين يهتمون بتلميع أعمالهم الخارجية دون أن يتعاملوا مع الفساد غير المرئي في داخلهم، أُفرِزوا على أنهم بصفة خاصة يستحقون الدينونة.

والرسالة الواضحة، هي أنه ما لم يول اهتمامًا أكبر بالتجديد الداخلي، لن يكون التحسن الخارجي إلا محض رياء، ولكن ما هو ذاك الذي يتوجب تجديده؟

أعترف بأن تطلعات القلب البشري لا يمكن تغييرها، وحتى لو أمكن ذلك فإن ذلك سيجعل الإنسان أقل مما قصده الله أن يكونه. وتطلعاتنا مشروعة، ويجب أن نجتهد في الإحساس بها وتبنيها حتى يمكننا أن نعرف الله أكثر فأكثر على أنه المحب الأعظم للنفس البشرية، والذي يشبعها بما تحتاجه، والمشكلة لا تتركز أساسًا في تطلعاتنا. وفي الفقرة السابق ذكرها من رسالة رومية، يذكر بولس أن التجديد الذي يتطلبه الأمر يجب أن يحدث في الذهن، ونحن نوجه حياتنا طبقًا لمفهومنا عمن نكون، وما الذي تعنيه هذه الحياة، وحين يكون هذا المفهوم خاطئًا نتحرك بحماقة في اتجاه يؤدي إلى الموت.

ونحن - باعتبارنا كائنات عقلانية - نستطيع أن نراقب العالم ونراقب أنفسنا، وأن نكوِّن صورةً دقيقةً عما نراه، وهذه الصور تتطور تدريجيًا إلى صور للحقيقة، أي تصوير ذهني لما نعتقده بالنسبة لحقيقة الأمور.

ونحن لا نكوِّن - فحسب - صورًا من الواقع تقدم لنا إطارًا ثابتًا نستطيع الحياة في داخله؛ بل إننا نستخدم الكلمات أيضًا لنرمز إلى ما نلاحظه، وبطريقة تتيح لنا أن

نضع مفهومًا عن الطريقة التي تسير بها الأمور، وبمرور الوقت فإن جهودنا التي ترمي إلى وضع تصور للأمور تتبلور معًا في مجموعة من المعتقدات الثابتة نسبيًا، وترشدنا معتقداتنا إلى التعامل مع العالم الذي نتصوره. دعنا نطلق على معتقداتنا الرمز «ح-١» أي جزء من الدائرة العقلانية، ونطلق على صورنا «ح-٢» أي العنصر الثاني في قدرتنا العقلانية، وهكذا فإن المعتقدات والصور تشكل عمليتين في الدائرة العقلانية.

ونحن ـ باعتبارنا حاملي صور خاطئين ـ نصر على إيجاد إشباع لتطلعاتنا دون أن نعترف إطلاقًا بسلطان الله، أو نقترب منه بشروطه، وعلى ذلك نفسر عالمنا بطريقة تشجع وتعزز فينا التزامنا بالاعتماد على أنفسنا، والمعتقدات والصور التي نتوصل إليها لا يفرضها علينا العالم، ذلك إننا نجتهد في اختيار مفاهيم وأفكار معينة ـ في إطار تحدده ظروفنا الفريدة ـ تتيح لنا مواصلة طريق الاستقلال.

وهذه على وجه التحديد هي الصور والأفكار التي يتوجب تعريتها والتوبة عنها وتغييرها، والذهن المتجدد يتطلب انتقالاً من الصور والمعتقدات التي تحافظ على الاستقلال، إلى الصور والمعتقدات التي تتطلب الاتكال، ولكي نفهم بشكل أفضل كيف يختار الإنسان الساقط في الخطية عنده الصور والمعتقدات لتدعيم إصراره الأحمق على النجاح بدون الله، فإننا نحتاج إلى التفكير في الكيفية التي نشأت بها هذه العمليات العقلانية.

صور

فيما يختبر الطفل هذا العالم، تراه يكوّن عنه صورًا ذهنية، والطفل الأعمى «يرى» بواسطة حواس أخرى، وتتواصل الصور حتى بعد أن يمر الحدث الذي كان سببًا لها. وهذه القدرة على تصور الحقيقة في أذهاننا هي التي تتيح لنا أن نعمل أكثر من مجرد الاستجابة للمحفز الحالي، وتتعلم أن نستجيب ليس للعالم بل للصور التي كوَّناها عن العالم، وفي بعض الأحيان تتسجل الصور إلى حد ما بقوة وتترك بصمةً عميقةً على شبكية أذهاننا، وحين تنفذ الخبرات إلى الأجزاء العميقة في داخلنا ـ وأعني بذلك اشتياقنا للمحبة والقيمة ـ لا يمكن أن تُنسى صور هذه الخبرات بسهولة.

وإذا أمكن إظهار هذه الصور المؤثرة بشكل متكرر بنوعية متناغمة من الخبرة، يتحول موضوع هذه الصور إلى صورة ذهنية، تصوير ثابت نسبيًا للحالة التي عليها

الأمور بالفعل، وعلى سبيل المثال: حين يرى الطفل تعبير الغضب على وجه أبيه كرد فعل منتظم لحماقته، قد يتصور أن كل من هو في السلطة غاضب دائمًا ويرى نفسه في صورة أحمق يائس. والصورة التي يكوِّنها الشخص عن نفسه وعن الآخرين يمكن بالطبع أن تكون لطيفةً؛ فالأب اللطيف القوى قد يولِّد صورةً عن الأشخاص الذين هم في السلطة على أنهم طيبون وجديرون بالثقة، وصورة عن نفسه بأنه شخص ذو كفاءة.

وعلى الرغم من أن الصور قد تكون لطيفةً أو غير لطيفة، إلا أنه ستكون هناك دائمًا صورة أليمة للغاية عن أنفسنا. لنتأمل السبب في أن الأمر لابد وأن يكون هكذا، ليس من والد، أو قريب، أو قس بوسعه أن يقدم على الإطلاق إرواءً تامًّا لحامل صورة عطشان؛ لقد جُبلنا على أن الذي يشبعنا هو الله وليس أحد غيره يستطيع ذلك، وعلى الرغم من ذلك نتجه جميعًا إلى بشر مثلنا لنجد الشبع الذي نشتهيه، ليس من يطلب الله ولا واحد.

وعلى ذلك لابد وأن ينظر كل طفل إلى عالمه على أنه مُخَيِّب للآمال، كما ينظر إلى نفسه على أنه مُحبَط، ونحن جميعًا في ألم بدون الملء الذي لا يأتي إلا من الله.

والألم محفز نحن نريد أن نتخلص منه، وإذا اعتقدنا أن السبب في إحباطنا يرجع أساسًا إلى عالم قاس، هنا نكون قد وقعنا تحت رحمته يائسين، مُعَرَّضين للأذى، غير قادرين على الاعتماد على إمكاناتنا لتغيير الأمور إلى ما هو أفضل، غير أنه إذا كان الخطأ من جانبنا، وإذا كنا مُحبَطين بسبب عيب فينا، هنا يكون ثمة رجاء، وإذ تخيلنا أنفسنا بأننا لسنا جديرين أن نحب لسبب معين، فدعونا نتمسك بالخداع القائل بأنه ربما نستطيع أن نستدرج العالم ليعطينا ما نريد - إما أن نخفي عيبنا وراء جدار شيء قيم، أو بتصحيح عيوبنا. والآن لدي شيء يجب أن أعمله - على الأقل قدر من السيطرة عليه، الحياة ملك يدي.

وما يجب تجنبه بكل قوة هو معرفة غير محبوب لأسباب لا أستطيع أن أغيرها أو أخفيها، ولا شيء يستطيع أن يعيد إليّ اتكالي الذي لابد منه، مثل الحقيقة المرة ألا وهي عجزي عن أن أجعل شخصًا يقبلني تماماً، والحقيقة هي أنه ليست لدي أية فكرة على الإطلاق عن أن أجعل الحياة ناجحة، وإني أعيش في حيرة تجبرني على الاعتراف باتكالي وعدم استقلاليتي، غير أن هذا الاعتراف هو بالضبط ما يرفض الإنسان الساقط

أن يعمله، ولكي أتجنب الاعتراف بحيرتي، يجب أن أفعل أكثر من مجرد رؤيتي نفسي محبطًا وخاويًا لأسباب لا استطيع السيطرة عليها؛ وعلى ذلك اخترت صورةً لنفسي تبرز عيبًا أستطيع أن أعالجه، وقد تكون الصورة أليمة (غير كفء، غبي، قبيح) لكنها تحميني من ألم أشد، ألم الاعتراف باليأس.

وحتى الصورة الأليمة للذات توفر أساسًا للتعامل مع الحياة، وإذا رأيت نفسي أخرق، وبمقدوري أن ألقي بتعة متاعبي في الحياة على لعنة عدم كفاءتي، هنا يتوفر لي اتجاه أتحرك فيه أثناء مواصلة البحث عن الشبع، لعله بمقدوري أن أستطلع الأمور لأعرف أية ناحية لي فيها بعض المهارة، فيما أبتعد بحزم عن النواحي التي تظهر فيها قلة حيلتي بشكل واضح للغاية، وأحيانًا يصبح عدم التكيف الاجتماعي هو المعلم الذي نتعلم منه.

والنقطة التي يجب أن نفهمها هي هذه: نحن نختار صورةً مؤلمةً لأنفسنا (من سلسلة من الاحتمالات التي توفرها بيئتنا) لكي نتجنب الألم الأكبر، وهو الاعتراف بعجزنا التام والصور تقوم بدور دفاعي، حيث تساعدنا على تجاهل حقيقية التهديد الذي يشكل ارتباكنا وذلك بأن تقدم لنا نظامًا يغذي الرجاء بأن الحياة متاحة لنا من خلال لباقتنا ومحاولاتنا.

وهكذا فإن الاتكال الذي هو الطريق إلى الحياة الحقيقية يتم تجاهله، والاستقلال وهو الطريق إلى الموت والذي نتمسك به يتم الحفاظ عليه، والصور التي تعطينا رجاءً في الحياة من خلال الاستقلال يجب تغييرها، والقوة التي خلف الصورة — التصميم على أن نجد الحياة بدون الله — تتطلب التوبة، وحين نترك السعي وراء الحياة من خلال جهودنا، تفقد الصورة الدفاعية قوتها.

المعتقدات

إن قدرتنا على أن نجمع كلمات معًا لنكوّن منها جملاً مفيدة تعبر عن فكر معين، تجعل من الممكن بالنسبة لنا أن نحدد الاتجاه المعين الذي نختار السير فيه ونحن نبحث عن الحياة، نحن نصيغ معتقدات عن الكيفية التي يعمل بها عالمنا، وكيف يتسنى لنا أن نعمل في عالمنا لكي نتمتع بالشبع الذي تتوق إليه قلوبنا. والطفل الذي يؤدى طيشه دائمًا إلى إثارة غضب والده، يكون قد تعلم أن يرى نفسه كطفل أخرق في عالم تُرفَض فيه هذه الصفة، وهذه المفاهيم التي كوّنها عن نفسه وعن عالمه تشكل صوره الأساسية، ومهمته

الآن هي أن يضع استراتيچية يستطيع بها الطفل الأخرق الذي يعيش في عالم يرفض هذه الصفة أن يجد قسطًا من السعادة، وبالنظر إلى أنه واقع في خطية اتخاذه الاستقلال كطريق للحياة، عليه أن يوجِد استراتيچية يسيطر عليها تمامًا.

وكما هو الحال بالنسبة للصور، فإن البيئة الخاصة بالمرء تحد من مجال الاستراتيجيات التي يمكن استخدامها، ولعل لهذا الصبي الأخرق أمًا تعتز إلى درجة هائلة بوضعها الاجتماعي (تم تبسيط المثال إلى أقصى درجة من أجل التوضيح)، ولذلك قد تقدر تمامًا الكياسة واللباقة اللتين باعثهما الاحترام من جانب أطفالها وبصفة خاصته في حضور شخصيات «مهمة» من الناحية الاجتماعية، ويلاحظ الصبي ابتسامة أمه الدافئة حينما يقول: «شكرًا لكِ سيدتي»، و«كان لقاؤك من دواعي سروري يا سيدي»؛ وعلى ذلك فإن ملكاته العقلية الفاسدة قد تصل إلى فكرة للحصول على ما يريده بشدة، ولعل سماته الاجتماعية هذه قد تشكل الطريق إلى حصوله على القبول والقيمة، وإذا كان أخرق إلى درجة أنه لا يستطيع أن يحمل علبة طلاء دون أن ينسكب منها شيء، فقد يكون بوسعه أن يربح الناس من جهته بحسن اختياره للألفاظ، وبضع خبرات ناجحة يمكنها أن تؤكد له اعتقاده غير الصحيح بأن المخالطة الاجتماعية تؤدى إلى الحياة.

واعتمادًا على مجموعة من العوامل (كفرصة ومواهب طبيعية) قد يصبح هذا الطفل فيما بعد كبير الندلة في مطعم ممتاز، أو مندوب مبيعات ناجحًا، أو سياسيًا لبقًا، أو راعي كنسية محبوبًا ينظر إليه شعب الكنيسة باعتباره شخصًا مهتمًا بالشعب. والتحفيز الذي يدفعه إلى متابعة جهوده من المحتمل أن يُطلَق عليه «بواسطته أو آخرين» محبة الناس مع قدرة طيبة على حسن العلاقة مع الناس وقدرته على ربح استحسان الناس من خلال نشاطه الاجتماعي، ربما تُمتَدَح على أنها موهبة روحية.

وعلى الرغم من ذلك، فوراء أسلوب حياته هذا اعتقاد خاطئ وغبي، مفاده أن النشاط الاجتماعي هو الطريق إلى الحياة، والتغيير الحقيقي من شخص غير سليم يعيش لنفسه إلى شخص سوي يحب الله ويعيش من أجله، يتطلب تغيير هذا المعتقد ويجب التعرف عليه وكشفه على حقيقته إنه جزء من التزام أن ينجح في الحياة بدون الله، وإيمانه الواثق بنفسه يكاد يُعد تمردًا ضد الله وعدم الإيمان به، والعلاج الوحيد هو التوبة.

صور ومعتقدات وقدرات الدائرة العقلانية التي يستخدمها البشر الساقطون للمحافظة على الوهم الذي يسيطر عليهم بأنهم ليسوا في حاجة إلى الله. نحن نحب الاعتقاد بأنه لا يوجد تشوش يجعلنا عاجزين، ونحن نفضل تفسير بؤسنا على أنه يرجع إلى أخطائنا التي بوسعنا أن نخفيها أو نصححها، ونحن لسنا بعجزة، يقول الإنسان المتكبر، هناك أشياء بوسعنا عملها ومن شأنها أن تقودنا إلى الحياة، والشيطان يعدنا بالحياة إذا أخذنا بزمام الأمور في أيدينا، والله يعدنا بالحياة إذا اعترفنا بحالتنا الخاطئة، وقبلنا المسيح مخلِّصًا، وواجهنا الارتباك الذي تتسم به الحياة وافتقارها إلى الرجاء بدون المسيح. والذهن المتجدد يتضمن التخلي عن الصورة التي تحمينا من هذا الارتباك وأن نغير أذهاننا فيما يتعلق بالطريق الذي يؤدي إلى الحياة الحقيقية.

ضحايا أم وكلاء ؟

من المفيد عند تقديم المشورة استكشاف خلفية المستشير، ليمكن وبشكل أفضل معرفة التأثيرات التي شكلت صوره ومعتقداته الدفاعية، وهذا الاستكشاف قد يوضح المضمون المعين لصور الشخص ومعتقداته، وبمجرد أن يأتي ذكر النظر إلى الماضي إلا ويسرع الكثيرون من المسيحيين إلى التشكك ـ ولسبب معقول ـ في أن المسئولية الخاصة بالسلوك الحالي للشخص ستنتقل من الشخص نفسه إلى والديه، وعندئذ يتم معاملة الناس كضحايا لا حول لهم ولا قوة يحتاجون إلى فهم وتحرير من قيود الماضي، بدلاً من اعتبارهم وكلاء مسئولين في حاجة إلى النصح ليتولوا زمام أمور حياتهم بطريقة ناضجة، وبالنظر إلى أن الصور والمعتقدات تأخذ شكلها الأول من خلال إحباطات الطفولة التي لا مفر منها، فإن التعرف على خصائص تلك الإحباطات كثيرًا ما يساعد الناس على أن يتعرفوا بوضوح على الصور والمعتقدات التي يتحكمون بواسطتها في حياتهم، وفيما يتم مناقشة الماضي يجب على المشيرين أن يعترفوا بأننا «ضحايا» والدَيْن؛ فالفتاة التي تعرضت لتحرش جنسي وهي في سن العاشرة تُعد ضحيةً لأبيها الخاطئ الفاسد، وكل واحد منا ما هو إلا ضحية لوالديه والبعض بالطبع أكثر من الآخرين سوءًا.

ولكن الأكثر أهمية هو أننا نحن أيضًا «وكلاء»، وحملة صورة مسئولون، نرفض بعناء اللجوء إلى الله من أجل الحياة التي فشلنا في أن نجدها في والدينا، والصور التي نكوّنها ليست ببساطة بصمة المعاملة الأبوية الضرورية التي تلقيناها، بل إنها قد اختيرت

بالأحرى لتمدنا بأساس للتعامل مع عالمنا بإمكاناتنا نحن. والمعتقدات التي قبلناها هي أكثر من انعكاس للأفكار التي تعلمناها، بل هي جهود بارعة لوضع إستراتيجية للتقليل من الألم، وللحصول على أي إشباع يمكننا أن نجده. والتغيير يعتمد على تجديد أذهاننا وليس على تغيير ظروفنا سواء في الماضي أو الحاضر. وشفاء الذاكرة من صدمات الماضي، أو إعادة ترتيب أوضاعنا الحالية أخفقت في مواجهة المشكلة الحقيقية، والمعارك التي نختبرها لها صلة قوية بالصور والمعتقدات الدفاعية التي تتمسك بها الآن بأكثر من الطريقة التي استغلنا بها آباؤنا.

وبالنظر إلى أن هذه الصور والمعتقدات تشكل جزءًا من مواصلتنا الحياة بمعزل عن الله، فإن العلاج يتضمن - وبشكل رئيسي - التوبة عن الفكرة السخيفة التي تقول إن الحياة موجودة بدون الله، واتخاذ اتجاه جديد للتعامل مع الحياة وفقًا لتعاليم الله.

ومعرفة أين تمت التضحية بنا تتيح لنا فرصة عظيمة لممارسة المغفرة، ومعرفة الكيفية التي اخترنا بها الرد على ما حدث لنا تحدد الناحية التي يجب أن نتوب عنها.

واسمحوا لي أن ألخص هذا الفصل:-

١- لسنا فقط كائنات شخصية تتوق إلى ما لا يستطيع هذا العالم أن يقدمه بمعزل عن الله، بل نحن أيضًا كائنات عقلانية لها أفكارها عمن نكون، وكيف نجد الملء الذي نريده.

٢- وباعتبارنا كائنات من العقلانيين، فنحن نكوّن صورًا عن أنفسنا وعن العالم تمثل المعرفة التي اخترناها عن حقيقة الأشياء، وكيف تكون، ونصيغ معتقدات من شأنها - ضمن أمور أخرى - أن ترشدنا في بحثنا عن العلاقة والتأثير.

٣- بالنظر إلى أننا بشر خاطئون، فقد تفسخت حكمتنا إلى حماقة، ونحن نستخدم قدرتنا على التفكير للمحافظة على اعتقادنا الخيالي بأن الحياة يمكن أن تنجح بدون الله.

أ- الصورة التي نتعلق بها بكل قوة تم اختيارها لمساعدتنا على تجنب حقيقة التشويش والعجز، وهي حقيقة تتطلب منا مواجهة الشيء الذي نصر تمامًا على تجنبه الحاجة إلى الثقة المسلِّمة المنفتحة، وبتعبير آخر، فإن صورنا عن أنفسنا وعن عالمنا تقلل من الحيرة، وبالتالي تتيح لوهم الاستقلال أن يستمر.

ب- تتكون المعتقدات في إطار فهمنا للأمور (أي الصور)، والمعتقدات الأساسية تتضمن مفاهيم عن الطريقة التي يستطيع بها الناس أن يجدوا الشبع في العالم على النحو الذي نفهمه نحن، والمعتقدات الخاصة بالطريق التي يؤدي إلى الشبع تقترح توجيهات يجب إتباعها، وعلى هذا فهي تعزز رجاءً غير مشروع.

٤- الحياة في اتكال على ما يستطيع أناس آخرون تقديمه تؤدي إلى يأس عميق، ذلك أن الفراغ أليم، ولو كانت حقيقة هذا اليأس قد تمت مواجهتها بأمانة لضعف التزامنا بالحياة بمعزل عن الله ولتخلينا عن هذا الالتزام، لكن الإنسان الساقط يتسم بالعناد وأحلامه بالاستقلال لا تتلاشى بسهولة، ولكي يحافظ على استمرار حلمه السخيف فيجب التخلي -إلى درجة ما- عن حقيقة الخواء الشخصي؛ وعلى ذلك ننكر شدة ألمنا ونقلل من خيبة أملنا في التوجه نحو الناس، ولا نجد شيئًا يشبعنا حقًا ونحن نختار تجاهل تلك الأجزاء من الحقيقة التي تكشف حماقة التزامنا بهذا الاستقلال .

٥- والدفاع الأخير ضد مواجهتنا لخيبة أملنا وعجزنا نجده في الدائرة العقلانية، ونحن نتمسك بالآتي:-

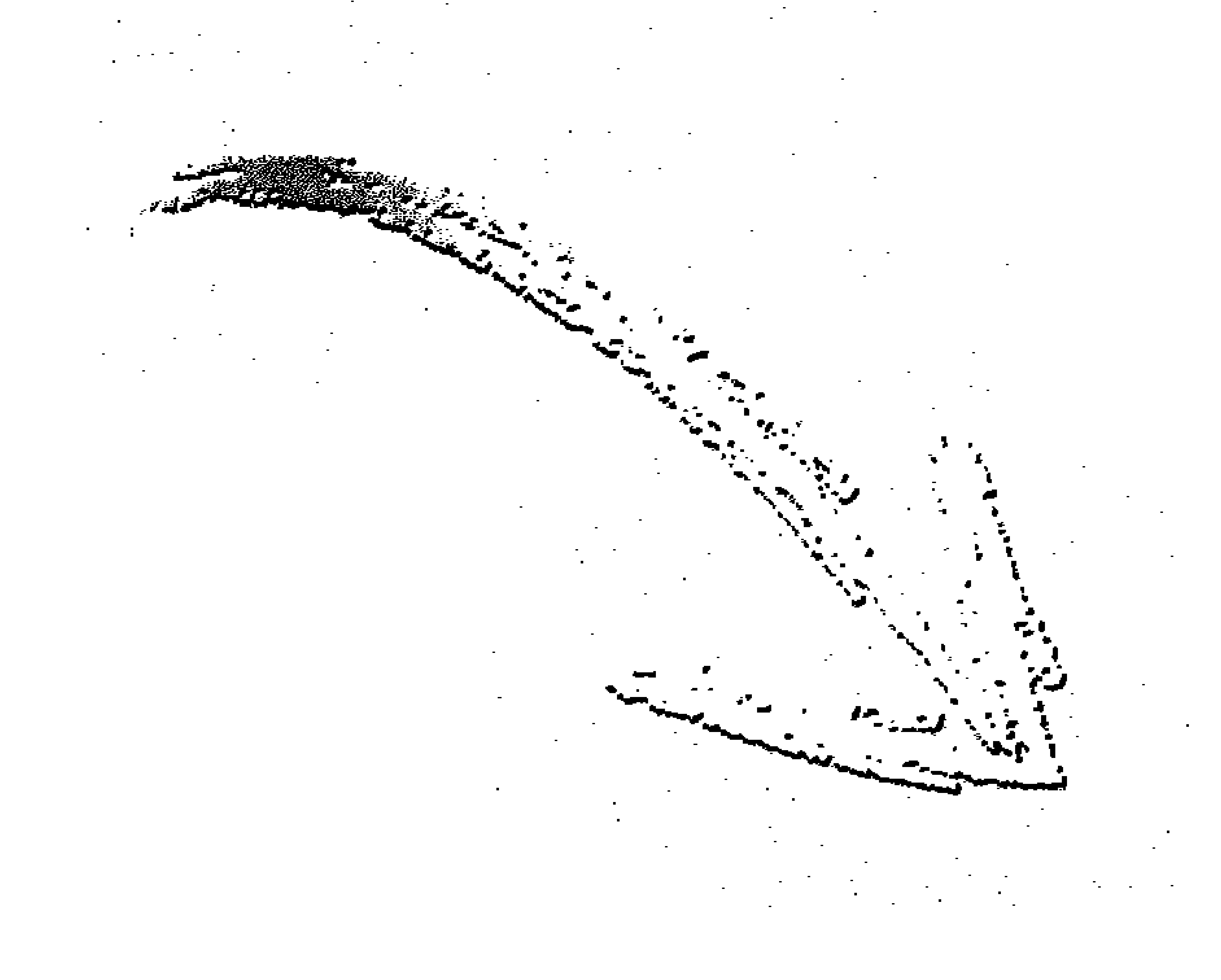
أ- صور «تشرح» خيبة أملنا: «إنني في الواقع شخص ذو وجه قبيح مليء بالبثور، ولا غرو أن الناس لا يحبونني».

ب- معتقدات تملؤنا بالأمل بأن الأمور يمكن أن تصبح مختلفةً لو «استطعت فحسب أن أجد شيئًا أجيد عمله حقًا، عندئذ ستكون الحياة مرضيةً».

٦- حتى نتعامل مع خطية التزامنا بالاستقلال وبمتابعتنا الغبية لرجاء كاذب -الأمر الذي يُعد وثنية- لا نكون قد اقتربنا من المشكلة الحقيقة داخل شخصية الإنسان، والتغيير نحو التقوى يتطلب العودة إلى الاتكال، والصور والمعتقدات التي تحفظ الاستقلال يتعين -والحال هذه- أن يتم التعرف عليها والتخلي عنها. ويتبقى موضوعات لإكمال مناقشتنا للدائرة العقلانية وهما موضع تركيز الفصل التالي:-

هل نحن على وعي بكل ما يتطلب الأمر مواجهته؟ أم أن لدينا أهدافًا مهمةً للسلوك تم دفنها في الجزء الخاص بالعقل اللاواعي من أذهاننا؟ وهل العقل اللاواعي مفهوم كتابي؟

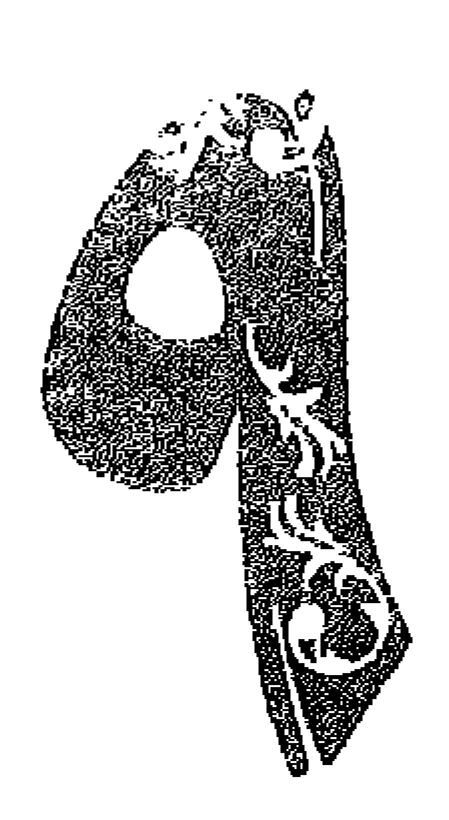
وإذا كانت المشكلة الأساسية التي وراء كل المشاكل السطحية هي الخطية إذن يجب أن تكون التوبة أمرًا أساسيًا في كل تغيير حقيقي، لأنه في كثير من الأحيان كان يتم التهوين من شأن التوبة بالربط بينها وبين الاعتذار عن الخطأ السلوكي، ولذلك مطلوب وجهة نظر أكثر ثراءً، وإذا فُهِمَ أن الخطية تتضمن أكثر من الجزء المرئي من الجبل الجليدي، فهنا يجب إيجاد مفهوم أعمق للتوبة التي تتعامل مع خطايا القلب الخفية.





الفصل التاسع

بداية التغيير
"التوبة"



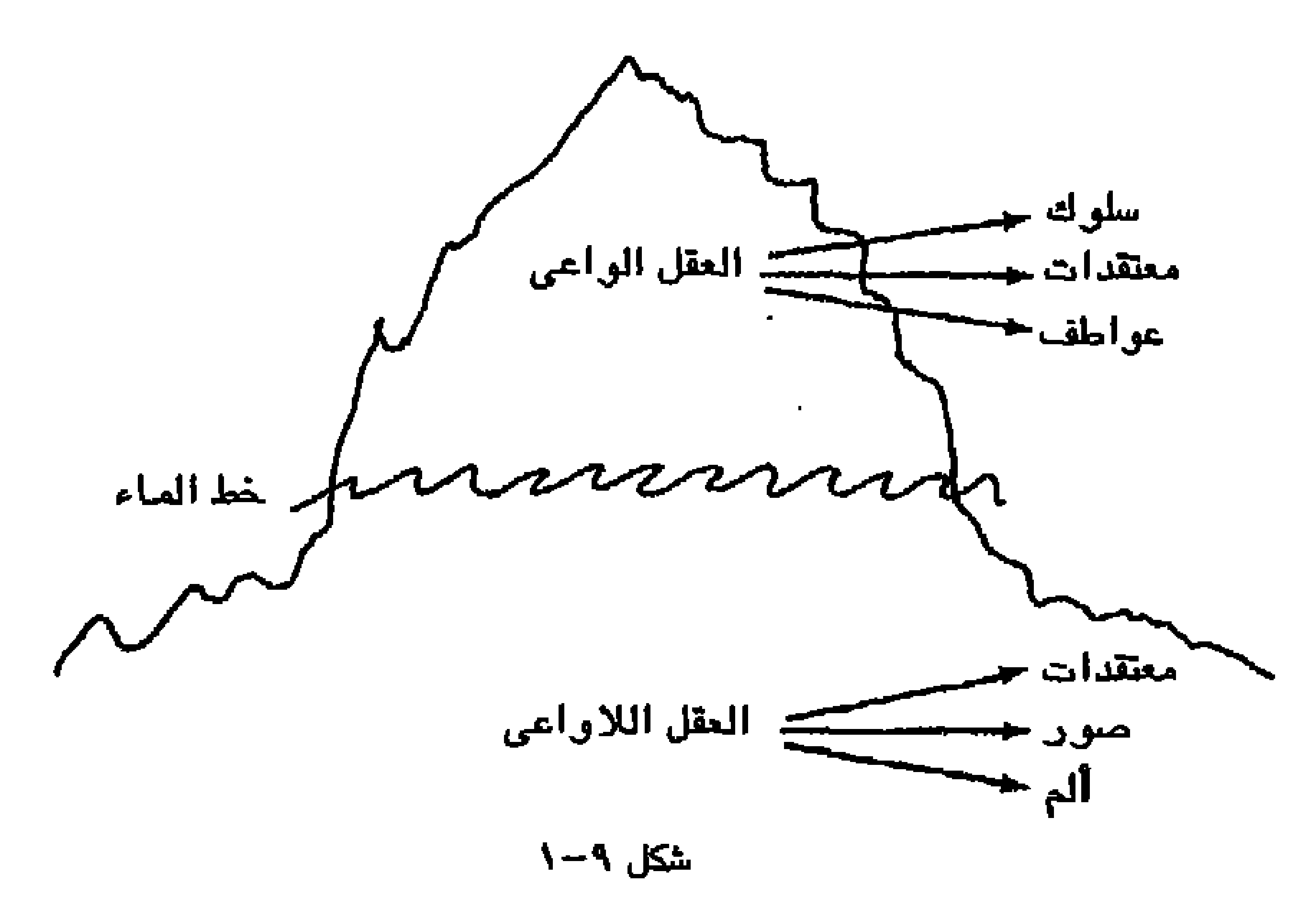
حين يشير أخصائي نفسي إلى فكرة اللاوعي يسرع كثيرون من المسيحيين إلى القول بأن تدريبه الدنيوي له تأثير على تفكيره أكثر من تأثير تعاليم الكتاب المقدس، وبالنظر إلى أن «فرويد» كان أول من يصنف ويؤكد أن قوى العقل اللاواعي تؤثر في السلوك، فقد أصبح من المسلم به بصفة عامة أن الفكر متعلق بالطب النفسي أكثر مما يتعلق بالفكر اللاهوتي، وكان من نتيجة ذلك أنه في حين أن الكنيسة تحض الناس على أن يعملوا ما يدركون أنهم يعرفون عمله، نجد أن أخصائي العلاج النفسي يتعاملون مع ضحايا الكنيسة؛ أي الناس الذين يشعرون أن قوى غامضة في داخلهم تحبط جهودهم التي يبذلونها من أجل الطاعة.

وعلى الرغم من ذلك وُجِدَت حركة متنامية في الكنائس المسيحية أعادت إحياء فكرة العقل اللاواعي، لكن مع تغييرات تختلف عن رأي «فرويد»، لذلك نجد أن المسيحيين التابعين لحركة «العهد الجديد» يعلّمون بأن الشخص اللاواعي لا يُعد مستودعًا لتحفيزات خطرة، وأن الحاجة تدعو إلى فهمه وتقييد حريته، والتركيز هنا يكون على الإمكانيات المخفية في شخصية الإنسان مستودع القدرات الخلاّقة، التي لا ندركها إلى حد كبير، وتحرير الشخص اللاواعي يعادل الاتصال بقوة الفكر الداخلي، أي خلق أمر واقع.

و«العقل اللاواعي» ليست عبارة مشتقة من تفكير «فرويد» الدنيوي الذي تم تسريبه إلى الفكر اللاهوتي المسيحي، وليس أمرًا مثيرًا، بل مصدرًا لم ينتبه إليه أحد، أستطيع أن أصبح به شبيه الإله. ومعرفته بعناصر اللاوعي الموجودة داخل الشخصية متأصلة فى التعليم الكتابي الذي يقول إن القلب مخادع وشرير.

وفي (عبرانيين٣: ١٣) طُلب منا أن نتعامل بصفة منتظمة مع بعضنا البعض، وبطريقة تتداخل مع عملية تُعد أمرًا طبيعيًا بالنسبة للإنسان الساقط، وهي تَقَسِّي القلب الناجم عن خداع الخطية، ويبدو أنه من الممكن، بل هو أمر عادي أن نُخدَع على هذا النحو من ناحية حالتنا الخاطئة، حتى أننا في عنادنا نصبح غير مدركين بفسادنا الداخلي.

فكِّر ثانية في التشبيه البلاغي بالجبل الجليدي، ذلك أنه فوق خط الماء توجد سلوكيات ومعتقدات وعواطف مدركَة أما تحت خط الماء نجد شبكةً من الصور والمعتقدات نرى قبولها، ولكننا نرفض تعريفها بوضوح، ونحن نوجِّه حياتنا على أساس مجموعة من الأفكار نظل نجهلها بدرجة كبيرة. (شكل ٩: ١)



شكل ٩-١

ومعظم كليات اللاهوت المسيحية تؤهل طلبتها للخدمة فوق خط الماء فقط:

- أن يفسروا الكتاب المقدس ويعلنوا الحق ويعلموا الناس ما يؤمنون به.
- أن ينصحوا الناس على أن يسلكوا طبقًا لتعاليم الله.
- أن يشجعوا الناس على المثابرة وعلى الطاعة بغض النظر عن العواطف التي يكنوها.

وكل مهمة من هذه المهام تُعد مشروعة وحيادية وصحيحة، غير أنه إذا لم يتم أي عمل تحت خط الماء، فإن العمل فوق هذا الخط سيؤدي إلى الإفراط في التمسك بالمظاهر الخارجية وهو أمر كارثي، حيث يصبح التناغم المرئي مع المعايير المحلية هو كل ما يعنيهم، وسوف يتسم هذا المجتمع بالإلحاح والإدانة والحرفية والغرور، بدلاً من المحبة العميقة لله وللآخرين.

والرعاة والقادة المسيحيون الآخرون ممن يعملون فوق خط الماء فقط، فسوف ينتجون إما أناسًا آليين، أو متمردين؛ أما الأناس الآليون الذين يتناغمون بشكل معقول مع التوقعات، فيواصلون متابعتهم دون وعي بالآبار المشققة التي لا تضبط ماءً، والصور التي تتمسك بفرصة أن تعيش في إطار قوة مواردها ومعتقداتها، والتي تضع خطةً للوصول إلى تحقيق مآربها (مشاكل تحت خط الماء) تظل دون هوية، بعيدة عن الوعي، وتتشبث بموقعها مع أنها لا تحرز أي تقدم.

المغني المنفرد يغني من أجل مجده الشخصي ويلاقي التقدير لموهبته، كذلك المراهقون يؤدون عباداتهم اليومية وعلى ذلك ينالون الإعجاب باعتبارهم صبية أتقياء، ورجال الأعمال يعطون الكنيسة بكرم ويعاملهم رعاة الكنائس ومديرو الإرسالية باحترام، ويغص شعب الكنيسة بالفريسيين، وهم أناس فوق سطح الماء أطهار وروحيون، لكنهم تحت خط الماء مملوؤن فسادًا ونجاسة.

ويتعين علينا أن نتعلم التعامل مع المشاكل التي تحت خط الماء، والتي تظل كالعادة دون تعريف، ولكنها مع ذلك لها تأثيرات خطيرة على الطريقة التي نعيش بها، وينبغي أن نفهم ما يدور داخل الشخصية، ونعرف كيف نساعد الناس على التعامل مع تلك الأجزاء التي تعوق التحرك نحو زيادة الاتكال على الله.

ويؤكد بعض المسيحيين أهمية مضمون العقل غير الواعي، ولكنهم في ذات الوقت يلفون كل شيء تحت خط الماء في صُرَّة واحدة، ويقدمونها للروح القدس للعلاج، وهم بذلك يتجنبون مسئولية مواجهة الحقيقية الخاصة بالتشويش وقلة الحيلة، ويواجهون بنشاط صورًا ومعتقدات دفاعية من خلال اختبار طريق الاتكال.

«فشفاء الذاكرة»، وحياة متغيرة «البركات الثانية»، تشارك في موضوع واحد وهو مواجهة التوجيهات الخاطئة، والتي يتطلب تحقيقها مشقةً كبيرةً، ولا يحتل الإقلاع عنها الوضع الذي يستحقه في عملية التغيير، ولم تعد الأذهان بعد هي التي في حاجة إلى تجديد، بل وبالأحرى حالة سيكولوجية داخلية لسنا مسئولين عنها (نحن ضحاياها) والتي يجب تغييرها بعملية سرية يقوم بها الروح القدس، ولقد استُبدِلَت التوبة الفعّالة باستسلام سلبي.

وأحسب أنه توجد عمليات تدور داخل شخصياتنا، وتحدد الاتجاهات التي نتحرك فيها والاستراتيجيات التي نستخدمها لحماية أنفسنا من دائرة الألم الشخصية ومتابعة المتعة المتوقعة، وما أن يتم الاعتراف بهذه العمليات إلاّ ويكون هناك ميل قوي - ولكنه خطير - لاستثمارها بهوية خاصة بها. والمعركة تدور رحاها الآن بيني وبينها، وإنني أناضل مع عامل داخلي - لعله شخص آخر- يحاربني من أجل السيطرة، وحين أعمل شيئًا خطأً يلقي اللوم على قوة غيري؛ ولذلك يضعف الإحساس المناسب بمسؤليتي الشخصية، وفكرة التحليل النفسي المعتادة هي أن هذه العمليات - بطريقة ما - تتحكم فيَّ، وأصبح ضحية قوى في داخلي والتي لا تشكّل كينونتي.

وقد أشار «فرويد» إلى النفس الواعية بأنها «أنا» «das Ich» ، والأمر اللافت هو أنه أطلق على الجزء اللاواعي في شخصية الإنسان «الضمير»، وهذا الضمير في اللغة الإنجليزية يُستَعمَل للمفرد غير العاقل «das Es»، ونتيجة هذا التفكير تقسيم شخصية الإنسان إلى: جزء أنا مسئول عنه، وجزء لست مسئولاً عنه. وإنها حقيقة: أننا جميعًا ضحايا، وفي نفس الوقت أدوات، غير أنني لا أعتقد أننا ضحايا عقلنا اللاواعي، ولكننا ضحايا بالطبع لما يفعله الآخرون بنا، ومع ذلك فإن الصور والمعتقدات التي نكوِّنها في سياق بيئتنا تمثل الجهود التي اخترناها لنضفي معنى على عالمنا بطريقة تحافظ على استقلالنا.

والواقع أننا وسائل بالفعل؛ فنحن - وهذا ما نستحق عليه اللوم - نختار أن نشكِّل صورًا تحمينا من الفوضى التي ترعب نفوسنا المستقلة، ونحن - وهذا ما نستحق عليه اللوم - نختار تبنِّي معتقدات تقدم لنا الوعد بالشبع بدون الله.

ولتأكيد وجود حقائق لا ندري بها داخلنا، وهي لا تتطلب بأي حال التهاون إزاء الإصرار الكتابي على مسئولية الإنسان، وليس هناك من حاجة إلى التذرع بمفهوم المسئولية بإنكار الحقائق المتعلقة بالعقل اللاواعي في داخلنا. هناك عقل لاواعي، ونحن ببساطة لا ندري بكل ما نعمله بقلوبنا المخادعة، ولا نريد أن نكون على دراية بما نؤمن به حقًا وبالاتجاه الذي نتحرك حقًا فيه، ولا نريد أن نشعر بالألم العلاقاتي والذي يهدد بتدميرنا، غير أنه يجب مواجهة ألمنا، وكذلك الخطط التي نستخدمها للهروب منه،

والألم قد يدفعنا نحو الرب، أما الاستراتيجيات الخاطئة فيجب مواجهتها بالتوبة وإعادة التوجيه.

وبسبب التزامنا بالاستمرار في السيطرة على عالمنا لغرض حماية الذات، ترانا عازفين عن اختبار ألمنا الذي يبث فينا اليأس، أو أن نتوب عن خططنا الخاطئة؛ وعلى ذلك فإنها حقيقةً أنه ما من أحد يرى نفسه بوضوح ما لم يكشف شخصًا آخر. ولقد قدم الله ثلاث أدوات لتعزيز كشف الذات:

- كلمة الله (عب ٤ :١٢-١٣)
- روح الله (مز ١٣٩ :٢٣-٢٤)
- شعب الله (عب٣:١٣)

وإنها من مسئوليتي أن ألجأ بفاعلية للاستعانة بهذه الوسائل الثلاث لكي أفهم على نحو أفضل الاتجاهات الخاطئة التي أختارها دون وعي وأتعاون معها فيما تسعى لكشف محتويات اللاوعي.

ما هو بالضبط الأمر الذي يتوجب كشفه؟ ما الذي يحدث في داخلي، والذي التزمت بكل عناد ألاّ أواجهه؟ وما هي أجزائي التي تتبع العقل اللاواعي؟ إني أعتقد أن هناك عنصرين أساسين يدخلان في نطاق اللاوعي ويلزم كشفهما:

١- الألم العلاقاتي.

٢- نماذج الانتماء التي تتمتع بحماية ذاتية.

الألم العلاقاتي:

الاعتماد على آخرين للشبع العميق الذي لا يستطيع أن يقدمه غير الله أمر أليم، وبالنظر إلى أنه ليس من بيننا من يتبع الله بطريقة طبيعية أو بشكل تام - باعتباره مشبع النفوس - لذلك يواجه كل واحد منا نوعيةً من الألم، ونحن نتألم بسبب خوائنا ونرتجف في ضعفنا.

غير أن كثيرين يقولون إنهم في أسوأ الحالات يشعرون بشيء من الوحدة، أو أحيانًا بحزن أعمق، ومعظمنا يعرفون الغضب والطمع والأنانية أكثر مما يعرفون الألم العميق، لماذا؟ إذا كان هناك فراغ مركزي ينبض في قلب كل شخص لا يثق في الرب ثقةً كاملةً في أن يعطيه كفايته، فلماذا لا يشعر به الكثيرون؟

وحاملو الصورة بوسعهم أن يتعاملوا مع تطلعاتهم بطريقة واحدة فقط من طريقتين؛ إما أن نلجأ إلى الله ونتشبث به بعناد حين تهدد الحياة بتمزيق نفوسنا ذاتها، أو بوسعنا إنكار عمق ألمنا ومعناه، ومواصلة العمل لكي نشعر بتحسن دون التضحية باستقلالنا، وليس أحد منا يختار تمامًا الخيار الأول، بل ومعظمنا لا يوليه أي تفكير.

والأمر المهم الذي يجب ملاحظته هو أنه بهدف المحافظة على التزامنا بالكفاية الذاتية، يجب التقليل من شدة إخفاقات الحياة التي لا تُحتَمَل، وأعظم إخفاقات الحياة تحدث في أوثق خلافاتنا؛ فحيث نتكل ونطلب أقصى غاية، هنا نشعر بضراوة يأسنا بسبب آمالنا التي لم تتحقق، وبالنظر إلى أننا اخترنا أن نهون من ألمنا البالغ يظل الألم العلاقاتي قائمًا دون أن يُعرف، ونصبح غير واعين به.

استراتيجيات علاقاتية:

غير أن الألم لا يزال موجودًا، ويدفعنا حافز للحصول على الراحة، ونحن - ككائنات علاقاتية - نضع خططًا للاستجابة للحياة من شأنها أن تحفظ الألم بعيدًا عن إدراكنا، ونحن نأمل أن نحصل على الأقل على قدر من الإشباع الذي نريده. وتظهر الخطط الخاصة التي نضعها كنتاج لصورنا التي عملناها لأنفسنا والعالم، ومعتقداتنا بالنسبة لما يمكن عمله.

وتتكون خططنا بالضرورة من أساليب العلاقة المتبادلة بين الأشخاص، والتي تساعدنا على إنجاز ما نريد: مستوى من البعد عن الآخرين يضمن عدم تعرضنا لمزيد من الأذى، ومستوى من الاتصال يتيح للآخرين أن يتصلوا بنا بطرق جيدة، ومن الصعب الحفاظ على هذا التوزان؛ فهو قريب بما فيه الكفاية لتأكيده، وبعيد بما فيه الكفاية لأنه يتضمن قدرًا من مخاطرة التعرض لأذى خطير.

وبعض الناس يرحبون بالإذعان بلياقة، وذلك في جهودهم التي ترمي إلى تجنب الصراع، ولقد سألت أحد المشاركين فى الدراسات اللاهوتية وكان قد طلب وقتًا للدردشة عما يمكن أن يفعله إذا قلت له بفظاظة: «كلا، إنني لا أشعر بأن لديّ ميلاً للحديث معك هيا انصرف»، فابتسم وقال: «أعتقد أنني قد أشعر بقليل من الاستياء، لكن سوف أشكرك ثم أنصرف لحال سبيلي». وآخرون قد يردون بشكل مختلف، والبعض قد يتصرفون بفظاظة ويبدون مرحبين فعلاً بالدخول في صراع، ومع ذلك قد يقدم آخرون أنفسهم على أنهم يتسمون بالهدوء والحكمة والقوة.

وعلى الرغم من أن الخلافات الطبيعية هي المسئولة عن الكثير من الأسلوب المتبادل بين الأشخاص؛ فوراء كل طريقة من تحديد العلاقات انتماء يُمكنا من أن نجد التزامنا بمراعاة المصالح الشخصية والتصميم على حماية المرء لنفسه من المزيد من الألم العلاقاتي، ومع ذلك فإن معظمنا لا يدرون بدوافع الحماية القابعة في خلفية خططنا الاجتماعية، ولم لا ؟

في (أمثال ٢٠ :٥) وُصفت مقاصد قلب الإنسان بأنها مثل مياه عميقة، وفي المياه الضحلة بوسعك أن ترى القاع، ولكنك في المياه العميقة لا تستطيع ذلك. وجزء من خداع النفس الذي نمارسه يتمثل في إنكار حقيقة أهدافنا إلى درجة أننا ببساطة لا نراها، وليست الأهداف فحسب، بل وأيضًا الموضوع الفريد أو أسلوب التعامل بيننا يبقى غير محدد الهوية، وقد ننظر لأنفسنا على أننا نتسم بالهدوء أو العدوانية أو الطيبة، غير أنه من النادر أن نعرف بدقة كيف نتفاعل مع الآخرين، والغرض من وراء سلوك معين. وإنه لمن مصلحتنا - كأناس مستقلين - أن نُبقي إدراكنا مُبهَمًا، وحين يتم الاعتراف بالأسلوب المتبادل بين الأشخاص بدوافعه الحقيقية سوف نجد أنه - دون جدال - يتسم بالتلاعب وحماية الذات وعدم المحبة، والأسوأ من ذلك، أن اعترافنا بحماية أنفسنا من المزيد من الألم يقترب بالألم الموجود بالفعل - وبشكل خطير - على مقربة من سطح إدراكنا.

وعلى ذلك فإن الاستراتيجيات الخاطئة، والتي تستخدمها في التلاعب بالناس من أجل مصلحتنا، تجدها مخفيةً عن الأنظار بشكل متعمد، وذلك أنها تأخذ مكانها في العقل اللاواعي. وليست الأهداف فحسب، بل وأيضًا الموضوع الفريد أو أسلوب التعامل بيننا يظل دون أن نتعرف عليه. وقد ننظر لأنفسنا على أننا نتسم بالهدوء أو العدوانية أو الطيبة غير أنه من النادر أن نتعرف بدقة كيف نتفاعل مع الآخرين والغرض من وراء السلوك المعين، وأنه من مصلحتنا كأناس مستقلين أن نترك مفهومنا مبهمًا. وحين يتم الاعتراف بالأسلوب المتبادل بين الأشخاص وبتحفيزه الصادق سوف نجد أنه - دون جدال - يتسم بالتلاعب وحماية الذات وبعيد عن المحبة والأسوأ من ذلك أن اعترافنا بحماية أنفسنا من المزيد من الألم يأتي بالألم الموجود بالفعل وبشكل خطير على مقربة من سطح إدراكنا. وعلى ذلك فإن الاستراتيجيات المخطئة والتي نستخدمها

في التلاعب بالناس من أجل مصلحتنا تجدها مخفيةً عن الأنظار بشكل متعمد ذلك أنها تأخذ مكانها في العقل اللاواعي.

والمشورة التي تهدف إلى تعزيز النضج بتشجيع الناس على التنازل عن استقلالهم، وأن يتكلوا على الرب، يجب أن تهتم بأية عناصر موجودة في الذهن قد تغذي الالتزام بالاستقلال، وينبغي علينا كشف الألم الذي كان من شأن وجوده أن يشهد بعدم فاعلية خططنا الحمقاء للتخلص منه، كما أنه على المشيرين الكتابيين ألاّ يقتصر عملهم على التعليم والإقناع فقط، بل عليهم أيضًا الكشف والتنقيب؛ فعليهم البحث عن :-

١- الألم العلاقاتي الذي تم إنكاره، والناجم عن خيبة الأمل بالنسبة للتطلعات.

٢- الاستراتيجيات الخاطئة الماكرة التي لم يُعترَف بها، والتي ترمي إلى الحماية من مزيد من الألم.

وإذا كان إخفاء هذين العنصرين من شأنه أن يساعد على المحافظة على التزامنا بالاستقلال، وإذا كان التحرك نحو الصحة يتطلب الضعف المتمثل في الاتكال، فعلينا في هذه الحالة أن نأتي بهما إلى السطح ونتعامل معهما، ولكن كيف؟ ما الذي يتوجب علينا عمله بالنسبة للألم الذي نشعر به واستراتيجياتنا المعترف بها؟ الإجابة تدعونا إلى التفكير مليًا في التوبة.

التوبة:

إذا كان الفشل في التمتع بالله الذي يشبع كل تطلعاتنا هو السبب وراء كل شكل من أشكال المِحَن الشخصية، وإذا كانت الخطية هي أساس كل عقبة تعترض التمتع بالله، هنا يجب أن تكون التوبة - وهي الابتعاد عن الخطية - أساس مفهومنا للكيفية التي يمكن أن يتم بها التغيير.

وكان موت ربنا الكفاري قد أوفى بمطالب إله قدوس ضد خطيتنا، وبالإيمان بالمسيح غُفرت لنا خطايانا ودخلنا في علاقة وثيقة مع إله محب، وفي شركة ذات هدف مع إله له السيادة؛ وعلى ذلك يصبح بمقدرونا أن نعيش على النحو الذي قُصد لنا أن نعيشه في علاقة وتأثير.

والدخول في هذه العلاقة يتطلب التوبة، وتغييرًا كاملاً في تفكيرنا، وعلينا أن نتخلى عن الفكرة الحمقاء بأن الحياة متاحة من خلال اتكالنا على أنفسنا، ونقبل الحياة التي يقدمها لنا المسيح بانسحاق واتضاع.

وكما أن الدخول في علاقة مع المسيح لا يمكن أن يحدث بدون توبة، فإن تطوير هذه العلاقة يتطلب أيضًا توبةً متواصلةً وتظل الخطية هي مشكلتنا وهي عدو تمت هزيمته وتمت مغفرته، ولكنها لا تزال نشيطة، ونحن نشعر داخلنا بميل نحو الاكتفاء الذاتي، وهو ميل لا يمكن التزحزح عنه بسهولة. وثمة حرب أهلية لم تكن معروفةً قبل التجديد، ولكنها تندلع بعده، وهي حرب تنشب بين الجسد والروح؛ فالجسد - الإنسان الذي يعيش طبقًا لآرائه عن الكيفية التي يجد بها الحياة - يقف في تناقض تام مع الروح (الإنسان في اعتماده كلية على الله في حياته) . وعمل التوبة هو:

١ - التعرف على تلك التداخلات مع الحياة، والتي تشكِّل فيها الحماية من الألم الشخصي أولوية على إطاعة الله.

٢ - استبدال التلاعب بالناس من أجل الحماية الذاتية بالطاعة التي تجعلنا في موقف الضعف.

والتوبة تتضمن عملاً أكثر صعوبةً من الاعتذار عن انفعالنا وحدتنا والوعد بألاّ نعود إلى ذلك إطلاقًا. والخطية المخفية عن النظر تحتاج إلى عملية لاجتثاثها مثل الورم الخبيث، والألم العلاقاتي ينبغي كشفه لكي نفهم الغرض الحمائي الذي تهدف إليه الاستراتيجيات الخاطئة، والذي يجعل الاستراتيجيات خاطئة هو الغرض الذي ترمي إليه؛ فإذا كانت تهدف إلى تجنيب المزيد من الألم العلاقاتي، إذن لابد من التعرف على هذا الألم للاعتراف بعملها الحمائي.

الرجل يفقد أعصابه ويصرخ في وجه زوجته، وقد يدرك أن سلوكه خاطئ ويطلب المغفرة بإخلاص - وهذا مثال للتوبة التي لها معنى، ولكنها توبة غير كاملة - أما إذا تقبل اختيار الألم الذي كان يشعر به، والذي كان السبب في نوبة غضبه، هنا يكون قد اقترب بالأكثر من معرفة أن وراء حدته الهدف الخاص بحماية الذات: «سوف أخبئ ألمي وراء نوبة الغضب لأمنعك من معرفة مدى ضعفي»!

والآن، وإذ أصبح يعرف ألمه العلاقاتي وخططه الحمائية، بوسعه أن يتوب توبة نصوحةً، وإذ يستشعر المخاطرة التي تتضمنها هذه الخطة، فبمقدوره أن يتخلى عنها لتفادي المزيد من الألم لصالح رغبته في الانخراط بشكل أعمق مع زوجته وهو واضع

في ذهنه خيرها الشخصي. وما يعمله بالفعل فيما يتعلق بزوجته ـ سواء المشاركة بألمه، أو التغاضي عما أثار غضبه، أو تعبيره عن غضبه بأسلوب أكثر تحملاً للمسئولية، أو التحرك نحوها بمزيد من الحب ـ يعتمد بالأكثر على العمل الذي يتعارض بالكامل مع نماذجه المعتادة الخاصة بحماية الذات. ويمكن قياس مدى صلاح سلوكه بمدى ما يبتغيه من إرضاء زوجته، وليس حماية نفسه؛ فالهدف الأول هو السلوك في الروح، والثاني هو السلوك في الجسد.

والتغيير الحقيقي لابد وأن يصاحبه أمران: المغفرة والتشابك، وينبغي علينا أن نغفر للآخرين أنهم خذلونا إلى هذه الدرجة العميقة. وقيمة المغفرة تكمن في معرفتنا ما يحتاج إلى مغفرة؛ فإذا سمعت أنك أبديت عني ملاحظة قاسية ربما لن تكون المغفرة صعبة، وإذا اكتشفت أنك اغتصبت زوجتي فالأمر هنا سيكون مختلفا تمامًا، والمغفرة الحقيقة تتطلب معرفةً تامةً بمدى الإساءة.

وعلى ذلك فإنه من الضروري أن نعرف تمامًا ألم الفشل العلاقاتي قبل أن يتسنى لنا أن نغفر تمامًا لأولئك الذين خذلونا، ويجب مواجهة الألم العلاقاتي إذا أردنا أن نسامح.

وبعد ذلك ينبغي أن تتشابك مع أولئك الذين ألحقوا بنا الأذى، وأولئك الذين من المحتمل أن يؤذونا، ولا يجب أن تتسم علاقاتنا بالآخرين بالانسحاب أو لكي نحمي أنفسنا. وطاعةً لوصية الله بأن نحسن إلى أولئك الذين يستغلوننا عن حقد، ويجب أن نتجه نحو الآخرين دون أن نفكر في حماية ذاتية، ولا يدفعنا إلى ذلك سوى رغبتنا في الخدمة فقط.

المغفرة والتشابك، وهما العنصران اللازمان للتغيير الحقيقي، هما من الثمار الواضحة للتوبة العميقة، وحين أتخلى عن التزامي بالحماية الذاتية؛ حيث أرى فيها غطرسةً وتمردًا موجودين بالفعل، هنا يكون بوسعي أن أسامح أولئك الذين أعاقوا هدف حماية الذات وأتشابك مع أولئك الذين قد يلحقون بي الأذى مستقبلاً. وما أسميه توبةً عميقةً ـ وهي من النوعية التي يمكنها أن تدعم المغفرة والتشابك ـ تتطلب الكشف عن ألمي والتزامي بحماية الذات، وكذلك رغبةً حاسمةً بأن أسلم نفسي للطاعة والثقة.

وكثيرون لم يتوبوا بعمق على الإطلاق، لأنه ليس لديهم الرغبة لمواجهة الألم والتخلي عن حماية الذات، والبعض يعتقدون أنه حينما نغوص في قلب كياننا المتمسك

بعناد بمعتقداتنا البالية، فإنه تنتظرنا مفاجأة سارة؛ فبدلاً من الكشف عن الأذى والفساد، فإنهم يتوقعون أن يجدوا مخلوقًا جديدًا يريد أن يعمل الخير دائمًا، وإطلاق سراح الإنسان الباطن لكي يعبِّر عن نقائه هي طريقة مؤسسة على سوء الفهم.

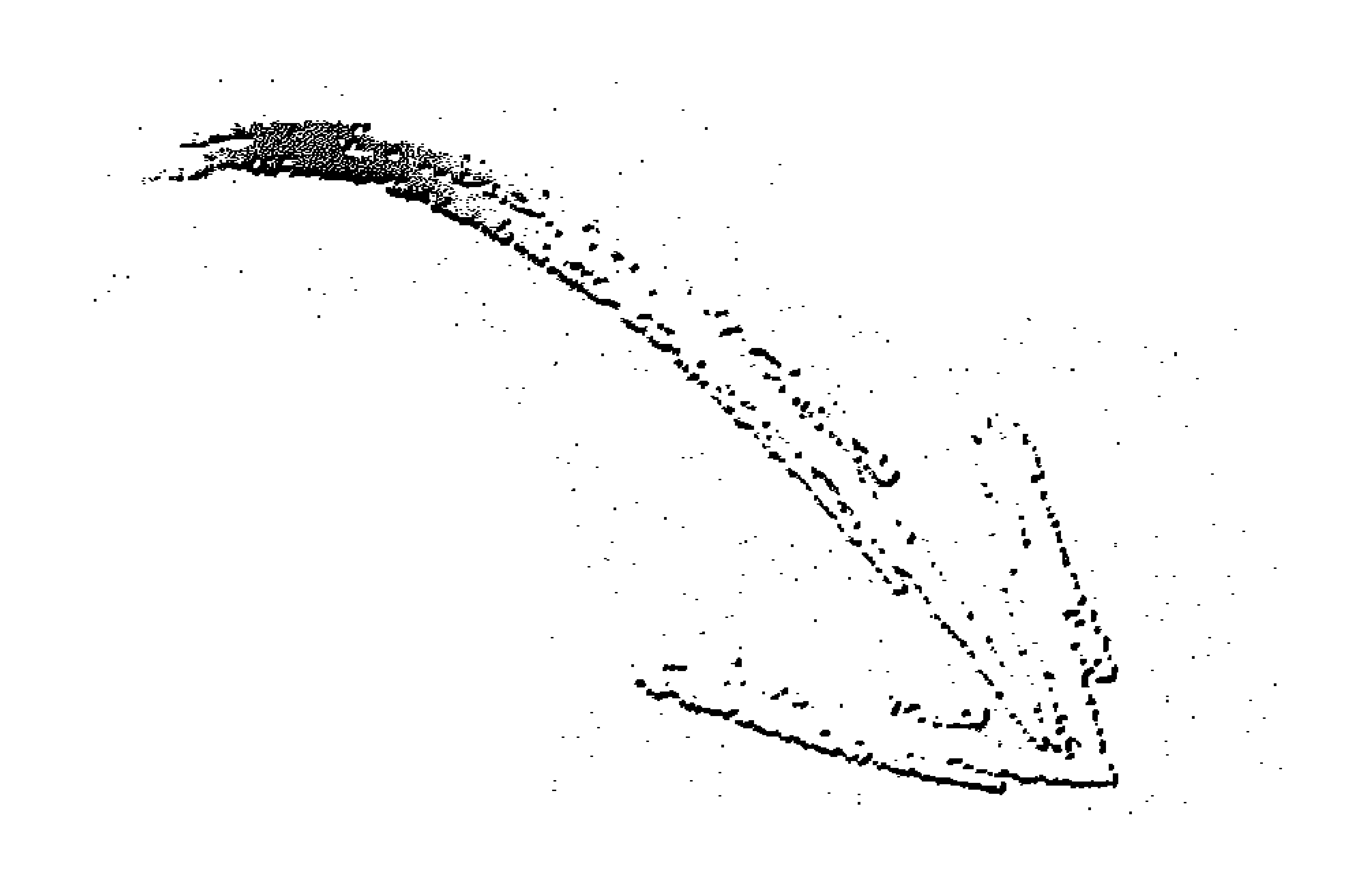
وفي وجهة النظر هذه اختُزِلَت التوبة إلى محاولة فهم شيء، ثم إطلاق نفس صالحة افتراضية، وليس التنازل عن الالتزام بحماية الذات، واختيار طريق الطاعة عن وعي وإرادة.

وفي قلب الشخص المتجدد إنسان له اشتهاء وقد فسد تمامًا بحلم السعادة من خلال الاستقلال بذاته، وفي أية لحظة معينة نرى هذا الشخص يختار أن يعيش بالفعل بأفكاره الحمقاء عن الاستقلال، أو بسبب التوبة والإيمان يعترف باتضاع باتكاله العميق، ويختار أن يعمل كل ما يقوله الله، مهما كان الثمن.

ومن خلال التوبة العميقة - تَرْك أساليب الاستغلال في العلاقات بغرض مخاطرة التشابك مع الآخرين - يتم التمتع بالله ومحبة الناس، ومسامحة أولئك الذين يؤذوننا والتحرك في أي اتجاه تتطلبه الطاعة، يقوم على أساس التوبة، والنتيجة هي معرفة أعمق بمحبة المسيح لنا، والقيمة التي أولاها لنا في خطته الخاصة بالتلامس مع الآخرين.

والصور الدفاعية عن أنفسنا - كأناس يتسمون بالفظاظة والضلال والغباء، أو غير مرغوب فيهم - تتحول تدريجيا إلى صور أكثر دقة عن أنفسنا باعتبارنا أولادًا محبوبين، والمعتقدات الخاطئة عن العثور على الحياة من خلال الاستغلال وحماية الذات، تحل محلها حكمة معرفة أن الطاعة هي طريق النوح فتمتلئ دوائرنا العقلانية.

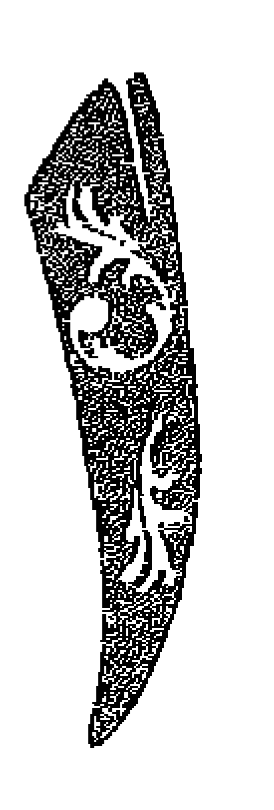
والتوبة هي التي ستبدأ عملية امتلاء دوائرنا العقلانية، وأخيرًا دوائرنا الشخصية. ويُعد كشف الألم المخفي والخطط الخاطئة هو الخطوة الأولى. وتتواصل العملية فيما يعمل حامل الصورة التائب ما لا يستطيع عمله إلاّ حامل صورة؛ فيتحرك باختياره صوب هدف مختار، ولكي نفهم ما تتضمنه التحركات نتحول الآن إلى العنصر الثالث في تعريفنا للشخص الذي يحمل صورة الله وهو القدرة على الاختيار.





الفصل العاشر

حرية الاختيار
"الناس إراديون"





ما من أحد منا يحب الفوضى لأنها تقضي على إحساسنا بالكفاءة، ونحن نشعر بأننا على خير حال حينما نعرف ما الذي نعمله، وما الذي نتوقعه، ويلتف بأحكام حول جوهر شخصيتنا الساقطة طلب طاغ بأن نكون في موقع السيطرة، ولكي نلبي هذا الطلب، يجب أن نعيش في عالم يمكن فهمه وقابل للتنبؤ؛ فإذا عرفت كيف تسير الأمور وما ينجم عن كل عمل، يكون الأمر واقعيًا أن آمل في أن يكون بمقدوري تحقيق أحلامي، أو على الأقل عدد قليل منها.

والفوضى تُعد تحديًا خطيرًا يواجه رغبتنا في السيطرة، والتعقيدات التي لا أستطيع تنظيمها إلى نوعيات طيعة تسلبني فرصة الاضطلاع بالمسئولية بثقة.

وحين تعطلت سيارتي وأنا على امتداد طريق مهجور شعرت بعدم الارتياح، وبأني أواجه تهديدًا. والافتقار إلى الشعور بالطمأنينة يرجع - في جزء منه بالطبع - إلى التوقع الحقيقي بالتعب البدني واحتمال التعرض للخطر، لكن الأمر كان يتضمن ما هو أكثر من ذلك؛ فقد كنت أعرف أني لست مسيطرًا على شيء يهمني، وحين يخرج مصيري من يدي حتى لدقائق معدودة، يختل شيء ما في أعماقي.

وتنوع الأسلاك والمزاليج والسيور التي تحت غطاء (كبوت) السيارة يتشكل بالنسبة لي ارتباكًا، أو فزورة لا أستطيع فهمها. أعرف أن هناك كتيبًا لكل ما هو موجود هناك، ولكن لا أفهم منه شيئًا، إنه مفيد للشخص المختص، ولكنه لا يفيدني في شيء، وبدون وجود ذلك الشخص المختص معي وأنا أحملق في محرك السيارة، أشعر بصغري

وغباوتي وعدم كفاءتي؛ فأنا خارج السيطرة تمامًا، ولا أحب هذا الشعور. وتُعد الفوضى من أعداء الشخص الذي يريد أن يكون في وضع السيطرة، والإنسان الذي سقط في الخطية، والذي التزم بأن يرعى حياته بنفسه، يجب أن يتغلب على الفوضى أو يتجنبها إذا أراد أن يتمسك بإحساسه بالسيادة. فكِّر في كل الكتب والدراسات اللاهوتية التي وعدت بأن توضح لك على وجه الدقة ما يتوجب عمله لتنمو كنيستك، أو ليعطيك أمانًا ماليًا، أو لتجعل من عائلتك جماعة سعيدة من أناس لهم فعاليتهم. ومعظم هذه الوعود ليست في جانب غرضنا النبيل كليةً.

وحين نواجَه بالفوضى التي لا يمكن إنكارها لن يكون أمامنا سوى خيارين فقط للتعامل معها:-

١- اعتمد على شخص يساعدك شريطة ألاّ يكون ممن يعانون من الفوضى.

٢- استبدل الفوضى بالفهم.

والخيار الأول يهدم تمامًا أساس رفضنا الاعتراف باتكالنا وعدم استقلاليتنا وخصوصًا أن الشخص الذي لجأنا إليه يقول لنا إن مساعدته لا يمكن الاستغناء عنها، وهذا ما يجعلنا نشعر بالضعف (بل ربما نحاول اللجوء إلى أسلوب الفوز في المباريات الرياضية بطرق مريبة دون خرق فعلي لقواعدها لكي نبقى إلى حد ما مسيطرين على الخبير الذي نستشيره لأننا نخاف من الاتكال الحقيقي).

ويبدو أن بعض الناس ينجحون في التعامل جيدًا مع هذه المهمة؛ فكلنا لدينا أصدقاء يستطيعون أن يتكلموا بثقة وبالتفصيل عن أي موضوع يُثار، ويبدو أنه ليس بمقدور الحقائق المناقضة أو الخبرة الواضحة لشخص آخر أن تحطم أو حتى تخدش ثقتهم، وعلى الرغم من ذلك فإن معظمنا واقعي إلى حد ادِّعاء أننا نعرف كل ما يحتاج الأمر إلى معرفته، وفيما نواصل حياتنا العادية كثيرًا ما تعترضنا مواقف تربكنا.

هل يجب أن أسمح لأطفالي بمشاهدة هذا البرنامج التليفزيوني، أم أجعلهم يقضون مزيدًا من الوقت في القراءة؟ أعتقد أن ابنتي ربما تكون نائمة مع صديقها، هل أسألها؟ هل أوفي بجميع احتياجات أولادي؟ هل أشتري لهم أكثر من اللازم، أم أقل مما هو مفروض؟

هل تغيير وظيفتي فكرة جيدة، أم مجازفة؟ وهل يقودني الله لتغيير مهنتي؟ وأية نوعية من وثائق التأمين يتوجب عليَّ شراؤها؟ هل أستطيع تحمل نفقات السيارة الجديدة؟ إن زوجتي لا تعتقد ذلك، هل ينبغي أن أسمع نصيحتها باعتبارها معينة لي، أم أعمل ما أقرره أنا باعتباري قائدًا لها؟

ما عسى أن أفعل بالنسبة لانجذابي الجنسي القوي لمساعد راعي كنيستنا؟ هل يتوجب عليَّ إخباره؟ هل أعترف لزوجي بهذا الأمر؟ هل سيواجه أولادي مشاكل جنسية بسبب المشكلة التي تواجهني؟ هل هذا نوع من تأديب الله؟ لماذا أشعر بأنه لا رغبة لي في ممارسة الجنس مع زوجي؟ إنه شخص لطيف جدًا، لعلي أحتاج إلى مشورة، ولكن من الذي ينبغي أن أستشيره؟ هل أجبر نفسي على مواصلة الأمر على الرغم من شعوري بالإحباط؟ لماذا لم أعد أتمتع بحياتي كسابق عهدي؟ لماذا أبكي كثيرًا بدون سبب؟ لماذا تغيظني عبارات المدح؟ هل يجب عليَّ استعمال علاج مضاد للاكتئاب، أليست الثقة في الله كافية؟ ولكن كيف أفعل ذلك؟

القرارات التي يتوجب علينا اتخاذها كل يوم تكشف عن تشككنا، والمبادئ الكتابية تقدم لنا تعليمات واضحة عن بعض الأمور - على سبيل المثال لا تدخلي في علاقة غرامية مع القس المساعد - غير أنه بالنسبة لمعظم الموضوعات فإنها تضع لنا خطوطًا عريضة فحسب، ويبدو أنها جاءت بصيغة عامة بحيث لا توفر لنا الإرشاد الواضح الذي نريده. والحقيقية هي أننا نقضي حياتنا في اتخاذ قرارات - وبعضها مهم للغاية - وذلك في مواجهة فوضى لا حل لها، وهذا ما يشعرنا بعدم الارتياح، وأناس قليلون هم الذين يتحملون الالتباسات بشكل جيد.

ونحن لا يروقنا أن نثق في الله بقبول الفوضى باعتبار أنها جزء من الحياة، ثم نتحرك بحسم في خضمها؛ وبالتالي نتعرض لضغط قوي حتى نقلل هذا الارتباك إلى الدرجة التي يمكن معها تجاهله، وسوف نسترد - وبأي ثمن - ذلك الشعور بالسيطرة؛ فنحن لا نحب اتخاذ قرارات دون أن نعرف العواقب التي تترتب عليها.

وإذ يحفزنا الغضب والخوف، نفرض آنذاك نظامًا على عالمنا، الغرض الأساسي منه استعادة الوهم الذي يشعرنا بالارتياح بأننا سنستعيد تمامًا السيطرة الشخصية.

والمعيار الحاسم الذي نقيس به مدى كفاءة جهدنا لفهم الأمور قد لا يكون على أساس مدى تناغمها مع الواقع؛ فمدى تناغم أفكارنا مع حقيقة الأمور لا يشكل النقطة المهمة، نحن نشعر بالسعادة لأن نكون على صواب، لكننا نهتم بالأكثر بأن نكون أقوياء، وجهدنا المفرط للمحافظة على استقلالنا الذي نعتز به، يدفعنا إلى التعلق بتوضيحات تتيح لنا المناورة في الحياة بكل ثقة. والدقة ليست هي الموضوع، ولكن الفاعلية الظاهرة هي الأهم.

وكان من نتيجة ذلك أن تشوهت قدرتنا على الاختيار، والتي هي موضع تركيز هذا الفصل، وأصبحت سلاحًا لمقاومة الاعتراف بأننا في الواقع لا نعرف الكثير، ولذلك نحتاج إلى المساعدة، وأن تكون جازمًا أفضل من أن تكون متشككًا، والمدير القوي المتشدد الذي يكون في مكتبه الساعة السادسة والنصف كل صباح، والذي يترأس اجتماع مجلس الإدارة بمهارة فائقة وثقة تامة، ربما تجده أبعد ما يكون عن فهم معنى أن يكون الإنسان كائنًا متكلاً ولا يزيد في ذلك عن المراهق الذي يتصل هاتفيًا بفتاة جميلة يطلب منها موعدًا وقد يحس ذلك المراهق بصحة كلمات ربنا التي قال فيها: «بدوني لا تقدرون أن تعملوا شيئًا» (يوحنا ١٥ :٥) بأكثر مما يحس بها المدير.

نحن نريد أن نكون في موقع السيطرة، وإنه لأمر حسن حين نشعر بأننا نعرف ما نعمله، وإنه من الصواب أن نعرف قدراتنا وأن نعتزم استخدامها بثقة، غير أن تلهفنا على السيطرة يفسد الرغبة المشروعة لأن نتحرك بمهارة في الحياة، وبصفة خاصة حين نحاول أن نفهم ونتعلم التعامل مع شخصية الإنسان.

والناس معقّدون أكثر من اللازم، ولذلك تراهم يتشددون حتى في قبول التفسير الشامل والمؤتمن، والوالدان لا يستطيعان تقييم ابنتهما المتمردة بدرجة دقيقة تسمح بظهور طريقة واضحة وصحيحة للتعامل معها، وبرغم ذلك عليهما أن يستجيبا، وهما يتلهفان على أن تثبت في النهاية صحة ما تم عمله.

والمشير الذي يحاول إضرام شرارة من الأمل في مستشيره الذي تمكن منه الاكتئاب بصورة شديدة، يعرف أن ما يعمله ستكون له نتائج مهمة، طيبة كانت أم سيئة، غير أنه لا يوجد اتفاق عام بالنسبة لأسلوب المحترفين بمقدوره أن يتبعه بكل ثقة

فما يعمله قد يكون خطأ، وإنكار المخاطرة فقط هو الذي يستبعدوه، والضغط من أجل الخوض بثقة في وضع غامض قد لا يحرف قدرتنا الاختيارية ويحولها إلى سلاح عدواني ضد الفوضى فحسب، بل ويخلق أيضًا سبلاً لوضع نهاية قبل أوانها فيما نفكر في تدبر الأمور: «حسنًا، لقد توصلت الآن إلى حقيقة الأمر، نعم أستطيع أن أرى بوضوح ما يحدث هنا، وأعرف تمامًا ما الذي يتوجب عمله» وإنه لأمر طيب أن نستبدل الفوضى باليقينية.

وما أن نفهم شيئًا إلاّ وترانا لا نريد أن نواصل التفكير فيه، لأننا نشعر وعن حق أن وراء فهمنا الواضح متاهة معقدة تتكشف المزيد من التأمل، وحين يهددنا المزيد من التفكير بأنه سيؤدي إلى الفوضى فإن الاستقرار على وضع دفاعي جازم يشعرنا بالارتياح.

غير أن هناك ثمنًا يتعين دفعه لحجب الفكرة، ذلك أن الأمر ينتهي بنا إلى أن نبخس من قدر الحقيقة حتى التفاهة، ونقبل التوضيحات الانتقائية التي تتجاهل الأسئلة الصعبة، وتركِّز على تأكيد ما لدينا من معلومات، وننجذب إلى نوعيات دقيقة وصيغ أنيقة، وإلى النظريات التي تم تحديدها بعناية؛ فهذه تمدنا بالشعور المريح حتى نستطيع تدبر أمورنا.

والميل إلى التهوين من شأن الأمور لكي نتمسك بوهم السيطرة الشخصية، أمر واضح في معظم نظريات المشورة سواء الدنيوية منها أو المسيحية، والنظريات الديناميكية النفسية تميل إلى التقليل تبسيط الأشواق والتطلعات العميقة إلى حفنة من الدوافع والحوافز، وتصبح البصيرة النيرة والتنفيس catharsis ، وتقوية الأنا، وسيلة التعامل مع هذه الأمور، وإذا تملك إنسانًا توق شديد إلى شيء، دعه ينضج بواسطة العلاج.

وأحيانًا يقلل المسيحيون من شأن التطلعات العميقة بافتراضهم أنهم سيختبرون إشباعها تمامًا وفورًا في لحظة تسليمهم الحياة بالكامل للمسيح.

والمعالجون الذين يستخدمون العلاج المعرفي، يسلبون أحيانًا القدرات العقلانية تعقيداتها، وذلك بذكرهم مجموعة معينة من الأفكار اللاعقلانية التي يجب تحديها من خلال المواجهة المعرفية وإعادة بنيتها. وتكرار الإنسان عبارات معقولة لنفسه بشكل

قسري، يُعد وسيلة فعّالة لتعزيز تغيير عميق، وهناك قساوسة كثيرون جدًا أضفوا الصبغة المسيحية على ذلك النهج بتعليمهم أن الاستغراق في الكتاب المقدس بحفظ الآيات عن ظهر قلب ودراسته والتامل فيه ستكون فيه الكفاية.

والعنصر الثالث للشخصية ـ القدرة على الاختبار ـ تم التقليل أيضًا من شأنه لدرجة وصفه بالتفاهة وبتركيزي في هذا الفصل على قدرة الإنسان على الاختيار (حرية الإرادة) لم أقصد أن أبسِّط الأمور بأكثر من اللازم، وأقلل من شأن الإرادة وكأنها شيء يمكن وضعه في صرة أنيقة. وأعمال الله التي صنعتها يداه تعكس دائمًا بعضًا من سر خالقها، ونحن نظلم أنفسنا كحاملي صورة مختارين حين نتكلم كلامًا سطحيًا عن الإرادة بأنها لا تزيد عن أن تكون قوة العزيمة.

البنت التي تعاني من فقدان الشهية للطعام وترفض الأكل، أو السيدة المصابة بالشره المرضي والتي تحتاج إلى تطهير معدتها بعد أن التهمت بشراهة ما لذ وطاب في حفل مرح صاخب، تثير فينا الإحباط والاشمئزاز: «لماذا لا تأكل بشكل سليم فحسب؟» ونحن نفترض ـ وعن ثقة ـ أن أصل المشكلة هو عدم الشعور بالمسئولية، ولنفس السبب نشعر أن مؤلفي الكتب الإباحية عليهم أن يَحرِقوا كتبهم القذرة، وأن المثليين يجب أن يواعدوا نساء، وأن الذين يعانون من الإرهاب عليهم مواجهة ما يخيفهم.

وفي مواجهة هذه المواقف، فإن التعاطف مع هؤلاء الأشخاص، أو تناول مشاكلهم بأمانة من الأمور التي تضيع نتيجة الغضب منهم والغيرة على النواحي الأخلاقية: «عليكم أن تراجعوا مواقفكم، وتعودوا إلى الصواب، وأن تعملوا ما هو صحيح، وأن تعيشوا في إطار إحساس بالمسئولية» ولا يحتاج الأمر إلى أن تقول أكثر من هذا، واهتمامي بهذه النوعية من التمسك بالأخلاقيات لا يَنصب على إصرارها القوي على التعليم الخاص بمسئولية الإنسان؛ فالعلاج النفسي وعلم النفس واجها ـ وعن حق ـ انتقادات كثيرة لأنهما يفسران في بعض الأحيان صراعات الإنسان بطريقة تضعف المسئولية الشخصية، وهذا اتجاه خاطيء؛ ذلك أن حاملي الصورة قد خُلقوا ولديهم القدرة على الاختيار، وبالتالي فإنهم مسئولون تمامًا عن الكيفية التي يعيشون بها.

ولا تكمن المشكلة في موقف قوي بالنسبة للحدود الأخلاقية والمسئولية الشخصية، بل لقد قامت على أساس فهم ناقص وسطحي لمعنى أن تكون حامل صورة له حرية الاختيار؛ فلا يكفي القول:«بأن الناس يختارون ما يعملون ولذلك اعتبرهم مسئولين» هناك أكثر وليس أقل.

وفي التعامل مع مشكلة «الاختيارية» أود أن أستكشف مقدرة الإنسان على الاختيار، لا تسأل لماذا لا نختبر في كثير من الأحيان ما نعمله كاختيار حقيقي، وأقترح الكيفية التي يمكن بها استعادة الوعي بدور الحرية، واستخدامه لإجلاء الصورة. وبوسعنا ذكر هذه المفاهيم على أنها حقيقة الاختيار، خسارة الاختيار غير الحقيقي واستعادة الخيار الصحيح.

حقيقة الاختيار

يتعامل الكتاب المقدس مع الناس بصفة مستمرة على أنهم كائنات مسئولة، وأي رجل من معاصري موسى كان يحتطب حطبًا في السبت كان يُرجَم لأنه طلب منه ألاّ يفعل ذلك (عد ١٥ :٢٩ -٣٦)، وحين كذب حنانيا وسفيرة على جماعتهما قتلهما الله؛ لقد ارتكبا خطأ لم يكونا مجبرين على ارتكابه (أعمال ٥ :١-١٠)، أما الشاب الغني فقد عُرض عليه خيار: بع كل مالك واتبع يسوع أو تمسك بما لديك، لقد اختار بكامل إرادته (متى ١٩ : ١٦ -٢٢)، ولا نجد في أي من هذه الحالات أنه قد بُذل أي جهد لفهم بعض العوامل الدقيقة في شخصياتهم، والتي كانت من ناحيةٍ ما أكثر أهمية من حقيقة الاختيار؛ ذلك أن عناصر كثيرة ربما كان لها تأثيرها على القرارات التي اتخذوها، لكن الأساس هو الاختيار. لقد كانوا مسئولين عما فعلوه لأن السمة الأساسية لسلوكهم هي الخيار الشخصي، وأية نظرية للشخصية التي تلقي مسئولية ما عمله شخص على شيء آخر غير الخيار الذي اتُّخِذ دون حسم، يكون -على الأخص في هذه الجزئية- غير كتابي. غير أن هناك الكثير مما له علاقة بقدرتنا على الاختيار غير انتقاء أشياء معينة لعملها؛ فوراء سلوكياتنا المختارة توجد أسباب لتلك السلوكيات التي هي في حد ذاتها مختارة، وعلينا أن نستكشف بإيجاز المنطقة الصعبة للتحفيز لكي نفهم كيف وقع اختيار الناس على «ما» اختاروه من أعمال و «سبب» اختيارهم لها، وهناك وجهة نظر كتابية للمسئولية تطلب منا أن ننظر إلى الناس على أنهم يتخذون اتِّجاهًا مختارًا نحو غاية لها

عندهم قيمتها. وإذا بررنا سلوكنا بالقول إن قوات سابقة أو حالية دفعتنا إلى أن نعمل على النحو الذي حدث، هنا نكون قد أنكرنا مسئوليتنا وألقينا بها على مذهب الحتمية، وتصبح أعمالنا مثل حركات كرة البلياردو والتي يمكن تفسيرها تمامًا على أنها نتيجة تأثير قوة لا يمكن مقاومتها، ولكي نتجنب مذهب الحتمية لنموذج السبب والنتيجة يجب النظر إلى الناس على أنهم يعملون كلٌّ في عالمه، وهناك غرض نصب أعينهم. ويجب التعامل مع التحفيز ليس على أساس قوى أدت إلى العمل، بل عن طريق فهمنا لمبدأ «الغائية الشخصية»، والكلمة اليونانية teleos معناها «نقطة النهاية» أو «الإكمال»، والمبدأ الأساسي الذي تركز عليه أفكاري عن التحفيز، يمكن عرضه بسهولة على النحو التالي: لكل سلوك هدف، أو بتعبير آخر، كل شيء نعمله وراءه غرض نعتقد أن أعمالنا ستحققه؛ وعلى ذلك فإن قدرة الناس على الاختيار ستكون من جزءين:-

القدرة على اختيار السلوك (ق -١)، والقدرة على اختيار الأهداف (ق- ٢). بوسعي أن أقرر ما أسعى إليه (ق- ٢)، وبعد ذلك أقرر ما هي أفضل طريقة لإنجازه (ق - ١)، ووجهة النظر الغائية عن التحفيز لها مضامين مهمة. عندما أحاول أن أفهم ما الذي يدعو شخصًا ما إلى التصرف على النحو الذي يتصرف به، أطرح هذا السؤال: «ما الذي يأمل أن ينجزه؟ ما الذي يريد تحقيقه بواسطة هذه المجموعة من السلوكيات؟» ويصبح التحفيز ظاهرة «هنا، الآن» مع التطلع إلى المستقبل. ولصدمات الماضي تأثير على الأهداف التي لها قيمة عند الشخص، وعلى الكيفية التي قرر بها متابعتها، لكن السبب الذي يحث على السلوك ينتمي إلى الحاضر وليس إلى الماضي.

فكِّر في امرأة شابة تخبر المشير عن خجلها، وهي تشعر بالوحدة والخوف وتريد أن تكون أكثر اختلاطًا بالناس، ولكنها خائفة جدًا من اتخاذ الخطوات المناسبة نحو الصداقة، والوصف «خجولة» يبدو مناسبًا؛ فهي تجيب عن أسئلتك بكلمة واحدة، ونادرًا ما تصوِّب نظرها إليك، وهي جافة لدرجة أنها لا تبتسم بسهولة لدى سماعها أي تعليق ظريف، لماذا هي خجولة؟ إن نمط سلوكها (ق - ١) يحتاج إلى تفسير. تؤكد «نظريات السمة» للشخصية على أن أسلوبها في الاتصال ينمو بشكل طبيعي من حالتها المزاجية، ويبدو أنها كئيبة إلى حد ما، غير أن هذه التفسيرات لم يكن من شأنها سوى أن تغير العنوان من اللغة العامية «خجولة» إلى لغة يغلب عليها بالأكثر الطابع

التقني «كئيبة»، ولم يحدث أي تقدم في الفهم. أما المستشارون الذين يتبنون نظرية «الحتمية / الدافع» فيبحثون عن أسباب في البنية السيكولوجية للمرأة، أو حتى بيئتها في ـ الماضي أو الحاضر ـ التي تجعلها تتصرف بطريقة تتسم بالخجل: رفض الأبوين لها، والافتقار إلى قوة الذات «الأنا» يمكن ذكرها كأسباب لسلوكها، ولكن هذه النوعية من التفكير تستبدل الاختيار «الإرادة» بالحتمية كتفسير نهائي للسلوك.

وثمة وجهة نظر غائية تعامل هذه المرأة كحاملة صورة تختار ما تعمله كما تختار سبب قيامها بعمله، وقد فُسِّر أسلوبها العلاقاتي كخطة (ق -١) للوصول إلى الهدف المنشود (ق-٢).

ولكي نفهم اختيار هذه المرأة لسلوكياتها وأهدافها، قد يكون من المفيد أن نلقي نظرة على تاريخ أبويها، وقد ذكرت أن والدها شخص ضوضائي noisy، عادة ما تراه سعيدًا، حسن المظهر، وتراه على استعداد دائم للضحك، وفيما كانت تتحدث عنه كنت تلمس فيها إحساسًا بخيبة الأمل ومسحةً من الغضب بدلاً من التقدير الحار، وقد تولدت عن بعض الأسئلة الهادفة المعلومات التي تفيد أنه نادرًا ما كان يتصرف على مستوى المسئولية مع أي شخص، والأهم من كل شيء أن ابنته كانت تريد أن تدخل معه في حديث عميق، تتمنى أن تراه خلاله وهو ينظر إلى عينيها ويسعى لإظهار اهتمامه بها، ولكن هذا ما لم يحدث إطلاقًا.

أما تطلعاتها لأن ينخرط معها بشكل فعال فلم تتحقق أبدًا، كانت تتلهف بقوة إلى اهتمام والدها الإيجابي بها، وقالت في حزن ظاهر إنها كانت على استعداد لأن تعمل أي شيء لتحظى باهتمامه بها. وألم الدائرة الشخصية الخالية يحفز الناس بقوة على أن تبحث عن الرّاحة. واحتمال عدم وجود وسائل يُركز إليها للحصول على اهتمامه بها ـ وهو الأمر الذي كانت تتوق إليه ـ جعلها تخاف تمامًا من التفكير فيه، وإيجاد سبب في داخلها لافتقاد العلاقة بينها وبين والدها أتاح لها أن تتعلق بالفكرة الخيالية بأن الوسيلة لتجنب الألم كانت في متناول يدها وتحت سيطرتها، وبدأت تنظر إلى نفسها على أنها امرأة بدون معطيات، وأنه ليس لديها بداخلها ما يستحق انتباهًا جادًا، وكثيرًا ما كانت تصور نفسها على أنها مثل المانيكان التي تُعرض في واجهات العرض في المحلات الكبرى؛ حيث تراها أنيقة في ملابسها الرائعة، ولكن لا حياة فيها. وصورتها عن نفسها (ر-٢)

أعطتها إطارًا للتفكير في أفضل وسيلة للتعامل مع الحياة، وبالنظر إلى أنه من المؤلم جدًا أن تقدم شيئًا حقيقيًا في داخلها لشخص ما ثم يعاملها باستخفاف، لذلك خلصت إلى أن أفضل طريقة فعالة لتفادي الألم هي أن تخفي حقيقتها عن الناس (مشاعرها، آراءها، أفكارها) لتدع الناس يرون مظهرها الخارجي فقط، أما الداخل فليس جديرًا بالاهتمام. وعلى أية حال فإن كثيرين سيتوقفون بالفعل لإعجابهم بالمانيكان في ثيابها الجذابة، والتباعد الاجتماعي يحمي من الألم، ودعنا نسمي هذا اعتقادها الدفاعي (ر-١).

وإذ يدفعها ألم عدم تحقق تطلعاتها إلى البحث عن راحة، وإذ توجه صورها ومعتقداتها عملية بحثها، فقد أصبح الوضع مهيئا لاتجاه مرئي، وهو أن تظهر كما تبدو كطريقة للتعامل مع عالمها. والعنصر الأول لهذا الاتجاه عبارة عن هدف، والمعتقدات المتعلقة بالأمور التي تحقق الرضا والاكتفاء تحمل معها دائمًا هدفًا يتوجب السعي لتحقيقه، وحين يصل شخص ما إلى معرفة ما يتوجب عمله للخلاص من دائرة الألم الشخصية، فسرعان ما تتحول هذه المعرفة إلى هدف، وإذا عرف شخص عطشان أن الماء متوافر في الحجرة المجاورة، يجعل هدفه الوصول إلى هناك. وبالنسبة للمرأة الخجولة التي تعتقد أن التواري عن الناس هو أفضل آمالها لتخفيض الألم، يصبح الهدف الذي يسيطر عليها هو أن تخفي حقيقية ذاتها عن الرؤية، ويصبح الوصول إلى هذا الهدف أمرًا بالغ الأهمية لأن البقاء الشخصي معرض للخطر.

وإذ تضع هدفها (ق- ٢) بثبات في مكانه، يصبح الاهتمام الآن على اختيار وسيلة فعالة لتحقيقه، ولعل غطرسة مفرطة يمكنها أن تقوم بالمطلوب، وربما يمكن لأسلوب ذهني علاقاتي أن يخلق المسافة التي تريدها، وعلى الرغم من ذلك فإن الاختيار الفعلي للاستراتيجية لا يبدو اختيارًا، بل يبدو وكأنه الشيء الوحيد المتاح الذي يمكن عمله.

وتأثير أب غير مهتم، ومزدري يدفعها إلى أن تنظر باحتقار إلى أسلوبه العلاقاتي، خوفًا من أنها لن تستطيع إطلاقًا المناقشة في منطقة قوية، ومجموعة من الميول والقدرات الطبيعية التي تحد من دائرة الاستراتيجيات الممكنة، وكل هذه الأمور تتضافر معًا لتجعل من الخجل خيارًا معقولاً. وإذا فُرض وسألها شخص ما: « لماذا أنتِ خجولة؟» فإن الفكر الذي كانت قد اختارته بالفعل لتكون خجلة كاستراتيجية لحماية النفس

ضد الألم الشخصي لن يخطر على بالها إطلاقًا، بل ستكون في حيرة وغضب للقول بأن الخجل كان خيارًا: «إني لا أحب أن أكون خجولة، إني أكرة الخجل، ولماذا أختار شيئًا أكرهه؟» هذا ما سوف تصر عليه، وبرغم ذلك حين تم فحص أسلوبها العلاقاتي بدقة، تبين أنه يمكن معرفة أنه كان جهدًا مختارًا للوصول إلى هدف مختار.

والآن هناك سؤال صعب ينبغي مواجهته: «إذا كان سلوكها خيارًا بالفعل فلماذا لا يبدو كذلك؟»

فقدان الاختيار المُدرَك

معظم المسيحيين يتفقون تمامًا على أن الناس - في المحصلة النهائية - مسئولون عن أعمالهم، ولا يوجد نقاش يُذكر حول فكرة أن المسئولية والحرية مرتبطتان معًا لا يمكن أن توجد إحداهما دون الأخرى، والناس مسئولون لأنهم أحرار، وفي معظم المناقشات التي تدور حول سيادة الله تمت المحافظة على حقيقة حرية الإنسان بالرفض القاطع لوضع اللوم على الله - أو أية قوة خارجية عن أنفسنا - بالنسبة للخيارات التي نتخذها. غير أنه حين نغادر مجموعات المناقشة ونعود إلى الحياة اليومية، يتم التقييم بسهولة على حقيقة أننا أناس مسئولون، والحقيقة المثيرة والأليمة الخاصة بالحرية الشخصية كثيرًا ما يتم دفنها تحت متطلبات الحياة اليومية والقوة الدافعة للتحفيزات الداخلية. ومعظمنا في كثير من الجهات ننظر إلى أنفسنا ليس كأشخاص يتمتعون بحرية الإرادة، بل وكأننا بالأحرى مجبرون، لماذا؟ لماذا يعتبر الناس الذين يتسمون بالخجل أن هذا الخجل من طبيعتهم وليس من اختيارهم؟ لماذا تبدو أساليب علاقتنا مع الآخرين وكأنها تعبير ضروري لشخصية ثابتة، بدلاً من النظر إليها على أنها سلسلة من الخيارات الحرة، ولماذا تبدو بعض أعمالنا المتكررة أنها حتمية أكثر منها اختيارية؟

ذات مرة كلفت طلبة أحد فصول الدراسات اللاهوتية من تلاميذي أن يكتبوا بحثًا يتناول تعاملهم مع إحدى المعارك التي يواجهونها في حياتهم، والتي يشعرون بأنه ليست لهم سيطرة إرادية عليها، فوجدت أن أكثر من نصف الرجال كتبوا عن مشكلتهم مع تكرار ممارستهم العادة السرية، وكان معظمهم على قناعة بأن ما كانوا يفعلونه إنما هو الخطأ بعينه، غير أنه على الرغم من جهودهم المكثفة فقد فشلوا حقًا في الإقلاع عن ممارستها.

وقد درج المشيرون على أن ينضموا إلى أحد الجانبين في التعامل مع هذه المشكلة؛ فإما أن يكون هناك إصرار قوي على أن الموضوع ليس «أستطيع أو لا أستطيع»، بل «هل سأفعل أم لا ؟»، إلى جانب النصائح بضرورة عمل كل ما يتطلبه الأمر للتغلب على المشكلة، وإما أن يكون هناك اتفاق على أن المخطئ الحقيقي شيء آخر غير الإرادة، ويبدأ هنا علاجي للأسباب الموجودة في العقل اللاواعي. إن ما نعتقده بشأن المشاكل المتعلقة بالخطية الإجبارية «compulsive» ونماذج استجابتنا التي لا سيطرة عليها، يُعد أمرًا مهمًا. هل يتوجب علينا بالنسبة لشخص مكتئب ـ أصبحت الحياة بالنسبة له عبئًا ثقيلاً وطقسًا من حمل المسئولية بلا معنى ـ أن نقول له إنه في حاجة إلى أن يمسك بزمام الأمور ؟ وهل النصيحة التي تدعو إلى الانغماس في العمل، وتوقف المرء عن ندب حظه، تعد نهجًا يأخذ في حسبانه حقيقة الإنسان كحامل صورة ؟

أم أن الأفضل هو الاعتراف بوجود اضطرابات عميقة داخل النفس البشرية بإمكانها أن تضعف القدرة على الاختيار ؟ تمامًا كما أننا لا ننصح المفلوج بأن يقوم ويمشي ـ ما لم نتخيل أنفسنا أننا نشبه المسيح بأكثر مما ينبغي ـ وعلى ذلك فإننا ربما نكون في حاجة إلى عدم التشديد على فكرة المسئولية بالنسبة للشخص الذي ضعفت قدرته على الاختيار، ونركز بالأحرى على فحص علاجي للاهتمامات الأكثر عمقًا، وما الذي ينبغي علينا عمله: نؤكد حقيقة الاختيار، ونواجه المشكلة على هذا النحو؟ أم ننكر حقيقة الاختيار ونفهم الوضع على هذا الأساس؟

وفقدان الخيارات المحسوسة خبرة يومية، ومعظم ما نعمله أثناء النهار لا يبدو وأنه خيار بقدر ما يبدو أنه مجرد عمل صنعناه. وحين يدعونا إنذار ضبط الساعة بكل برود إلى الاستيقاظ، نادرًا ما نشعر بانتعاش وعينا بحريتنا في النهوض من الفراش للتوجه معتقَلين تحت مياه الاستحمام، ومن ثم ننغمس في نشاطاتنا اليومية؛ فبالنسبة لمعظمنا يعني انبلاج الصباح جهدًا مضنيًا للنهوض من النوم وارتداء ملابسنا والخروج إلى العمل، ونحن نشعر بأن حقيقة المسئوليات الملحّة الملقاة على عاتقنا تجرنا للقيام بواجبنا نحوها.

ما الذي يجعل حامل صورة وهبه خالقه قدرات إرادية أن يفقد اتصاله مع نفسه باعتباره متخذ خيارات؟ ولماذا نُصَدِّر الكثير جدًا من الأنشطة بعبارة «إنني مضطر

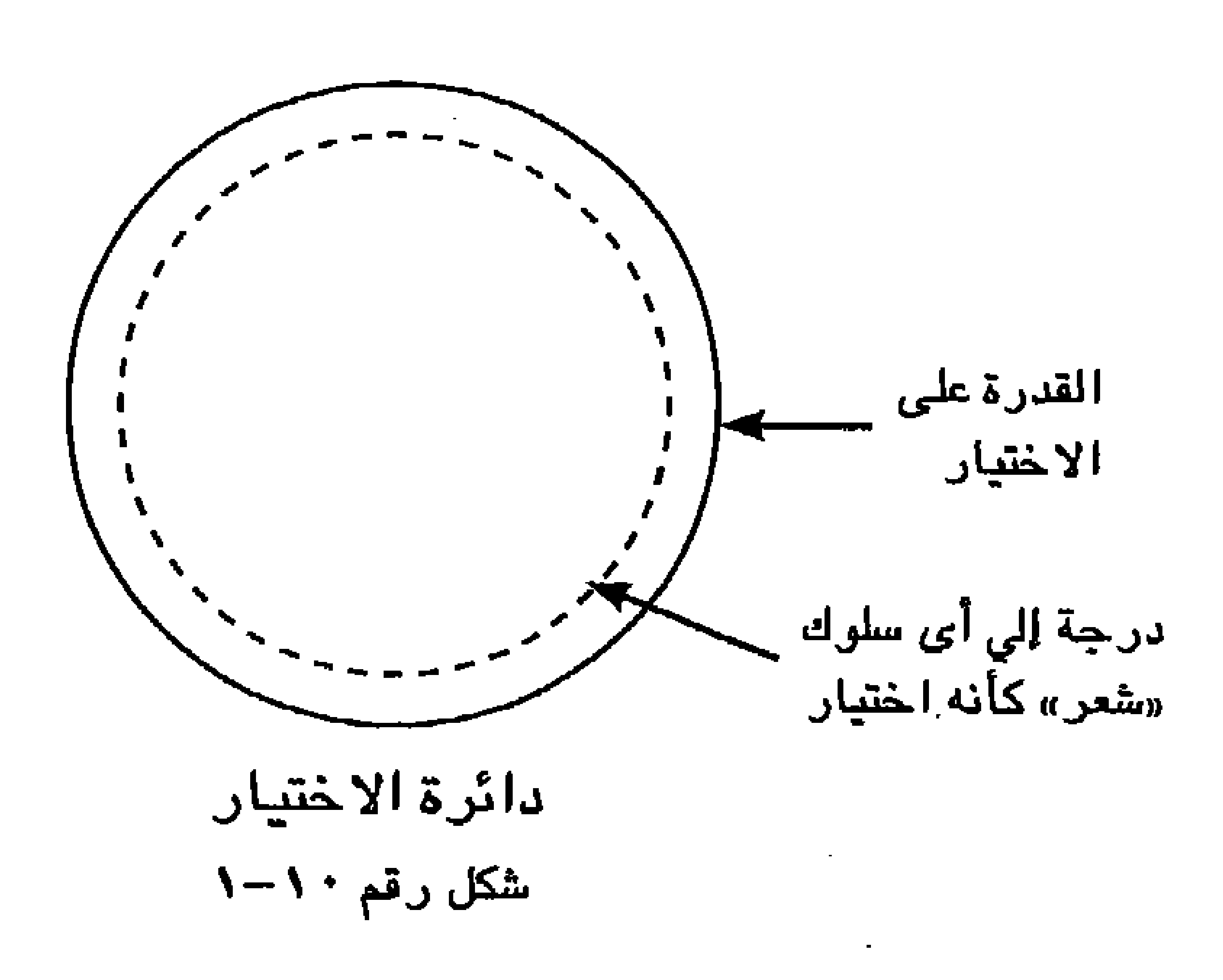
أن ...»، بدلاً من «اخترت أن ...»؟ ولماذا نردد في الكثير من الأحيان عبارات مثل «لا أستطيع ذلك» أو «ليس بمقدوري أن أقوم بأي شيء آخر»، بدلاً من عبارات مثل: «إن العملية صعبة، ولكن اخترت أن أستمر» أو «التحفيز قوي، لكن القرار قراري من ناحية ما إذا كنت أستسلم أم لا؟» ويتعين علينا أن نذكر بوضوح أن فقدان الاختيار الذي نستشعره لا يعني فقدان الخيار الفعلي، وعلى الرغم من أن الناس قد يفقدون كل الوعي الموضوعي بأن ما يفعلونه ما هو إلاّ اختيار، فإن ما يعملونه هو ما اختاروا أن يعملوه. ومساعدة من يمارس العادة السرية رغمًا عنه بالبحث عن أسباب لسلوكه، والتي من شأنها أن تقلل من الناس، وجهودنا التي نبذلها لشرح فقدان الخيار الذي نشعر به لا يجب أن تنكر حقيقة الخيار نفسه. وعلى صعيد آخر يتوجب علينا في تعاملنا مع فقدان الاختيار المحسوس، أن نفعل أكثر من الصراح بصوت عال عن حقيقة الاختيار. ونصح السيدة التي تعاني من فقدان الشهية للطعام بأن تأكل أكثر من المعتاد، ليس له تأثير بالمرة على عاداتها المتعلقة بالأكل فيما عدا تقوية تصميمها على أن تقلل من أكلها، فما الذي ينبغي عمله إذن؟

إن مفتاح التعامل مع مشكلة فقدان الاختيار المُدرَك المحسوس هو الاعتراف بأن كل عمل وراءه غرض، ووراء كل سلوك (ق-١) هدف (ق-٢) يتجه السلوك نحوه، وكل من السلوك والهدف يتم اعتبارهما، غير أن الهدف في كثير من الأحيان لا يكون معروفًا؛ فالأغراض والأهداف في قلب الرجل مثل «مياه عميقة»، والأهداف التي وراء سلوكنا من الصعب فهمها، لكن ذو الفطنة يستقيها (أم ٢٠:٥). لتسمحوا لي أن أقترح مبدأ يوضح السبب في أن الشخص الحكيم يقضي وقتًا يضع فيه أهدافه، السلوك سيبدو مثل اختيار إلى درجة أن هدف السلوك يصبح معروفًا، والنتيجة الطبيعة التي تنجم عن ذلك هي السلوك في تتبع هدف غير معروف لا يبدو اختيارًا.

والحياة التي لا ندرسها جيدًا لا تستحق أن نحياها، كما أنها أيضًا حياة لا تُدرك فيها الحرية، وحين أفشل في معرفة الهدف من سلوكي سأفشل أيضًا في النظر إلى سلوكي كعمل تم اختياره بحرية للوصول إلى هدف تم اختياره بحرية، وسوف يبدو أنه يتم إجبارًا، وأنه ضروري وحتمي. والمرأة الخجولة ملتزمة بحماية نفسها من الألم، إلاّ أن هذا الهدف قد أُنكر لسبب وجيه. وهو أنها قد أخطأت بأن التزمت بحماية الذات، لكن تجاهل هذا الالتزام والثقة في الله فيما يتعلق ببقائها نفسه أمر يبعث على الخوف،

والحل المريح لديها هو أن تقطع علاقتها بهدفها الحقيقي، وهذا يعفيها من مسئولية التوبة عنه. ولكن هذا الشرط يسلبها في ذات الوقت إدراكها بالناحية الاختيارية، وحين تفقد هذا الإدراك تفقد أيضًا الإحساس بالحيوية، وتختبر الحياة كما لو كانت طقسًا إجباريًا وسلسلة من الاستجابات للضغط والخوف، بدلاً من خيار متابعة أهداف لها قيمة ويمكن متابعتها بغض النظر عما قد يحدث.

وبوسعنا الآن رسم الاختيار (شكل ١٠ - ١) ولنأخذ الدائرة غير المنقطة على أنها تمثل قدرتنا على الاختيار، أما الدائرة المنقطة فتعكس الدرجة التي يكون عندها الشخص قد أدرك بشكل شخصي أن كل ما يعمله ما هو إلاّ اختيار، والدائرة الاختيارية «الممتلئة» نسبيًا تعني أن الخيارات التي يختارها الإنسان تبدو كخيارات، أما الدائرة الاختيارية «الخالية» تشير إلى أن الشخص يشعر بأن ما يعمله ليس اختيارًا بقدر ما هو بالأكثر استجابة ضرورية للضغط، وعلى أساس توضيحاتنا فإن الشخص المجبر على ممارسة العادة السرية، وكذلك المرأة الخجولة ترسم الدائرتين اللتين تشيران إليهما خاليتين ذلك أن وعيهما بالاختيار بسيط.



دائرة الاختيار
شكل رقم ١٠-١

وامتلاء الدائرة الاختيارية الخاصة بالمرء يعتمد على ما إذا كان الهدف من وراء سلوك معين تم إدراكه عن وعي، وحين نسمح أن تظل أهدافنا مخفية، فكل ما نعمله في تتبع هذه الأهداف يبدو لنا كاستجابة إجبارية. وبالنظر إلى أن الكثير مما نعمله يُقصد به تحقيق هدف لم يسبق أن فحصناه إطلاقًا، يقضي معظمنا حياته وهو يشعر أنه تحت

سيطرة، وأنه مقيد، ولا يوجد ما يبعث على السرور في هذه النوعية من الحياة. ولابد لاختبار الفرح من توافر الحرية الشخصية حقيقةً، وذلك إلى جانب إدراك واضح أيضًا بأننا أحرار، كيف نستعيد إذن إدراكنا وعن وعي حقيقة الاختيار ؟

استعادة الاختيار

وعلى أساس حق حامل الصورة في الاختيار، يضفي إدراك هذا الحق وممارسته حيوية على اختبار الحياة، واختيار الحياة بحسب توجيهات الله، يأخذ هذا الشعور بالحيوية ويستثمره في فرح التشابك والهدف، ذلك الفرح الهادئ والمثير.

ومعظم النصائح التي تدعونا إلى أن نحيا حياة مسيحية تفترض أن الناس على اتصال - وبشكل هادف - بحقيقة تجربة الاختيار الشخصي، ولكن - وإذا كانت معرفة الأهداف التي وراء السلوك ضرورية - قبل أن يتم الشعور فعلاً بحقيقة الاختيار فإني - والحالة هذه - أشك في أن الغالبية العظمى من الناس - سواء من المؤمنين أو من غيرهم - لا يرون أنفسهم ككائنات تمارس الاختيار، وبالنسبة لمعظمنا فإننا نتحدث في بعض الأحيان عن الإثارة الناجمة عن الاختيار، ولكن نادرًا ما نشعر بها.

ونحن نتفق مع الرأي القائل إن حملة الصورة يمارسون الاختيار، ونتفق أيضًا على أنه من واجبنا أن نختار أن نحيا بحسب تعاليم الله، غير أنه حتى يتعايش الناس بالفعل مع حقيقة أنهم يختارون حقًا ما يعملونه، فإن النصائح التي تدعو إلى اتّباع أعمال معينة لا ينجم عنها سوى الإحباط، والتعليمات التي تدعو إلى التغيير لا طائل من ورائها حين لا يكون لدى من وُجِّهت لهم التعليمات إدراك بأن التغيير خياره متروك لهم؛ وعلى ذلك يجب أن يُطرح سؤال مهم: «كيف نسترد الإدراك بأننا كائنات لها حق الاختيار ؟»

منذ فترة قريبة سمعت واعظًا تليفزيونيًا له شعبيته يقود شعب كنيسته بأعداده الهائلة في الترنُّم بهذه الكلمات: «بوسعي أن أتغير، لابد وأن أتغير، وسوف أتغير» فهل هذا هو كل المطلوب لاستعادة إدراكنا بأن لنا حق الاختيار ؟ وهل التذكير المتكرر بأنني كائن له حق الاختيار يفي بالغرض؟ أم أن معرفة كل ما يتعلق بحقائق حريتي في الاختيار أمر أكثر صعوبة، ويشكل عملية تدريجية ؟

بعد كفاحه لاستغلال الفرص التي أُتيحت له ليختار الانخراط بقوة مع زوجة تسبب له الرعب، أعطاني هذا المستشير ملصقًا مكتوبًا عليه: «الحق يحرركم لكنه

سيجعلكم تعساء أولاً» وإذا كانت استعادة إدراكنا بحرية الاختيار تتطلب أن نواجه بشكل متزايد الأهداف الماكرة ـ والتي كثيرًا ما تكون بشعة ـ التي تكمن وراء سلوكنا فإن الطريق لمعرفة فرح الحرية سيأخذنا عبر أوقات أليمة يتم فيها كشفنا وتبكتينا. وأكثر من أي شيء آخر تتطلب استعادة الإثارة الناجمة عن حقنا في الاختيار، أن نرى بوضوح الأغراض التي ترمي إلى حماية الذات، والتي تفسر تقريبًا كل اتجاه نتخذه. وليس بكاف أن يعترف من يمارس العادة السرية قائلاً: «نعم بمقدوري أن أرى الهدف من سلوكي، أريد متعة فورية دون الاهتمام بالسياق الأخلاقي بحق زوجتي في المتعة» ووجهة النظر هذه قد تكون سليمة لكنها لا تكشف جوهر تحفيزات هذا الرجل.

والشخص الذي يدرك تمامًا قدرته على أن يختار الامتناع عن ممارسة العادة السرية، ليس في حاجة إلى أن يشغل نفسه بأغراض أكثر عمقًا من المتعة السهلة؛ فعليه ببساطة أن يتخذ الخيارات بأن يلتزم بمعتقداته، ولكن الرجل الذي يختبر العادة السرية كأمر يعمله وهو كاره لأنه لا يستطيع مقاومته بصفة دائمة، يجب أن يفحص تحفيزه بدقة إذا كان له أن يفهم حقيقة حريته في أن يمارس العادة السرية أم لا يمارسها. وإذ يفهم أغراض قلبه (أم ٢٠ : ٥)، وفيما يطلب من الله أن يختبره (مز ١٣٩ : ٢٣ -٢٤)، وفيما يقبل بفاعلية أن يكشف أصحابه المؤمنون عن خداع قلبه (عب ٣ :١٣) فإن ذلك سيؤدي به في النهاية إلى إدراك يبكته بعنف على التزامه بحماية ذاته، وإلى أن يعرف أنه مصمم على تجنب فراغ دائرته الشخصية ويتوب عن هذا التصميم بدخوله في ألمه، فإنه لن يختبر حقيقة الحرية المثيرة.

والتحفيز على ممارسة العادة السرية يجب أن يُنظر إليه بوضوح على أنه وسيلة للتخلص من دائرة ألمه الشخصي، والأكثر من هذا يجب أن يعرف أن الالتزام بحماية نفسه هو الطاقة المسيطرة وراء تشكيله واسعة من السلوكيات ـ بما في ذلك العادة السرية التي يمارسها الرجال ـ تشكل في مجموعها أسلوبًا ثابتًا في التواصل مع الحياة، وحين يدرك اتجاهه الأساسي سيكون الرجل قادرًا على أن يفهم أن الخيار الأساسي الذي يواجهه ليس ما إذا كان يمارس العادة السرية أم لا، بل بالأحرى ما إذا كان يثق في الله من ناحية الملء الشخصي أم يعتمد على وسائله الشخصية للامتلاء، وعند هذه النقطة يصبح الاختيار معروفًا.

وحين يتم الكشف عن أن وراء هذا السلوك هدف الحماية الذاتية، وحين يتم الاعتراف بأن الحماية الذاتية هي على العكس تمامًا من الثقة في الله، هنا يتم استعادة الإحساس بالقدرة على الاختيار بشكل تدريجي. والنمو في الحياة المسيحية يعتمد على إدراك يزداد باستمرار لنقاط الاختيار الأساسية التي تمتلئ بها الحياة، وحين يتحول الانخراط في أكل الحلوى إلى عادة مسيطرة، فمن الضروري معرفة أن طلب قطعة من الحلوى يتجه صوب هدف الحماية من الألم الشخصي، وأن الحقيقة هي أننا نعيش على أساس الكذبة القائلة بأن الحياة متاحة من خلال اللذة البدنية، وحين يتم الكشف عن هذا الزعم يتاح لنا عندئذ خيار نتخذه: أن نصدقه ونأكل الحلوى باعتبارها الطريق إلى الحياة، أو عدم تصديق هذه الكذبة ونرفض الحلوى باعتبار أن ذلك هو الطريق إلى الحياة. وحين يتم تحديد الموضوعات التحفيزية بوضوح في أذهاننا تصبح حقيقة الخيارات التي نواجهها واضحة، واستعادة الشعور بالاختيار يعتمد على كشف الأهداف الرئيسية. وحين يصبح من الواضح أن حماية الذات هي الموضوع التحفيزي للحياة يبدأ الناس في معرفة أن التغلب على مشاكل مثل ممارسة العادة السرية عن كره تتضمن تحولاً عميقًا في الاتجاه من حماية الذات إلى حب الانخراط مع الناس، وأسلوب المرء في العلاقات يجب تغييره، ويجب التخلي عن الأعمال التي تعكس محاولات دفاعية لصالح سلوكيات القصد منها التعبير عن الذات نيابة عن الآخرين وتغيير العادات التي من قبيل ممارسة العادة السرية بطرق تعزيز النضج والسيطرة على الذات تغييرًا جوهريًا في الأهداف الأساسية لحياة الإنسان. والجهود التي تهدف ببساطة إلى التوقف عن عمل السلوك غير المرغوب فيه وذلك باستخدام المزيد من القوة الذاتية عادة ما تنتهي بالفشل، واللجوء إلى الله طلبا لعونه وقضاء المزيد من الوقت مع الكتاب المقدس يشكل جزءًا من الحل، غير أنه ما من تغيير دائم ومفيد يمكن أن يحدث دون الاعتراف بالأهداف الخاطئة والتوبة عنها.

والعملية بطيئة وليس لها نهاية، وبالنظر إلى أن التزامنا بالاستقلال وحماية الذات هي في أفضل الحالات تُضْعَف فحسب ولا تستأصل أثناء هذه الحياة، سيكون هناك دائمًا المزيد من الأغراض التي تستهدف حماية الذات، والتي يجب مواجهتها. المياه بالفعل عميقة، ولكن عملية الكشف لا يجب أن تكون محبطة، ومع كل معرفة لحافز فاسد يأتي تقدير أكمل لحريتنا في الاختيار. وحين نستخدم حريتنا لاختيار ما هو صواب، فإن فرح

الحياة الذي يصبح أكثر قربًا من خطة خالقنا ينمو في هدوء. والفرح يأخذ أسلوب المد والجزر، غير أنه بمرور الوقت يتمكن من أجزائنا الرئيسية بشكل ثابت أكثر فأكثر، وتصبح الحياة فرصته للعيش بأمانة حتى حين تكون محبطة في بعض الأوقات، ومضجرة في الكثير منها، ومؤلمة جدا بين آونته وأخرى، ولكنها بطريقة متنامية بطيئة تكون مثيرة تمامًا.

معرفة أنني حر في اختيار أن أسلك طريق هو سر القناعة والاكتفاء (فيلبي ٤: ٩ -١٣) بغض النظر عن الظروف التي تعترض طريقي. وبالنظر إلى أني أعرف المسيح، فبمقدوري متابعة الحياة - سواء رفضني شريك حياتي، أو تحول أولادي إلى طريق سيء، أو تخطوني في الترقية، أو سلبني المرض قدرتي على الحركة - وعلى ذلك لست في حاجة إلى الخوف من الآخرين، أو ما يستطيعون عمله بي لأنني حر في متابعة الهدف الذي أعتقد أنه يغني الحياة وهو معرفة الله، وليس من شيء أو شخص يستطيع أن يعترضني وأنا أتبع هذا الهدف - إلا نفسي، ولا يمكن أن تؤخذ حريتي مني. ومعرفة أنه بمقدوري الاختيار تفتح أمامي الباب لمصدر كل فرح حقيقي واستعادة إدراكي لقدرتي على الاختيار من خلال العمل الصعب وهو فحص الذات أمر يستحق أن نبذل من أجله كل جهد.

الفوضى فرصة للثقة

أود أن أوضح نقطة أخيرة وبها يُختم هذا الفصل؛ لقد بدأنا هذا الفصل بمناقشة كراهيتنا الطبيعية للفوضى، ولقد ذكرنا أننا في بعض الأحيان نستقر على تفسيرات تختزل الحقائق المعقدة إلى نوعيات بسيطة حتى نستطيع المحافظة على ثقتنا بأنفسنا في تعاملنا مع الحياة، وبذلك يتم تجنب الفوضى والحفاظ على وهم السيطرة.

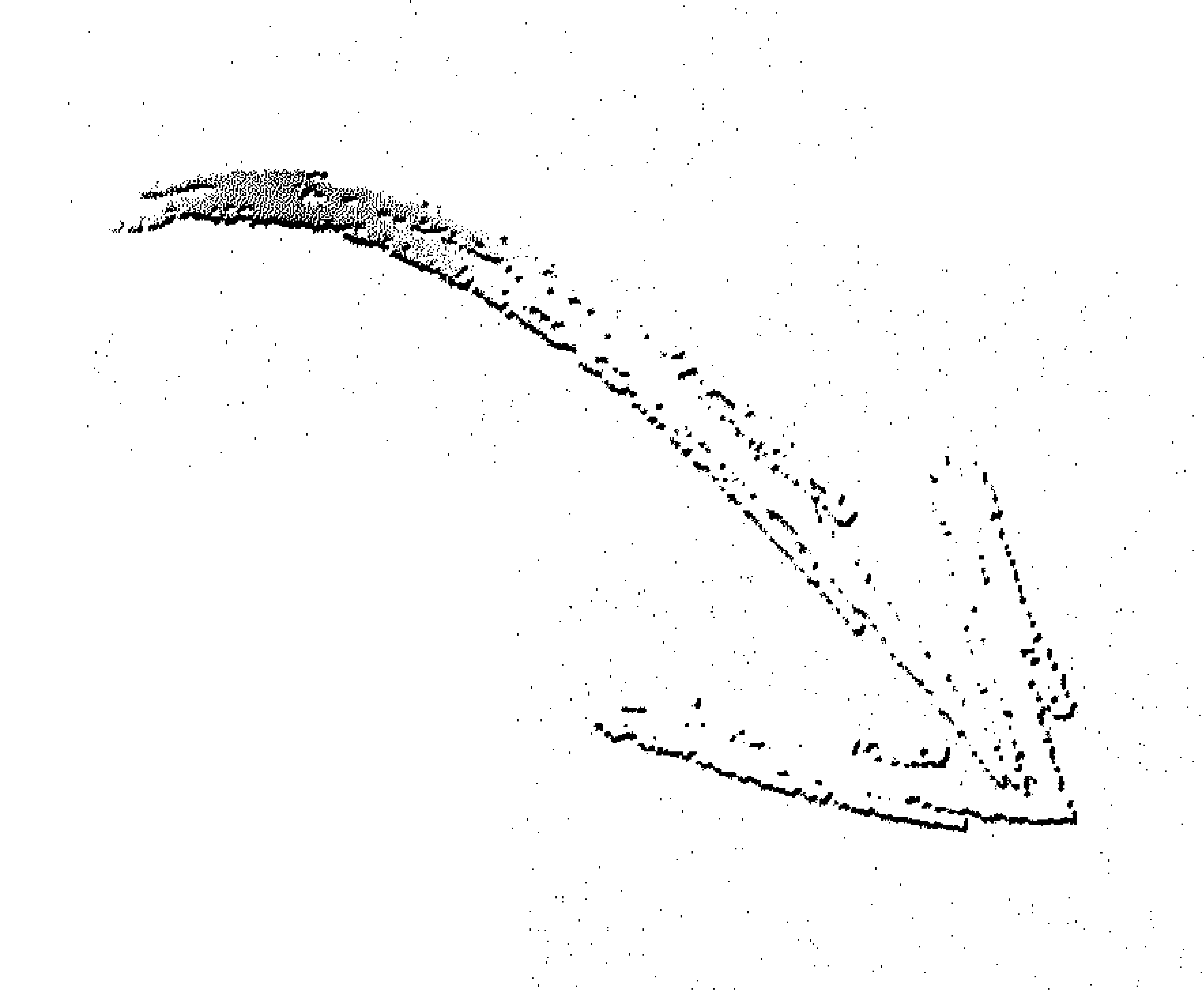
والآن بوسعنا أن نضيف أمرًا واحدًا إلى ما ذكرناه عن الفوضى، وهو أننا في جهودنا التي بذلناها للتقليل من الفوضى والمحافظة على السيطرة فقدنا فرصة فريدة لاختبار فرح التمتع بحرية الاختيار، وإني أرى أن الفوضى وعدم وضوح الرؤيا يشكلان الخلفية التي لابد منها للتمتع إلى أقصى حد بموهبة الاختيار.

لقد خلقنا الله على صورته وهذا معناه - ضمن أمور أخرى - أن لنا القدرة على أن

نتحرك في مجتمعاتنا بطريقة لا تحددها سوى قدرتنا على الاختيار. والشخص الحكيم يختار أن يسلك بحسب خطة الله المعلنة - ثق وطع - غير أنه سرعان ما يكتشف أن الحياة في هذا العالم - حتى على ضوء سراج الكتاب المقدس - قد تكون مربكة للغاية، ذلك أن الله لم يوضح الطريقة التي تُعمل بها الأشياء، وما هو أفضل ما يعمل في كل وضع. وحين نعترف بوجود الفوضى ونقتحمها بكل نشاط بدلاً من الهروب منها بإجابات لا طائل من ورائها، ينتابنا أحيانًا شعور بالشلل من جراء عدم القدرة على اتّخاذ قرار، ولا نعرف بالضبط ماذا نفعل، والقادة الأقوياء الذين لديهم إجابات محددة يجذبون أتباعًا كثيرين ممن فشلوا في إدراك أن الفوضى التي يشعرون بها أمر ضروري ومفيد؛ وهي أمر ضروري لأن الله لم يختر أن يجيب على كل سؤال نطرحه، وهو أمر مفيد لأن الحيرة حول ما يجب عمله وكيف يكون للأمور معنى تقدم لنا فرصة أن نعترف بعمق من قدرتنا البشرية علي الاختيار بوضوح.

وحدود الاختيار تم توضيحها في الكتاب المقدس، ونوعيات الاختيار تعتمد علينا تمامًا وحين نستأصل الفوضى بقبول تفسيرات غير مدروسة، واتباع إرشادات للحياة في صيغة قوالب جاهزة، فإن سلوكنا يصبح بالأكثر استجابة لما قيل لنا، وليس مبادرة منا لتولي زمام أمور حياتنا، وهنا تضيع الإثارة الناجمة عن حركة الاختيار.

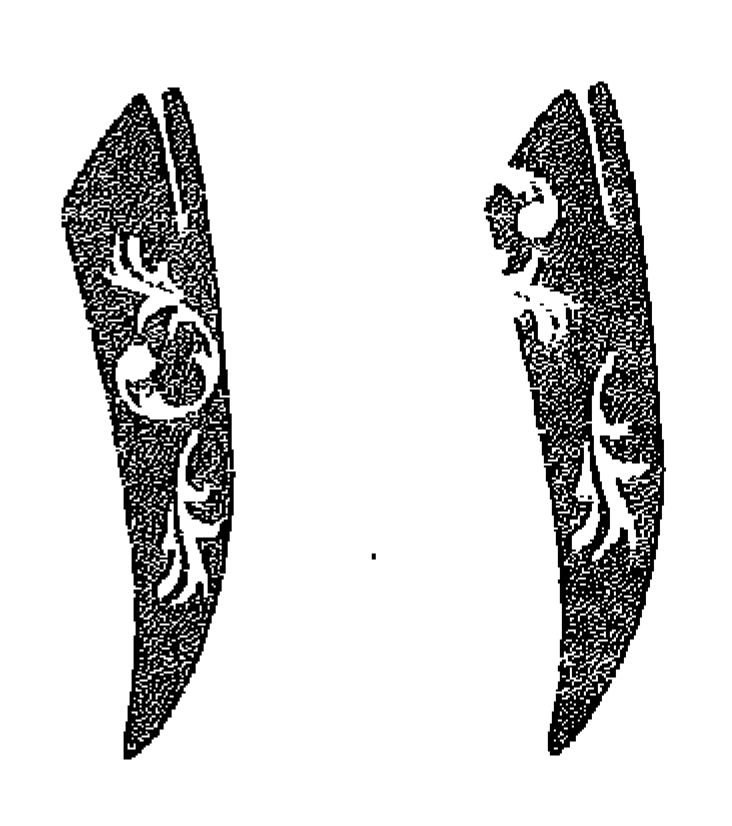
وبالنسبة لما قاله بولس «مع المسيح صُلبت» (غل ٢ : ٢٠) فلم يكن يقصد منه أن مسئولية الاختيار قد أُخذت منه، بل كان يعني أن المسيح ربح قلبه، وأنه قد عقد العزم على معرفة المسيح مهما كلفه الأمر. وحين تكون الحياة مشوشة ومحبطة، كان يدرك حريته الداخلية في مواصلة التحرك نحو الله، والشجاعة على الاستمرار - حين لا يكون هناك معنى لأي شيء باستثناء توقع معرفة الله - تدل على مستوى عال من النضج، وإدراكنا لحريتنا في الحركة وسط الفوضى واليأس تتيح لنا الوصول إلى أعلى مستويات الثقة الواعية في الله. والفوضى قد تكون من أعداء الناس الخطاة الذين يصرون على السيطرة على الأمور، غير أنه بالنسبة للمفديين تُعد الفوضى فرصة للتمتع بحريتنا في الاختيار.





الفصل الحادي عشر

الشعور بوقع الحياة
"الناس عاطفيون"



كان أحد الأصدقاء، منذ فترة قليلة مضت، يرثي لحاله لشعوره أن حياته تتمزق: العائلة، الوظيفة، الصحة ولم يكن شيء منها على ما يرام؛ فلدى وصوله البيت بعد عودته من العمل كان يُقابَل عادة بتحية من ابن مراهق عنيد وزوجة محبطة لم يكن لديها ما تقوله: «لقد فاض بي الكيل من هذا الولد». كان عمله مشبعًا بالتوتر، ولو أنه كان مُجزيًا من الناحية المالية، وذلك حتى عهد قريب؛ فبسبب إعادة هيكلة كبرى في الشركة تضاعفت الضغوط عليه في حين أن مرتبه قد خُفض إلى النصف تقريبًا.

كانت الأحوال في الكنيسة تمثل نقطة مضيئة، غير أنه كلما زاد انخراطه، كان يلمس كمّ الغيرة المرة المختفية خلف الستار. أما الراعي - وكان واعظًا مقتدرًا ومؤثرًا، وكان دائمًا مصدر شبع لصديقي - فقد استقال للتو، حيث تملكه الإحباط من عناد مجلس الإدارة الذي كان يفتقر إلى الرؤية الصحيحة، مع شعور بالرضا الذاتي، لكن ما زاد الأمور سوءًا أن فحصا طبيًا حديثًا أظهر أنه يعاني من مشكلة صحية تتطلب متابعة دائمة.

وتحت وطأة الضغوط الشديدة التي تنجم عن هذه المواقف، شعر بأنه في حالة سيئة للغاية، ولكن مواعيد الله كانت تعطيه الأمل ولو أنها لم تخلِّصه من الألم العاطفي الذي كان يعذبه. كان يريد أن يشعر بتحسن وأن يعود ثانية إلى روحه المرحة فيما يقوم بأعماله اليومية، لكن هذا ببساطة ما لم يحدث. شعر بأنه مثقل بالهموم والأعباء، ويفتقر إلى ما يحفزه، وأنه متعب للغاية وقد تأملنا معًا تطلعات قلبه العميقة، وعرضنا صوره الدفاعية، وتعاملنا مع بعض أفكاره الحمقاء، ولقد شجعته على التوبة وترك الاتجاهات الخاطئة التي أسطعنا التعرف عليها، ولقد اتخذ خطوات لتغيير نماذج سلوكياته الحمائية. وقد كان عملاً محدودًا، ولكنه جيد في دوائره الشخصية، العقلانية وحريته في

الاختيار، لكنه كان لا يزال يناضل ضد مشاعر تهدد بقهره.

وبالنسبة لشخص يتمتع بنوعية الشفافية التي تتأثر بعمق بوطأة الحياة، كان طبيعيًا أن يشعر بفيضان من المشاعر القوية يجرفه بعيدًا، وفي مثل هذه الأوقات تبدو النصيحة بأن يفرح على أي حال، أو يتحمل مسئولياته، أو أن يجدد التزاماته التي وهنت تبدو متبلدة بوحشية.

وحتى عندما تكون المشاعر المؤلمة أقل قسوة ولكنها لا تزال تزعجه؛ فإن العلاجات العادية ـ بأن يشغل نفسه بالعمل، أو يخرج للنزهة ـ لا تنجح دائمًا، أما الحلول الروحية ـ مثل قضاء مزيد من الوقت مع كلمة الله، وفترات أطول في الصلاة، أو زيادة اشتراكه في أنشطة الكنيسة ـ فليس من شأنها سوى أن تدفع بالمشاعر المزعجة إلى ركن خلفي من وعينا، وذلك بصفة مؤقتة. ولا يمر يوم واحد دون أن تتعرض لمشاعر مزعجه تنغص علينا حالنا. وسواء كان المتسبب في ذلك سيدة بدينة تشق طريقها عنوة في الطابور، أو تقرير سيئ من الطبيب، فذلك مرده أننا نعيش في عالم ساقط لا ينقطع تقريبًا عن أن ينغص علينا حياتنا بأن يثير فينا المشاعر المؤلمة.

استعرضنا في الفصول السابقة قدرتنا على أن نحب، وأن نتمتع بالهدف، وقدرتنا على التفكير في صور وكلمات، وقدرتنا على وضع التوجيهات ومتابعتها، أما الآن فأود أن ألقي نظرة على قدرتنا على الإحساس، وهذا هو العنصر الأخير من العناصر التي تحدد الشخصية، ويجب أن نستعرض ثلاثة أسئلة على الأقل إذا كان لنا أن نفهم شيئًا عن حياتنا العاطفية:

١- ما هو مصدر عواطفنا؛ من أين تأتي؟

٢- ما هي فائدة عواطفنا؛ ما الذي نستطيع أن نتعلمه منها؟

٣- كيف يجب التعامل مع عواطفنا؛ ما الذي نفعله بها؟

وقبل أن نستعرض هذه الأسئلة أريد أن أذكر نقطة بسيطة، ولكنها مهمة، والتي يمكن أن تطغي عليها ـ إلى حد ما ـ المناقشة الفنية التالية، والنقطة هي: هل هو أمر طبيعي أن نتعرض للألم؟

الحياة في عالم ساقط معناها أن الألم أمر لا مفر منه، لننظر إلى يوسف الذي سبق

أن تعرض لخيانة إخوته، وكيف أن العاطفة طغت عليه أكثر من مرة فيما كان يتجه نحو المصالحة معهم في مصر (تك ٤٣ :٣٠ ، ٤٥ : ١)، أو لنتأمل حنة التي كانت محتقرة ومرفوضة في طفولتها، تبث حزنها أمام الله وترجوه أن يعطيها ابنًا (١ صم ١ :١٠-١٨). كانوا هؤلاء أناسًا أتقياء، ولكنهم كانوا يعانون من ألم عاطفي عميق، ويبدو أن الكتاب المقدس يمدحهم ولا يدينهم بسبب هذا الألم، وأود أن أشرح السبب: في السماء لن يكون هناك ما يسبب ضيقًا أو ألمًا، أما هنا فكل شيء به خطأ.

وإدراكنا المتزايد للكيفية التي يجب أن تكون عليها الأمور، مع عدم حدوث ذلك - وهذا إدراك ينمو مع النضج - ليس من شأنه سوى أن يزيد الألم. وكلما زاد التزامنا بمعرفة الرب قوةً، زاد أنيننا من ظروفنا التي تدعو إلى اليأس، وهي نفوسنا غير الكاملة، ومن الجلي أن الفرح أمر ضروري وهو متأصل في المستقبل.

وكثيرًا ما يتولد فينا الانطباع بأن المسيحيين الروحيين يشعرون دائمًا بأنهم على خير حال، وقد قيل لنا أن الوجه الذي تظهر عليه الكآبة يعد إعلانًا سيئًا للمسيحية. والرجاء فيما ينتظرنا مستقبلاً يُفترض فيه أن يستغرقنا إلى درجة أن كل معركة حالية تُترجم إلى فرصة مجيدة للترنم. وشكله هذا التفكير تكمن في أنه صحيح تقريبًا، وعلينا أن نرحب بالمصاعب، وأن نفرح دائمًا، وأن نطمئن من ناحية مقاصد الرب الصالحة نحونا، ولكن لا يجب أن يحل فرحنا الآن محل المعاناة والألم، بل يجب أن يدعمنا خلالها. وكان ربنا يسوع رجل أحزان حتى فيما كان مسرورًا لاتباعه مشيئة أبيه، لقد عانى آلامًا كثيرة فيما كان يتطلع إلى الفرح العتيد.

ويجب أن نخلِّص أنفسنا من الضغط الذي ينجم عن رغبتنا في أن نشعر بأننا على خير حال، وذلك إذا حدث شيء أليم بشكل مشروع. والمسيحيون الذين يتعرضون للألم يتوجب عليهم أن يرحبوا بهذا الألم ولا يرفضونه بدافع الشعور بالإثم، والحزانى بسبب فقد أحد أحبائهم يجب أن يحزنوا، والآباء الذين يعانون من تمرد أولادهم يجب أن يتألموا، والزوجات اللواتي يعانين من ضعف أزواجهن يجب أن يشعرن بالغضب والإحباط، والأطفال الذين يفرض آباؤهم سلطتهم عليهم دون أن يشاركوهم اهتماماتهم يجب أن يشعروا بأن آباءهم قد خذلوهم، والأشخاص الذين يفقدون وظائفهم يجب أن

يشعروا بالحزن، والمثليون الذين يكرهون رغباتهم المنحرفة يجب أن يئنوا، وليس من بين هذه العواطف ما يتنافر بالضرورة مع النضج، والواقع أننا سنرى فيما بعد أنه يمكن استخدام كل عاطفة في دفعنا نحو إدراك أعمق باتكالنا على الله.

لذلك، لا غضاضة في أن نشعر بالأذى، والأكثر من ذلك أنه من الضروري أن نتألم، والألم دليل على الحياة على الأقل طالما أننا نعيش في عالم ساقط. وغرضنا الفوري حين تداهمنا مشاعر متعبة يجب ألاّ يكون ذلك الذي يأتي بشكل طبيعي: ألا وهو إنهاء الألم، ومن الأفضل أن نقبل هذه المشاعر بالسماح لأنفسنا أن نشعر بها تمامًا وبعد ذلك نفكر فيما ينبغي عمله. وليس من بين ما ذكرته في هذا الفصل ما يمكن أن يُفهم منه أنه تبرير للتفكير في طريقة نهرب بها من الألم، بل وحتى التقليل منه. ولقد دُعي المسيحيون لمواجهة الواقع مهما كان، ولا نجد نظيرًا لدانيال في حياة المسيحي الناضج، ولست بهذا أشجع بالطبع على البحث عن طريق لزيادة ألمنا؛ فالماسوشية تعد اعتلالاً وليست فضيلة، لكن ما أقترحه هو أنه حينما يداهمنا الألم يجب تقبله كفرصة للدخول أكثر فأكثر إلى حقيقية عالم يحتاج إلى فداء، وقد يكون من تأثير الألم أن يزيد من تعطشنا إلى الله ورغبتنا في أن نعيش من أجله.

وعلى ذلك يجب علينا أن نشعر بالعواطف لا أن نتجنبها، غير أننا في حاجة إلى أن نفهمها، وأن نشعر بالألم؛ فهذا أمر لا قيمة له. وتعلّم كيفية استخدام عواطفنا لنكشف النواحي التي تحتاج إلى إصلاح، أو التي يجب أن يُمارَس فيها الإيمان بشكل أعمق فإن هذا يتطلب أولاً أن نفهم من أين تأتى العواطف.

مصدر العواطف: من أين تأتي؟

إنني أتعاطف مع ما يريده كثير من المسيحيين بألاّ نجعل الموضوعات أكثر صعوبة مما هي عليه، وقد وُجِّه الانتقاد إلى أخصائي علم النفس - ولا سيما لمن ينتمون منهم إلى المدرسة الخليلية - وكان الانتقاد عن حق لأنهم يُعقِّدون موضوعات الحياة إلى الدرجة التي تبدو معها النصائح الكتابية ساذجة؛ فقد حل العلاج طويل الأمد محل الثقة، وحل الفحص الشامل بدلاً من الاعتماد على الله لإتمام العمل الذي بدأه. وقد قيل لنا أن الحياة معقَّدة للغاية، ومن ثم فإنه لا يجب علينا أن نعتقد أن هناك شيئًا غير الحكمة السيكولوجية

بوسعه أن يقوم بمهمة تسوية الأمور. ومن وجهة نظري فأن أي فهم للمشاكل العاطفية يستبعد الكنيسة عن عملية تقديم المساعدة، يُعد فهمًا خاطئًا، وعلى صعيد آخر، فإنه في جهدنا المحمود للمحافظة على دور الكنيسة، لا يجب أن نختزل التعقيد الحقيقي إلى مفهوم مبسط لمساعدة الجهلة من رجال الكنيسة على الشعور بالكفاءة، ويجب السماح بأي قدر من التعقيد تتطلبه المعلومات، وأن نحرص على العمل في إطار حدود ما ذكره الكتاب المقدس عن الناس. ولن يفيد في شيء أن نأتي بصيغ ثلاثية الخطوات لشرح عواطف، فتفشل في تناول الحقيقة الداخلية بأكملها. والنظريات التبسيطية التي تَعِد بخلاص سريع موجودة بكثرة، وكذلك الحال بالنسبة للناس الذين يبحثون عنها.

- السلوكيات السيئة تسبب العواطف السيئة، لذلك عليك بالاستقامة.
- الأهداف الرديئة تسبب عواطف رديئة، لذلك أعد توجيه حياتك.
- التفكير الشرير تتولد عنه عواطف شريرة، لذا عليك بالتفكير السليم.
- الإيمان السيء يسبب عواطف سيئة، لذلك عليك بالاتجاه نحو الروحيات.

وقوة الحث على أن نحتفظ ببساطة الأمور تعكس بشكل جزئي كراهيتنا للفوضى، والأشياء التي لا نفهمها تحطم كبرياءنا وتجعلنا نشعر بضعفنا ويأسنا - وهذا ما لا نحبه. ونحن نريد طريقة لحل مشاكلنا العاطفية لا تتطلب منا الاتكال على الله بحماس شديد. والصيغ الخاصة بفهم عواطفنا والتعامل معها، كثيرًا ما تتطلب منا اتّباع هذا الطريق؛ وعلى ذلك ينبغي تجنبها، وفي محاولاتنا التي نبذلها لتتبع عواطفنا حتى مصدرها، يكون من المفيد أن نميز بين نوعيتين من العواطف:

١- العواطف المحببة، والعواطف البغيضة.

٢- العواطف البناءة، والعواطف الهدامة.

العواطف المحببة والعواطف البغيضة:-

لقد خلقنا الله كائنات تتفاعل، أي تؤثر وتتأثر، وفي بعض النواحي تتفاعل مع بيئتنا بطرق يتم تحديدها بالكامل على أساس ما يحدث لنا؛ الصفعة تسبب ألمًا والملاطفة الحارة أمر طيب يولد السرور، ولم يوجد ألم عقب الصفعة، أو سرور من الملاطفة، فهذا معناه أنه يوجد خطأ ما لأن أجسادنا لا تتفاعل مع التحفيز على النحو المطلوب.

وكما أن الجسم الصحيح يتفاعل مع المحفز بطريقة يمكن التنبؤ بها، هكذا أيضًا

الإنسان السليم يتفاعل مع نوعيات معينة من الخبرات بمشاعر طيبة أو بغيضة؛ فالعمل الطيب عادة ما يجعلنا نشعر شعورًا حسنًا، أما العمل البغيض فيولد فينا شعورًا سيئًا، ومن العدل القول إن الإحداث السارة عادة ما يتولد عنها عواطف محببة، أما الأحداث البغيضة فتولد عواطف بغيضة.

عواطف بناءة ـ هدامة:

يهتم معظمنا ـ وإلى حد كبير جدًا ـ بناحية ما إذا كنا نحب الشعور الذي ينتابنا بأكثر من اهتمامنا بقيمة مشاعرنا، لكن هذا الاهتمام يعكس سوء تفكيرنا ـ نحن نريد ثروتنا الآن وليس في وقت لاحق ـ والنظرة الأكثر واقعية، والتي تنظر إلى هذه الحياة وكأنها تمهيد للحياة الأخرى، تعرفنا أن العواطف البناءة غير اللطيفة، أفضل من العواطف المحببة الهدامة. (وغني عن القول، أن الخيار الأول بالطبع سيكون العواطف المحببة والبناءة في الوقت نفسه).

وهذه النوعية الثانية لها أهميتها ويجب أن نتأملها بالتفصيل، ما الذي يجعل العاطفة بناءة أو هدامة؟

بناءة أو هدامة لأي شيء؟ وهل نحن الذين نحدد ما إذا كانت مشاعر من هذه النوعية أو تلك أو على غرار المشاعر المحببة والبغيضة تكون خيارنا على أساس ما يحدث؟

والنقطة التي نبدأ بها هي أن نعرف أن بعض العواطف يبدو أنها تتداخل مع ما يجب على الناس أن يعملوه ـ كما يحدث بالتحديد مع وصية: تحب الله والآخرين ـ ويمكن على هذا الأساس أن يُنظر إليها بحق على أنها هدامة، وهناك عواطف أخرى تشجع اتّجاهنا لمحبة الله والآخرين ولهذا فهي بناءة، وهي تسهل عملنا على النحو الذي قصده خالقنا.

وعلى هذا النهج من التفكير فإن هذا معناه أنه يمكن ـ وعلى نحو مشروع ـ وصف العواطف الهدامة على أنها خاطئة، أو أنها على الأقل جزء من عملية خاطئة في داخلنا. وعلى الرغم من أنني أعتقد بأنه يتوجب علينا قبول أن بعض العواطف تعكس عمل الخطية، إلاّ أنه يوجد قدر من الخطورة في وصف عاطفة ما بأنها خاطئة، دعني أوضح هذه المخاطرة... هناك امرأة شابة متزوجة تريد بإخلاص أن تتبع الرب، علّموها ـ على نحو

سليم ـ أن هناك نوعيات من الغضب تعد خطية، كانت حين تشعر بغضب بسيط من زوجها (وهو رجل بمقدوره أن يثير الغضب الشديد حتى بالنسبة لأكثر النساء تقوى) كانت على الفور تصف عاطفتها هذه بأنها خطية، وتحاول ألاّ تشعر بها، وبدلاً من استخدام غضبها لتكشف بمزيد من الدقة ما الذي تحتاج إلى التعامل معه في شأن حياتها الزوجية، نجدها تنكر وجود شيء من هذا القبيل. ولا يجب إنكار العواطف خشية أن يكون بعضها خطية وعوضًا عن ذلك يجب تقييمها، والمشاعر ـ سواء كانت محببة أم بغيضة ـ يجب تقييمها لتحديد ما إذ كانت بناءة أم هدامة، وما إن يتم الاعتراف بشعور ما، إلاّ ويكون السؤال المهم الذي يُطرَح هو ما إذا كانت تلك العاطفة تعكس ابتعاد عن الله أم أنها تتناغم مع الاتّجاه نحوه، وإذا اتضح أن ما نشعر به يعوق محبتنا لله أو لشخص آخر، هنا يجب أن نرد هذه العاطفة إلى أصلها ـ هناك شيء يدور داخلنا ويحتاج إلى تصحيح. أما من ناحية ما إذا كانت عاطفة ما بناءة أم هدامة، فهذا يعتمد ليس على ما حدث لنا، بل على الكيفية التي استجبنا بها داخليًا لما يحدث أيًا كان، والأحداث تحدد ما إذا كنا نشعر بعواطف محببة أم بغيضة، لكننا نحن الذين نحدد ما إذا كانت مشاعرنا بناءة أم هدامة، ووجود العواطف الهدامة يشير إلى وجود مشكلة في داخلنا وعلينا أن ندرس بعناية العمليات الداخلية التي أدت إما إلى عواطف بناءة، وإما إلى عواطف هدامة.

لنبدأ بحدث بغيض: اكتشافك أن ابنك المراهق يدخن الماريجوانا، والحدث بغيض؛ وعلى ذلك كانت عاطفته بغيضة، وينتابك شعور سيئ، وهذه العاطفة البغيضة ستصبح إما عاطفة بناءة، وإما عاطفة هدامة، وهذا يتوقف على حكمتك في التعامل مع هذا الحدث.

وإذا اعتقدت اعتقادًا صحيحًا وجازمًا (ر ــ ١) أن اشتياقك العميق لم يتأثر بأي شكل كان نتيجة هذا الحدث، وإذا نظرت إلى نفسك (ر ــ ٢) على أنك حامل صورة محبوب ولك قيمة ـ بغض النظر عما يحدث في حياتك ـ هنا سيُنظر إلى الحدث على أنه خيبة أمل رهيبة، ولكنه لا يشكل تهديدًا شخصيًا، والفرق بين الحالتين كبير جدًا. وفي إحباطك، سترغب بلهفة ـ ولكن لن تطلب ـ أن تتغير الأمور إلى ما هو أفضل؛ فإذا تحققت الرغبة ـ يكرس المراهق نفسه للمسيح وينسى المخدرات ـ هنا يتغير الشعور بخيبة الأمل إلى شكر وامتنان، وهذا الحدث السار الجديد يحفز على مشاعر محببة.

لكن إذا أُعيقت الرغبة (لقد تم إلقاء القبض على الفتى لحيازته مخدرات بطريقة

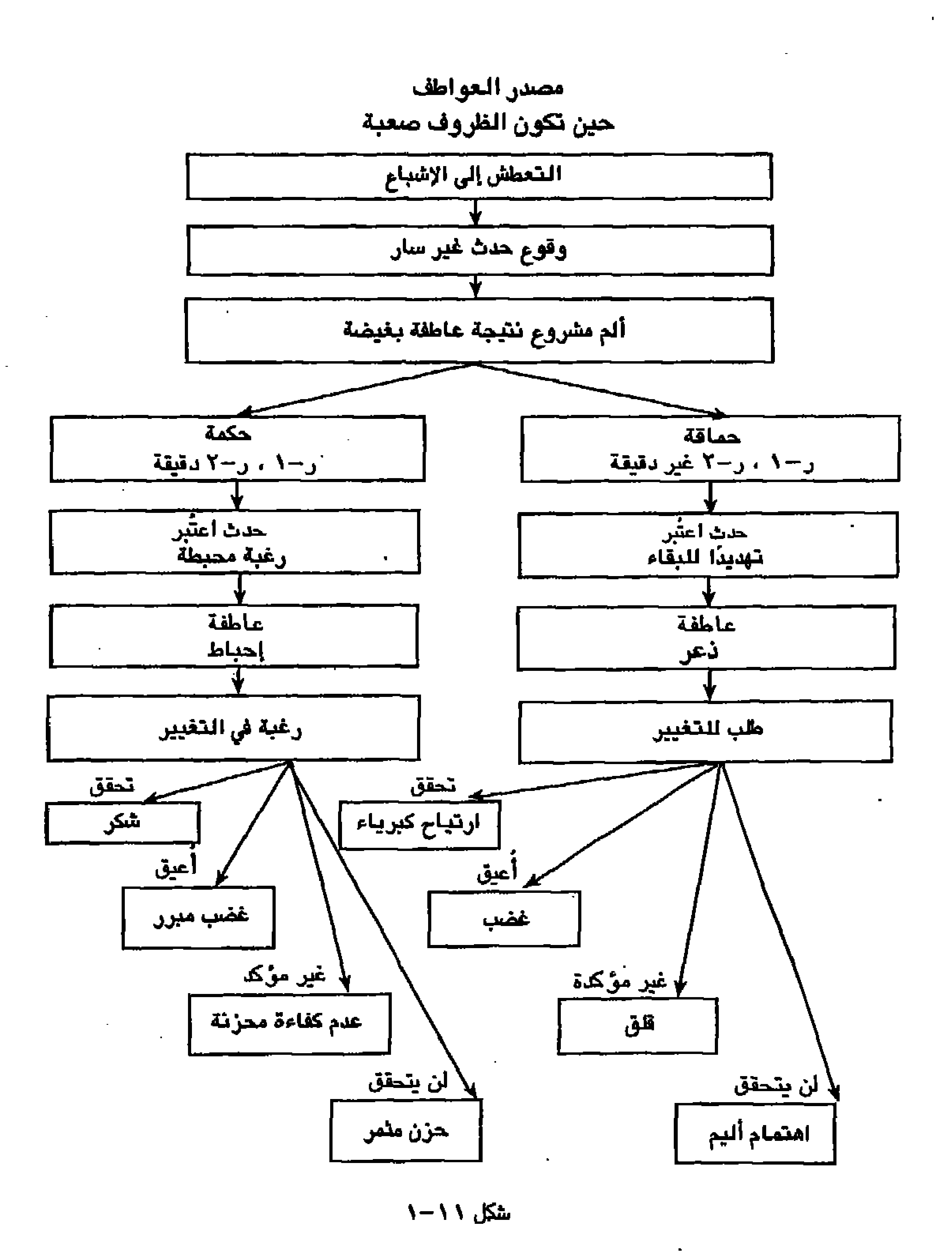
غير شرعية) فسوف ينجم عن هذا ليس خيبة أمل وألم عميق فقط، بل وغضب مبرر أيضًا، غير أنه إذا ظلت النهاية المرغوبة غير مؤكدة (يبدو أنه في حال أفضل، ولكن الدليل غير مؤكد) هنا يصبح الشعور مؤلمًا، ولكنه اهتمام مثمر. سيتم فحص الخيارات، وتم السعي للحصول على مشورة، وتُرفع الصلوات الحارة. وإذا حدث في وقت ما أن الرغبة بدت عسيرة المنال (لعل المراهق أنهى حياته بجرعة زائدة عن الحد)، هنا تتعمق خيبة الأمل إلى حد الحزن الذي يكاد يكون غير محتمل، لكنه يمكن أن يكون بناءً. وأخيرًا يُلَم شملك مع زوجتك في قوة كينونة المسيح، وماهية مقاصده، وتجد طريقًا لمواساة ومساعدة الآخرين الذين لديهم مشاكل مماثلة، وهذه استجابة تسهل مناقشتها بكثير عن تطبيقها بالفعل. والآن ابدأ بنفس الحدث البغيض وتتبع التطورات التي تنجم حينما تكون الاستجابة الداخلية لهذا الحدث حمقاء، ولعل الأب كان قد وضع رجاء في الفرح في عائلته (ر-١):

« أريد أن تكون الأمور على خير حال في بيتي إذا كان لي أن أحترم نفسي»، وربما كان هذا الاعتقاد يستند إلى صورة تعكس طلبًا دفاعيًا أن يأتي آخرون لمساعدته «طوال حياتي لقيت معاملة سيئة؛ إنني ضحية ضعيفة في حاجة إلى أناس - وبصفة خاصة عائلتي - يفهموني ويراعون مشاعري». وبهذه النوعية من التفكير في الدائرة العقلانية يُنظر إلى الحدث البغيض على أنه تهديد للوجود الشخصي، والعاطفة الفورية عندئذ لن تكون محبطة فحسب بل ومريعة أيضًا.

وحين يتهدد جوهر كياننا فإن الذعر الذي نشعر به سيقوي التزامنا بحماية الذات، ولن يُنَصَّبَ الاهتمام على عمل معقول، بل على حفظ الذات؛ لقد تم الدخول إلى الطريق المؤدي إلى العواطف الهدامة.

وإذا تحقق «الطلب» بأن تتغير الأمور - المراهق يثق في المسيح - يهدأ الذعر ويتحول إلى «راحة»، لكن مع الخوف من أن المشكلة قد تعود، وإذا لم يتم طلبه - تم القبض على ابنك ومعه المزيد من المخدرات - فإن الخوف من الطلب بذعر يصبح «غضبًا»، ومن عادة الوالدين عند هذه النقطة أن يردوا بطرق غير مثمرة على الإطلاق من شأنها أن تنفر المراهق أكثر فأكثر. وإذا ظل الغرض المطلوب غير مؤكد - ظهر أن المراهق يسير على نحو حسن، غير أنه ما من أحد يستطيع التأكد من ذلك - هنا يتحول

الذعر إلى قلق ينغص عليه حاله. وإذا تغيرت الأمور بطريقة لا يمكن معها أن يتحقق الطلب - انتحر المراهق - تتحول العاطفة إلى إحساس غامر بالغضب، الشعور بذنب عدم الكفاءة. ويُلاحَظ أن نفس الحدث البغيض الذي يولّد بالضرورة عواطف بغيضة يؤدي إلى عواطف قد تكون بناءة وقد تكون هدامة، وهذا يتوقف على حكمة الرد الداخلي على هذا الحدث. اسمحوا لي أن أوجز كل ما قلته برسم توضيحي (الشكل ١١ -١) .



شكل ١١-١

وثمة فهم مماثل يمكن تتبعه في الكيفية التي تصبح فيها العواطف بناءة أو هدامة حين تكون الأحداث مقبولة؛ فالأحداث السارة تولّد عواطف سارة، ولكن حتى العواطف السارة يمكن تحويلها إلى عواطف هدامة، وهذا يتوقف على ردنا التقييمي الداخلي العميق (وفي كثير من الحالات تكون في العقل اللاواعي تمامًا). لنتأمل توضيحًا للعملية: تزوجَت امرأة من زوج من النوعية العادية جدًا؛ لم يكن كثير المبالاة، كما أنه لم يكن فظًا، ولسبب غير معروف فاجأها ذات يوم بهدية حساسة على نحو خاص، شيء كانت في أمس الحاجة إليه، ولكنها لم تطلبه أو تثر أية مشكلة بسببه؛ وكان من الطبيعي أن تشعر بالرضا حيال هذا.

الأحداث السارة تولّد عواطف سارة محببة

أما من ناحية ما إذا كانت العاطفة السارة تتحول إلى عاطفة بناءة أم هدامة، فهذا يعتمد بالكلية على فهمنا الفعلي للعلاقة بين الحدث وتطلعاتها العميقة. والحكمة تقول إن التطلعات المشروعة من ناحية إظهار زوجها الود والحنان تجاهها، فقد أظهر زوجها هذا بحرارة عن طريق اهتمامه بها، غير أن هناك موضوعًا أساسيًا وهو أنها ما زالت تحتفظ ببكارتها وهذا أمر يتعلق أساسًا بأنوثتها ولا علاقة له بعطف زوجها، وإذا كان فهمها صحيحًا فإن الحدث سيُنظَر إليه على أنه إشباع لرغبة مشروعة تمامًا، ولذلك تشعر بحرارة مشروعة، وتتمنى بكل لهفة أن تكون هديته بداية لمستوى جديد للدخول في علاقة رومانسية معها، وإذا تحققت هذه الرغبة فهذا ما يشعرها بسعادة وامتنان حار. أما إذا عاد زوجها بسرعة إلى طرقه الغبية، فسوف تشعر ـ وعن حق ـ بأنه قد خذلها ولذلك سوف يتملكها الغضب.

وإذا اشتعل لهب الرومانسية بشكل متقطع، ثم توهج وسطع بعد ذلك، ثم عاد ثانيةً يشتعل بشكل متقطع، ثم يتوهج ويسطع ثانية، فإنها ستعيش في حالة من الشك، وتشعر بترقب وانشغال غير مستقر. وإذا تبين أن الهدية كانت آخر جهود تشابكه معها، فإن انسحابه سيقضي على كل أمل في علاقة حميمة، ولابد وأن تشعر في هذه الحالة «بحزن» عميق، ولكن قد يكون مثمرًا.

لنفترض أن الحدث السار المتعلق بالهدية قد فُسِّر في إطار المعتقدات والصور الشخصية، وربما تكون المرأة قد ظلت لسنوات تتصرف على افتراض أنها ليست جذابة

وغير مرغوب فيها جنسيًا، ولنفترض أنها كانت تدافع ضد الألم الناجم عن رفض أبيها لها بتفسيرها لهذا الرفض، ليس على ضوء افتقار أبيها إلى عاطفة المحبة (وهذا تفسير مؤلم)، بل على أساس أنها تفتقر إلى السمات التي تجعلها محبوبة (وهذا تفسير أقل إيلامًا) لأنه يترك لها شيئًا من الأمل للتعامل مع المشكلة؛ فبوسعها أن تتعلم كيف تبدو جميلة، أو على الأقل تخفي عدم جمالها. والتمسك بصورة أنها مرغوب فيها (ر-٢) تتولّد عنه إمكانية قياسها بشيء لتنال القبول أو لتجنب الألم.

بوسعها أن تحفر لنفسها آبارًا مشققة، وهنا نجد مبدأ حماية الذات؛ فلديها فرضية تضع على أساسها استراتيجيات لتقليل الألم في العلاقات.

وإذا أخذنا هذه الفاعليات الداخلية في الحسبان، فإن هدية زوجها المفاجئة تشكل تهديدًا، أنها تتلقى حبًا لم تعمل من أجله. والحب الذي لا يشترى هو على وجه الدقة ما تتطلع إليه، غير أنه في ذات الوقت أمر مفزع؛ فهي لا تستطيع أن تجعله مستمرًا، لأن هذا يعتمد بكليته على شخص آخر.

وإذا رسمت لنفسها صورة امرأة غير مرغوب فيها جنسيًا، فمن المحتمل أن تعتقد (ر-١) أن إخفاء أمر عدم الرغبة فيها وراء ستار من الأعمال الصالحة قد يُوجِد بعض الأمل في حصولها على الحب الذي تتوق إليه، وفي محاولة يائسة لاستعادة السيطرة على الوضع، قد تقرر أن تصبح فاتنة مغرية بصفة خاصة حتى تضمن تلقّي الهدايا، ويجب تفادي نقاط الضعف مهما كان الثمن، والسيطرة على الموقف هي الحل.

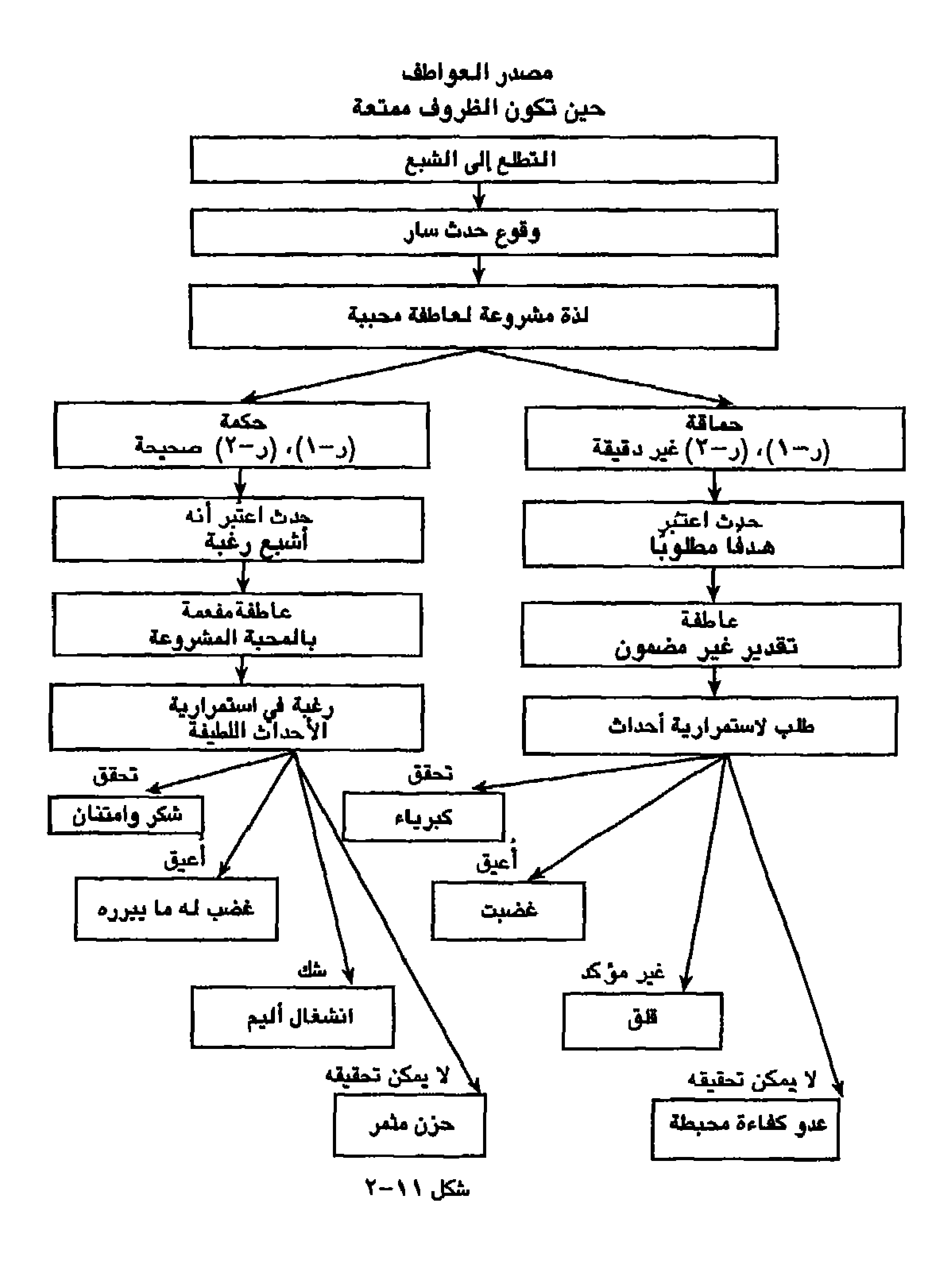
وبالنظر إلى أن العطف المكتسب سينظر إليه كأمر ضروري لجوهر أنوثتها كامرأة، فإن الحصول على الهدايا أصبح هدفًا مطلوبًا؛ فبقاؤها أصبح معرضًا للخطر. وكرد على هدية تُقدم كأداء للواجب وليس بدافع الحب، فقد تشعر الزوجة لذلك بقلق من ناحية تقدير دفء عاطفتها، الأمر الذي بات غير مضمون. واتكالها على الاهتمام المستمر من ناحية زوجها، يدعم التزامها بحماية نفسها من ألم توقف الهدايا. فتصبح «جيدة أكثر من اللازم»، حيث تعمل كل ما من شأنه أن يؤثر فيه، وذلك ليس لتشجيعه، بل للسيطرة عليه. وإذا نجحت في ألاعيبها (استجاب رومانسيًا لدعوتها له للعشاء على ضوء الشموع)، فهذا ما يشعرها بنوع لطيف من الكبرياء، بدلاً من العرفان الناجم

عن المحبة، وهي تتمتع برومانسيته، ولكنها تحب بالأكثر حقيقة أنها التي دبرت كل ما حدث. ولو ذهبت جهودها هباء (أطفأ الشموع وأضاء النور وازدرد الطعام) سوف يكون ردها عنيفًا وغضبها جامحًا. وربما يستمر اهتمامه ولكن بفتور، عندئذ ستشعر بعدم الثقة في حبه، وتشعر بضغط وقلق بداخلها.

وإذا امتدت الأسابيع التي لم تُقدَّم فيها الهدايا إلى شهور بل وإلى سنوات، فقد تسلم بفشلها وقد عمر قلبها حقدًا، لقد بذلت كل ما في وسعها من جهد، ولكن ذلك لم يكن كافيًا، وعند هذه النقطة يتحول فشلها إلى يأس. وبحزن تشعر أنها غير كفء (إنني لست امرأة بكفاءة أن تربح محبة رجل)، وإذا ما اتخذت هذا الموقف، فقد أصبحت مهيأة للدخول في علاقة غرامية (ربما يريدني رجل آخر) ويكون هذا هو رجاؤها الوحيد.

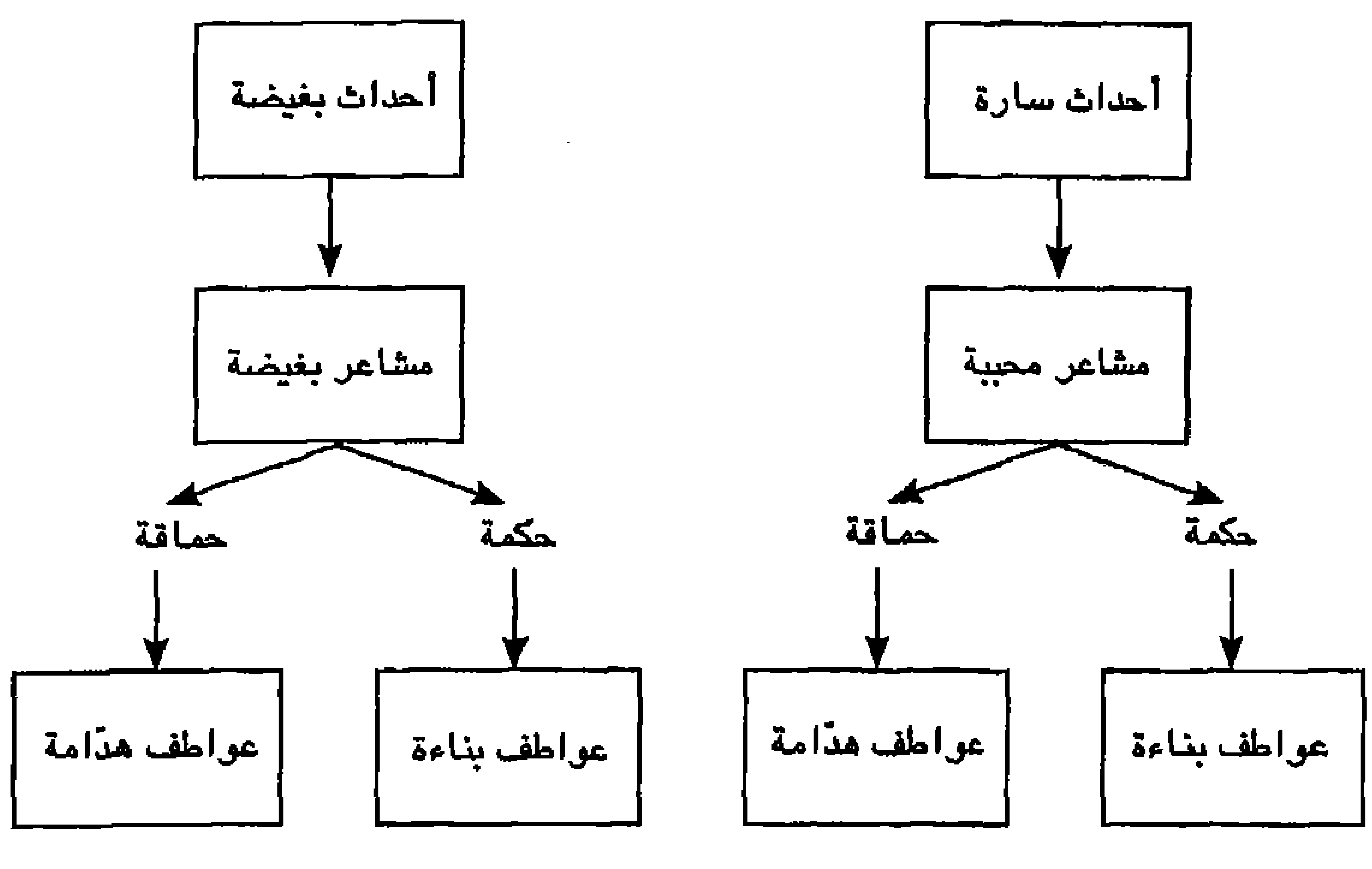
وهناك جدول توضيحي (شكل ١١-٢) مماثل للأول ويوضح ما تحدثت عنه للتو؛ فالعواطف المحببة الناجمة عن حدث سار، يمكن أنَ تصبح هدَّامة، أو بنَّاءة، وهذا يتوقف على الحكمة التي يتم بها تقييم الحدث.

دعني أكرر النقطة الأساسية في مناقشتنا حتى الآن: إن عذوبة عواطفنا تعتمد تمامًا على الحكمة التي نتعامل بها مع تلك الأحداث.



شكل ١١-٢

لكن الالتزام بحماية الذات التي نجدها متأصلةً في التفكير الأحمق، قادر على إفساد كل عاطفة سواء كانت محببة أو بغيضة وتجعلها كلها مدمرة. أما الالتزام بالاتكال على الرب من كل كياننا بمقدوره أن يحول كل عاطفة حتى أكثرها إيلامًا إلى سُبل لاتباع الله بشكل كامل.



شكل ١١-٣

فائدة العواطف:

ما الذي بوسعنا تعلمه منها؟

مع بعض الإلمام بمصدر العواطف، بوسعنا أن نعرف قيمتها على نحو أفضل، وعذوبة مشاعرنا تخبرنا بما يزيد قليلاً عن مجرد معرفة إذا كانت الأحداث التي شاهدتها حياتنا ممتعة أم محزنة. والعواقب التي تتولد عن عواطفنا تكشف لنا ما هو أكثر من ذلك بكثير، وحين تتدخل الطريقة التي نشعر بها مع حياتنا كما ينبغي في علاقتنا يكون الدليل قويًا على أن عمليات قلب الإنسان الخفية والمخادعة تعمل بنشاط وتصرح طالبة اهتمامًا مشروعًا؛ وعلى ذلك يمكن للعواطف أن تكون بمثابة ضوء تحذيري يخبرنا بأن نلقي نظرة إلى الداخل، أو أن تكون دلالة على أننا على الطريق الصحيح في جهودنا التي ترمي إلى أن نتصرف على وجه سليم كمخلوقات حاملة للصورة، وإنها لأخبار سارة أن نعرف أن مصدر المشاعر التي سلبت مني الطاقة التي تمكنني من مواصلة اتباعي لله موجود في داخلي، وهذا معناه أن بوسعي أن أعمل شيئًا حيال مشاكلي العاطفية، وقد لا أستطيع أن أصنع مشاعر لطيفة، غير أنه بمقدوري أن أتعلم أن أنضج بطريقة تجعل الكثير من عواطفي عواطف بناءة.

وعملية النضج في الحكمة هي بالطبع - وعلى وجه الدقة - عملية، ولا يوجد أسلوب سريع يتضمن الضغط على زر فينطفئ القلق ثم نضغط على زر آخر فيشع السلام.

والنمو في الإيمان بالله ورؤية الحياة من منظوره هي عملية تستمر طوال العمر، وهو تحول ببطء العواطف الهدامة إلى عواطف بناءة. وقيمة العواطف أنها تتحكم في عملية النضج. وحين أصبح مدركًا أن حقيقتي العاطفية الداخلية تتنافر مع الحركة نحو علاقة، بوسعي أن أفترض أنني أطلب شيئًا غير مشروع اعتقدت عن خطأ أنه ضروري لراحتي الأساسية، وعندئذ يكون الوقت قد حان للعمل الصعب وهو المزيد من فحص الذات.

والبحث عن المشكلة - إذا كنا نريد تجنب الاستنتاجات الخاطئة والطرق المسدودة - يجب أن يكون في إطار الاسترشاد بثلاثة مصادر للمعلومات وهي:-

روح الكلمة، كلمة الله، وشعب الله.

والصلاة الحماسية - التي أطلب فيها من روح الله أن يختبرني (مز ١٣٩ :٢٣ - ٢٤) وأن يمتحن قلبي المخادع الذي هو وحده يعرفه (إر ١٧ :٩-١٠) - تُعد بدايةً لابد منها، والتأمل باتضاع في آيات الكتاب المقدس وقدرتها على أن تخترق وتصل إلى أفكار القلب ونياته (عب ٤ : ١٢)، ربما تكشف لي عن الأهداف الخاطئة التي أنشدها. وأي تعامل مع شعب الله يكون عرضةً للانتقاد قد يؤدي إلى فكر وتشجيع بوسعه أن يعكس عملية تقسي القلب الناجمة عن غرور الخطية، انظر (عب ٣ : ١٣) وبصفة خاصة الإصحاح ١٣ من هذا السفر. ويجب ألاّ ننسى أن الغرض من فحص الذات لا يجب أن يضيع في غمرة الانشغال بالذات، والغرض هو الكشف عن مكامن الحماقة، والتعامل مع عواطفنا الهدامة يمكن أن يؤدي بنا إلى أبعاد جديدة للتوبة، ودراسة عواطفنا وجذورها تُعد اختبارًا يؤدي إلى التواضع، وما من أحد يخلو من نوعيات العواطف التي تعكس نقائصنا المستمرة، وعملية التقديس تتطلب منا ألاّ نتجاهل هذه العواطف.

التعامل مع عواطفنا ... ما الذي نعمله بشأنها؟

إذا أمكن استخدام العواطف على نحو حسن في جهودنا التي ترمي إلى أن ننمو كمسيحيين، فهذا معناه بالتالي أنه يتوجب علينا أن نوليها اهتمامنا، وبالنظر إلى أن الضوء الأحمر على لوحة أجهزة القياس الموجود أمام سائق السيارة تعطينا معلومات مهمة عن كيفية عمل السيارة، فإن ذلك يلفت نظرنا حين يحدث العطل، وإهمالنا هذه المعلومات معناه أننا سنواجه المتاعب على الطريق.

ومع ذلك أحيانًا تكون لدى المؤمنين فكرة أن الاهتمام بالعواطف هي فكرة دنيوية، نابعة من عقلية الأخصائيين النفسيين التي تقول: «عليك أن تشعر بأنك على خير ما يرام». وفي كثير من الكنائس يبدو أن الطلب هو: «لا تشعر بمشاعر تتعلق بعواطف مثل الخوف أو الغيرة»، ونتيجة هذا التعليم ـ والتي نادرًا ما تكون واضحة لكن كثيرًا ما تكون ضمنية ـ هي التظاهر والإنكار وزيادة المشاكل الشخصية وسطحية العلاقات والفرص المفقودة للنمو.

وثمة مشكلة كهذه بالنسبة للنصيحة القائلة بألا نشعر بالعواطف المتعبة، وهي أنه يمكن أن تتبع بسهولة، ولقد أثبت الإنسان ـ وإلى حد كبير ـ أنه بمقدوره أن ينكر على نفسه أنه يشعر بعواطف معينة، ومن بينها عواطف قوية مثل الغضب والامتعاض. كنت أقدم المشورة لرجل ضعيف كان متزوجًا من امرأة جميلة ولكنها كانت أم رئيسة (تحكم الأسرة) وكانت مسيطرة، وفي إحدى الجلسات ـ التي كانت تقاطعه فيها بصفة مستمرة، وتصحح له بعض أقواله، وتعامله بتعال ـ إذ به يؤكد لها بكل حرارة حبه لها. وكانت هناك بعض الأسس التي قامت عليها حرارته وهي التزامه بحماية نفسه بألا يتحمل أية مسئولية عن العائلة جعله يقدر لها إصرارها على رغبتها في تسيير الأمور، وعلى الرغم من ذلك كان يشعر بامتعاض؛ ذلك أن عدم احترامها له إلى جانب طلبه الهادئ بأن توليه الاحترام الذي يتطلع إليه ولّد فيه شعورًا بالمرارة ظل ينكره طوال سنوات. وحتى هذا الإنكار كان يعد حمايةً ذاتيةً ذلك أن اعترافه لنفسه بما يشعر به من غضب، قد يؤدي إلى مواجهة مع زوجته، وهذا أمر يفزعه لأن رؤيته لنفسه بأنه ليس ندًا لها (ر-٢) قد تنكشف إذا دخل في جدال مع امرأة قوية إلى درجة لا تسمح له بمواجهتها، وكان من نتيجة نجاحه في إخفاء غضبه عن زوجته وعن نفسه، أن أصيب باكتئاب مزمن لشعوره بالدونية. ويُلاحَظ أن قلوبنا الخادعة قادرة على إخفاء العواطف القوية ـ ولاسيما الغضب ـ والتي إذا ما عُرِفَت وتم التعامل معها على نحو سليم يمكن أن تؤدي إلى توبة تغير الحياة. وهكذا فإن المبدأ الأول للتعامل مع العواطف هو ببساطة «أن تشعر بها، عليك أن تخصص وقتًا تتأمل فيه ما يحدث سواء كان أمرًا طيبًا أم سيئًا، وسواء كان مهمًا أم تافهًا، وعليك أن تتناغم مع التأثير العاطفي لأحداث الحياة». وهذا المبدأ البسيط نجد له توضيحًا كافيًا في الكتاب المقدس؛ فحين علم نحميا أن أسوار أورشليم أصبحت حطامًا

وجد مكانًا ليجلس ويبكي، وقد تعمد أن يدع نفسه يشعر بالوطأة العاطفية لما حدث، وكانت النتيجة تصميم من القلب بالمساعدة في إعادة البناء. وقد ذكر ربنا يسوع توضيحًا آخر ذلك أنه ليلة القبض عليه قبل الجلجثة قضى وقتًا مع آخرين ثم منفردًا يواجه بعاطفة موته الوشيك (على سبيل المثال لوقا ٢٢)، وبدلاً من إنكار الرعب الذي يتعلق بما ينتظره ـ وذلك من خلال اللجوء إلى أي شيء ينسيه هذا الأمر ـ نراه يدخل في ألم يجل عن الوصف تولَّد عن توقعه أنه سيُحسَب خاطئًا، ومن خلال الألم العظيم الذي شعره تم تقويته ليستمر تمامًا في مشيئة أبيه.

أما بالنسبة لنا نحن فإننا نميل إلى الهروب من المشاعر البغيضة بغض النظر عما إذا كانت بناءةً أو هدامةً، وحين يطفو خطر على سطح وعينا عاطفة مزعجة نبحث عن وسيلة تحول دون أن تشعر بها، ربما يكون ذلك من خلال صلاة سريعة أو ترديد آية مفضلة، وأحيانًا نلجأ إلى تمرين رياضي بدني، أو وجبة لذيذة، أو عرض تليفزيوني، أو أي خاطر ينسينا الأمر (خاصة الخواطر الجنسية التي كثيرًا ما تكون فعّالة).

وهدف جهدنا ليس له أية علاقة بمواصلة اتجاهنا نحو النضج، بل نحاول أن نرتاح عاطفيًا، وحين تنجح جهودنا ونزيل العاطفة من وعينا، فإننا بهذا لا نفقد فقط الربح المحتمل الخاص بفحص الذات، بل ونقوي أيضًا خوفًا يشل حركتنا عن معرفة من نكون حقًا، وعلاوةً على ذلك نحن بهذا نضعف ثقتنا في الله، ونتعود على الإقلال من هذه الثقة. ومعرفة حقيقتنا بوسعها أن تدفعنا بشكل فريد إلى معرفة ضرورة مغفرة الله وعونه، وإنكار حقيقية عواطفنا يسلبنا هذه الفرصة.

ولقد أصبح الإنكار عادة بالنسبة لكثيرين من المسيحيين، والإنكار المزمن ـ كوسيلة للتعامل مع عواطفنا ـ يؤدي بنا إلى تصلُّب وقسوة قد تنخفض لبعض الوقت في شكل استقرار عاطفي. والذين لا ينفعلون بسرعة، والذين يتسمون بهدوء تام، يبدون روحيين للغاية، ولكن الدليل على عدم نضجهم لا يمكن أن يخطئه أحد، وعلى الرغم من ذلك فإن أولئك الذين ينكرون حقيقة ما يشعرون به تراهم في العادة غير قادرين على الدخول أو التأثير بعمق في حياة شخص آخر. وبالنظر إلى أنهم سدّوا تمامًا أجزاءً عميقةً في داخلهم، فإنهم لا يستطيعون أن يتبنوا أو يتعاملوا بشكل سليم مع الأجزاء

العميقة في الآخرين. ولا يجب أن يُقاس النضج الروحي على أساس التوازن العاطفي لأنه طبقًا لهذا المعيار لا يكون بولس ناضجًا لأنه اختبر تقلبات شديدة حقًا، وعلى الرغم من أنه لا يجب السماح إطلاقًا للعواطف أن تسيطر علينا، إلا أنه يجب علينا أن نشعر بها، والنضج يتضمن القدرة على اختبار مشاعرنا، وعندئذ إما أن نتوب عن الاتجاهات الخاطئة التي كشفت عنها مشاعرنا، وإما أن نثق في الله تمامًا من أجل قوته التي تحفظنا أثناء الأوقات الهادئة وكذلك أثناء الأوقات العصيبة.

وبالتشديد على بيان أهمية الدخول إلى مشاعرنا فإنني أريد من وراء ذلك أن أوضح أن الشعور بالعواطف ليس هو الطريق إلى النمو، بل إنه جزء من العملية؛ ذلك أن جوهر النمو يتمثل في التوبة، الإيمان، والطاعة. لقد شعر أخآب بغضبه حين رفض نابوت أن يبيعه كرمه (ملوك الأول ٢١:٤)؛ ولكنه فشل في معرفة أن العاطفة هدامة، وسمح لها أن تقوده إلى إنكار معرفته بأنانيته. وإلى هنا درسنا المبدأ القائل بأن التعامل الفعال مع عواطفنا معناه أنه يتوجب علينا أولاً أن نشعر بها، كما يجب أن يكون من الواضح أيضًا أنه ما إن نسلم بها، إلا وتكون العواطف البناءة سببًا للفرح وتقوية إصرارنا على المواصلة، وأن العواطف الهدامة يجب أن تدعم فحص الذات لكشف الحماقة المستترة وراءها، ويجب أن يتبع ذلك التوبة والطاعة. ولذلك فإنه من السهل ذكر المبدأ الثاني: عليك أن تقيِّم العواطف المعترف بها وتتعامل معها. وثمة سؤال أخير يحتاج إلى إجابة: هل يجب التعبير عن العواطف التي اعترفنا بها وقيّمناها؟ وإذا كان الأمر كذلك كيف يكون ذلك مباشرة؟ أليس من الصواب أن نجمل تعليقاتنا بالنعمة؟ هل يجب على الزوج الغاضب أن ينفجر في زوجته بفيض مما يشعر به بكل قوة؟ أم أنه يتوجب عليه ألاّ يقول شيئًا، أم لعله يقول شيئًا ولكن عليه أن يقوله بلطف؟ والمبدأ فيما أعتقد هو هذا: يجب أن نكون مستعدين وبدون خوف أن نذكر ما نشعر به تمامًا؛ فالأزواج الذين يشاركون غضبهم «بعطف» تراهم في العادة خائفين من قول ما يقصدونه، وتعبيراتهم المعتدلة ليس لها علاقة باهتمامهم الناجم عن محبتهم لزوجاتهم، وهذا في الواقع ليس من العطف في شيء. منهم في كثير من الأحيان مَن يلجأون إلى حماية أنفسهم محاولين بذلك تجنب رد غاضب وعنيف، والتخلي عن حماية الذات كطريق للحياة معناه أننا أحرار في أن نقول ما نشعر به ـ أيًا كان ـ تمامًا كما نشعر به.

والدرجة التي نعبر بها صراحةً عن مشاعرنا يجب أن تخضع ليس للخوف من الانتقام، بل لالتزامنا بمحبة الآخرين، ولكي أكرم الرب باعتباره مصدر الحياة، فهذا يتطلب مني أن أحِد ـ باختياري ـ حريتي في أن أقول ما أشعر به وذلك التزامًا بخير الآخرين. وأعتقد أنه في الكثير من الحالات يشمل تأثير التعبير العاطفي الذي تتحكم فيه المحبة وليس الخوف، يتمثل في مشاركةً واضحةً ومباشرةً وأش بأكثر مما هو مألوف في المجتمع المتأدب. وقول الحق في الحب يتضمن تعبيرًا منا عن عواطفنا أكثر بكثير مما اعتدنا عليه ، غير أنه يتضمن ألا نقول شيئًا من شأنه الإضرار بالغرض الذي يرمي إلى علاقة حسنة ومشجعة. ولعل الكثير مما يقال عنه أنه لطف مسيحي لا يخرج عن أن يكون أدب حماية الذات؛ ذلك أن النزعة الدفاعية وعدم الرغبة في التعامل مع التوتر الفوري في العلاقات، وعدم الاستماع بفكرٍ واعٍ لما يقوله الناس، هي من الدلالات التي يُعتَد بها، والتي تفيد الالتزام بحماية الذات.

هل ينبغي أن نعبر عما نشعر به ؟ المبدأ هو : « لك حرية التعبير عن كل مشاعرك، ولكن لا تعبر إلا ما يكون من شأنه تعزيز امتداد مقاصد الله»؛ وعلى ذلك توجد ثلاثة مبادئ تقدم استراتيجية للتعامل مع العواطف:-

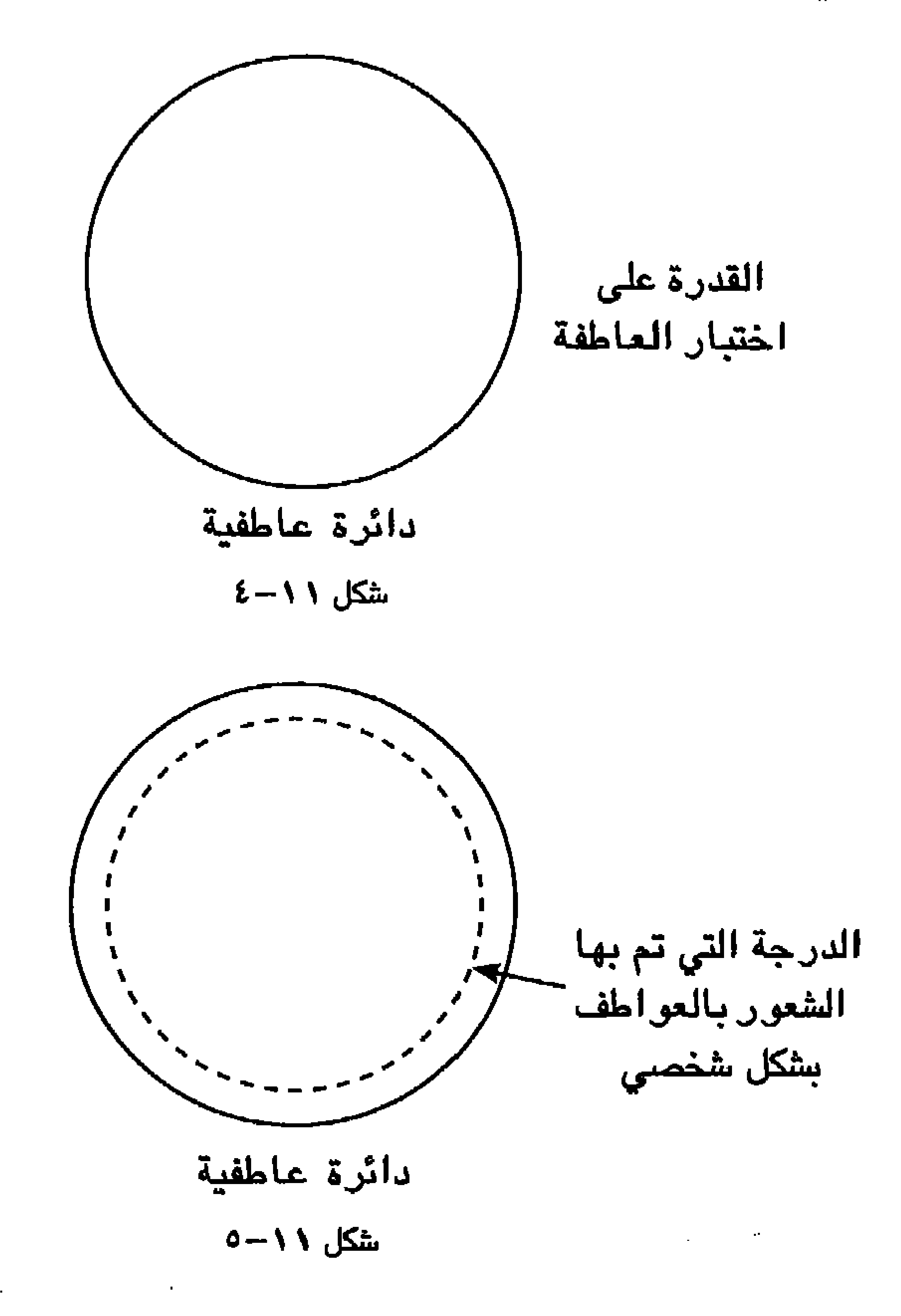
١- عليك أن تختبر عواطفك بالكامل، عليك أن تشعر بها.
٢- استخدم عواطفك، قيم ما تكشف عنه من معتقداتك ومقاصدك.
٣- لك الحرية في التعبير عن كل عاطفة، لكن عليك أن تُحِد من التعبير التزامًا بمقاصد المحبة.

ملخص

لكي نكمل نموذج الدوائر الأربع الخاصة بالشخصية، لندع دائرة تمثل قدرتنا على الإحساس (شكل ١١-٤)، ولنطلق عليها اسم «الدائرة العاطفية».

والدائرة العاطفية الخالية تشير إلى إنكار المشاعر وليس عدم وجودها، وامتلاء الدائرة العاطفية معناه أن الشخص يختبر بوعي أية عاطفة تنجم عن التفاعل بين الأحداث الخارجية والعمليات الداخلية، أما الدائرة الداخلية المتقطعة فتشير إلى الدرجة التي وصل إليها الاعتراف بالعواطف (شكل ١١-٥). والنضج العاطفي لا يتحدد بنوعية العواطف التي تم الشعور بها، بل بالأمانة التي يتوخاها الشخص عند اختباره جميع

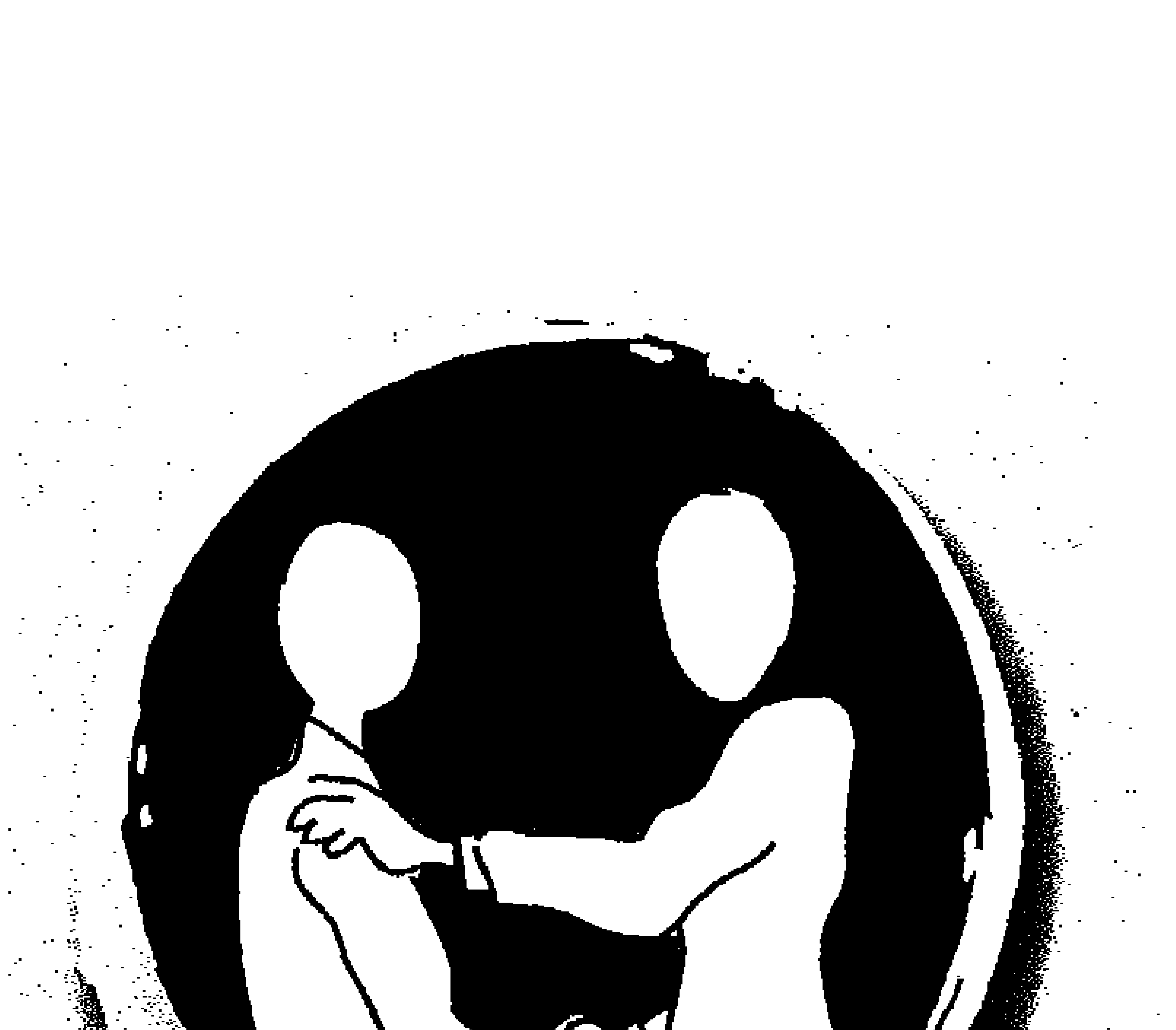
نوعيات العواطف، والشعور بالعواطف لا يزيد الحياة ثراءً فحسب. وأحيانًا يكون ثراءً أليمًا. بل ويبدأ عملية فحص الذات. والعواطف التي نشعر بها تُعد دليلاً مفيدًا لاختبار ما إذا كنا ملتزمين أمام الله على النحو الذي نريده أم لا، والخطايا التي ننتبه إليها من الطريقة التي نتعامل بها مع الحياة يمكن كشفها بتتبع خلفية العواطف الهدّامة.



شكل ١١-٤

شكل ١١-٥

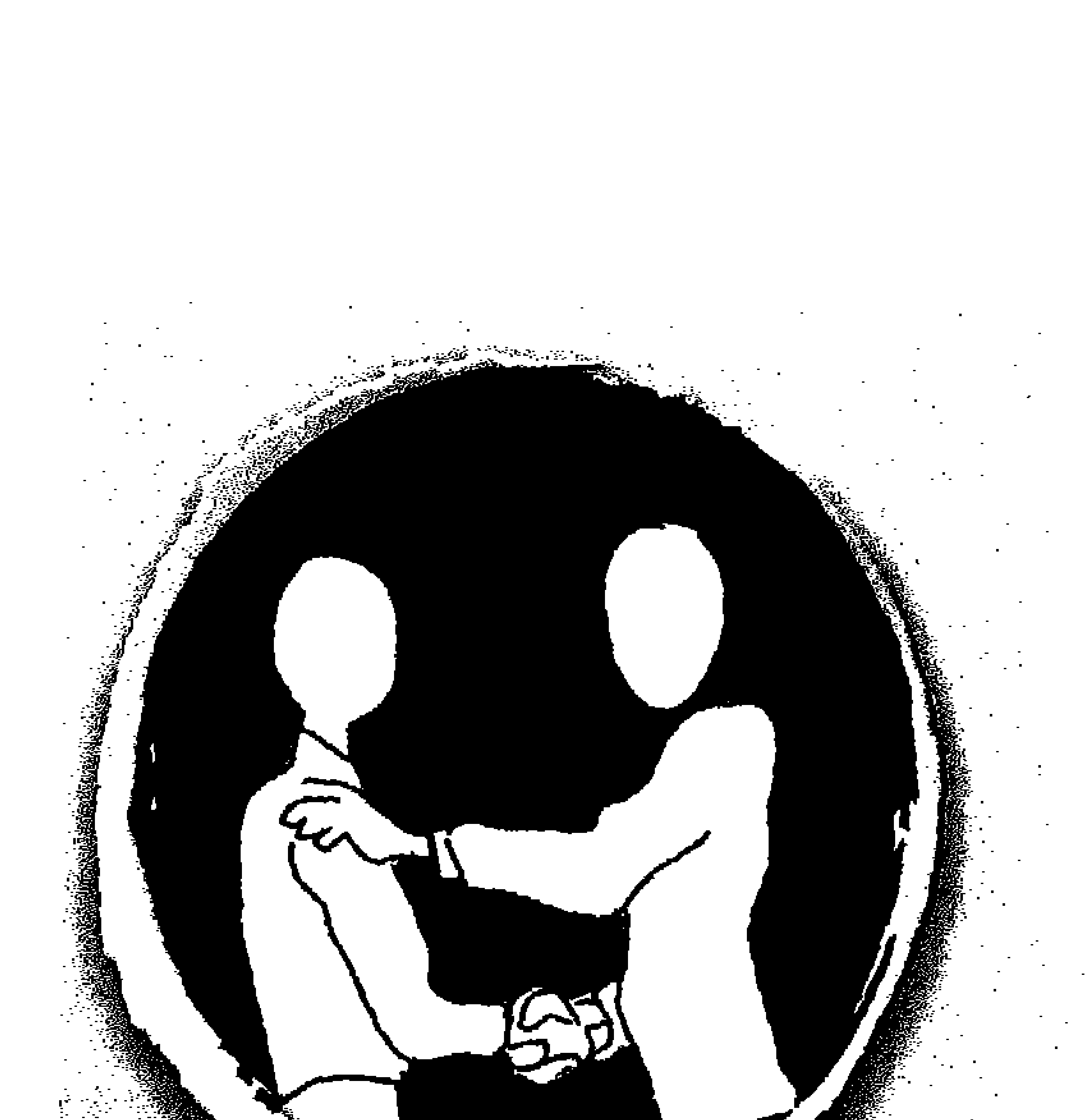
والفشل في التعبير عن العواطف كثيرًا ما ينجم عن التزام بحماية الذات لتجنب الرفض والنقد، و«الرغبة» في التعبير عن كل ما يشعر به المرء تتواجد حين نتوب عن حماية الذات، وعلى الرغم من ذلك فإن ما نقوله والكيفية التي نقوله بها، لا يجب أن يُحدَّد على أساس ما نشعر به، بل بالغرض الذي نرمي إليه وهو أن نعكس محبة الله للآخرين.



الجزء الثالث

النمو نحو النضج

"استعادة الصورة وتصحيح العلاقات"



الفصل الثاني عشر

دليل النضج
"المحبة"



سبق لي أن قلت في جزء من هذا الكتاب: إن الكتاب المقدس يقدم إطارًا كافيًا ويعتد به لفهم الناس، وكل ما رميت إليه هو أن أتجنب الدراسة المتحجرة التي تتعامل مع النص الكتابي كما لو كان مجموعة خشبية من الحقائق التي يجب أن نتعلمها. وإذا كان لنا أن نقدم المشورة في إطار كتابي تُستخدم العلاقة الفعّالة للكتاب المقدس بكل مشاكلنا، في هذه الحالة يجب أن نسمح لحقائق الحياة المحيرة أن تقودنا إلى سلسلة من التفكير والتأمل في إطار حدود تحددها لنا دراستنا للكتاب المقدس.

وقد حاولت في الجزء الثاني أن أصور نموذجًا لفهم الناس ومشاكلهم يستند إلى التعليم الكتابي بأننا نحمل صورة الله وأننا خطاة، وقد انتهيت إلى أن النموذج الكتابي لتفسير السلوك البشري لا يمكن أن تنال منه على الإطلاق المعلومات الخاصة بالسلوك البشري؛ وعلى ذلك يتوجب علينا أن نأتي إلى النموذج بأسئلة أمنية نكون مضطرين إلى طرحها إبان عملنا مع الناس، ويتعين على كل استفسار حقيقي أن يحفز على التفكير الشاق الذي من شأنه أن يوسع ويصقل أو يناقض النموذج، ولكنه يعكس دائمًا التزامًا أساسيًا بسلطان الكتاب المقدس.

وأود في هذا الجزء الأخير أن أستند إلى المفاهيم التي توصلنا إليها حتى الآن لرسم صورة للنضج، وأعتقد أن النضج - إذا حُدِّد على نحو سليم - هو الاتجاه الذي تستهدفه كل مشورة حسنة. إن تخفيف الأعراض، وتصحيح الزيجات، وإعادة توجيه الانحراف الجنسي، كلها موضوعات جديرة بأن نتناولها إذا نجمت عن نمو في التقوى

الشخصية، والتقوى (أو النضج) هي محط الاهتمام الأساسي. ولأنه من الممكن أن تحقق قدرًا كبيرًا مما تبدو أنها أمور صالحة من خلال تقديم المشورة دون التعرض على الإطلاق للسمة الرئيسية للشخص؛ فمن المهم أن تتوفر لك أفكار واضحة عما يعنيه الوصول إلى مرحلة النضج، وبهذا نضمن أن مشورتنا ستعزز، ليس فقط إحساسًا أكبر بالسلامة والانضباط، بل أيضًا تحركًا حثيثًا نحو التقوى.

وهناك صعوبة تواجهنا عند الكتابة في هذا الموضوع لأن هناك مفاهيم كثيرة متباينة عن معنى أن يكون الإنسان ناضجًا، هل الشخص المنظم بدرجة عالية، والذي يتولد عن عاداته المنتظمة نوع من التصلب في أسلوب تعامله مع الأشخاص الآخرين، يعد ناضجًا؟ هل الشخص الذي يفيض محبةً وحنانًا، والذي يؤثر بفاعلية في حياة الآخرين يعد ناضجًا؟ أم أن نضال هذا الشخص نفسه ضد الشهوة يبطل أي ادّعاء بالنضج؟

وكثيرًا ما يعرف النضج على أساس المعرفة والعادات والمهارات، والناس الذين يعرفون الكتاب المقدس ويعملون ما يتوجب عليهم عمله، ويبتعدون عما لا ينبغي أن يعملوه، والذين بمقدورهم الخدمة بفاعلية في الأنشطة المسيحية قد يُنظَر إليهم على أنهم ناضجون، غير أنه يبدو في كثير من الأحيان أن الذين تبدو عليهم سمات النضج لا يجذبوننا إلى الرب؛ قد تتأثر ويثيرنا التحدي ونُحفز، ولكننا لا ننجذب، والأشخاص الناضجون حقًا تراهم يغرون الآخرين، أنهم يغروننا على أن نتبع إلهًا هم يعرفونه أفضل ما نعرفه نحن.

والنضج لا يتعلق بالكمال بقدر ما يتعلق بالنمو في معرفة العيوب، وهي معرفة تعمق تقديرنا للصليب، وتدفعنا نحو الاتكال على المسيح بالنسبة لأي شيء صالح ينجم عن حياتنا، والأشخاص الناضجون يحاربون ضد خطاياهم، وفي غالبية الأحيان يكون ذلك من خلال معركة خاصة مكثفة تحارب ضد البقع التي لا يراها إلاّ أولئك الذين تكون معاييرهم عالية بشكل مفرط، والذين يكون إدراكهم للخداع الذاتي حادًا بشكل مزعج. وفي خضم هذه الحرب المستعرة يجدون راحة في حقيقة النعمة المتزايدة والمحبة الكاملة، والناضجون تراهم مرتاحين داخليًا (أو على الأقل يتمتعون بهدوء) ولكنهم لا يرضون إطلاقًا عن أنفسهم.

اسأل شخصًا ناضجًا متى آخر مرة ارتكبْتَ فيها خطية؟ سوف يبتسم ابتسامة شخصٍ منكسر، ولكنها في الوقت ذاته ابتسامة شخصٍ متعافٍ. وبعض الخطايا المعينة والمعروفة والتي اعتادت أن تكون أحد طرفي المعركة، لا نراها كذلك في أيامنا هذه، ولكن الفحص الناضج يدرك استمرارية حالة الخطية كحقيقة تفسر كل ما يعمله، وبرغم ذلك فإن الاهتمام بالخطية المستترة لم يَعُد يشغل بال أحد، والناس الناضجون يعرفون أن التركيز غير السليم على الذات يغذي الادّعاء المتغطرس بالكفاية الذاتية - والتي هي أصل خطيتنا - في الوقت الذي كان يجب فيه إماتة الأنانية بالتوبة والاتجاه إلى الله.

ولكن ليس من بين هذه ما يحدد النضج تمامًا؛ فهي تتحدث عن النضج لكنها تفشل في تحديد جوهره، ولعله لا يمكن اختزاله إلى تعريف بسيط، مثل الجوهرة الرائعة التي لا يمكن التقليل من قيمتها بحجة أنه ليس لها سوى وجه متلألئ واحد، غير أنه يتوجب علينا بذل قصارى جهدنا لنصل إلى معنى النضج، وإذا فشلنا في تعريفه على نحو سليم، فإن ميلنا الطبيعي إلى اختزال الأشياء إلى الحد الذي نستطيع السيطرة عليها، سيعود بنا ثانيةً إلى تعريف خارجي ملموس، ويعود تعريف النضج عندئذ إلى التمكن من قدرٍ كبيرٍ من المعرفة ومجموعةٍ مقبولةٍ من السلوكيات والكفاءة في الأنشطة المطلوبة. وإني أعتقد أن هدوءًا معينا يتولد عن ثقة حميمة في الله تطرد الاستغراق في الذات، التفاهة، القلق، الامتعاض والميل إلى التباعد، وتملأ الإنسان الباطن بدلاً منها بقوة الهدف ذي القيمة وفرح العلاقة المشبعة، ونوعية الهدوء الذي أتصوره (سلام يفوق العقل) لا يمكن ببساطة أن يتعايش - وعلى الأقل ليس لفترة طويلة - مع الهموم التي تسلب من الناس من فرحة معرفة الله.

والحياة هي معرفة الله، والناس الذين يعرفون الله من الأتقياء، والنضج هو جوهر الموضوع، ويتوجب على المشيرين أن يولوا اهتمامًا بالغًا (من جهودهم التي ترمي إلى الخلاص من الكآبة وتسوية العلاقات المعقدة، وتعزيز التمتع المشروع بالحياة) ألاّ يتهاونوا إطلاقًا أو يهملوا النمو في التقوى، ومهمة تقديم المشورة تماثل مهمة الكنسية من ناحية تعزيز النضج. حين يأخذ العمل الرئيسي للمسيحية صورة محادثة بين شخص وآخر عن المسائل الشخصية نحن نسمي هذا «تقديم المشورة»، وحين يتخلص أحد

الشخصين المشتركين في الحوار من نماذجه الخاصة بحماية الذات ـ بشكل يكفي لأن يتحرك ببصيرة نيرة وحكمة ومحبة تجاه حياة الآخر بقصد تعزيز النضج ـ بوسعنا أن نطلق على هذا «المشورة الجيدة».

ما هو النضج إذن؟ كثيرًا ما يتكلم الكتاب المقدس عن ثمر ينبت من حقيقتنا الداخلية، وعند مناقشة النضج أريد أن أفكر أولاً في ثمر النضج (الدليل المرئي اللازم)، وبعدئذ ـ في الفصل التالي ـ نتأمل الحقيقة الداخلية التي تجعله ممكنًا.

دليل النضج

يتضح النضج أوضح ما يكون في الكيفية التي تكون عليها العلاقة بين الناس بعضهم بعضًا؛ فعادات دراسة الكتاب المقدس، الأنشطة الكنسية، تكرار الشهادة، النظام في أسلوب الحياة، والوقت الذي يُقضى في الصلاة، والاستعداد للتضحية، والراحة الشخصية ونماذج الإنفاق، كل من هذه الأمور له أهميته، غير أنها جميعًا تظهر كبيّنة دون أن يشكل النضج أساسًا لها.

وكما أن جوهر معنى الحياة كإنسان لا يمكن أن يُعرَف بمعزل عن التفاعل مع شخص آخر، هكذا أيضًا جوهر النضج يكون مرئيًا بصفة أساسية في نماذج علاقاتنا، والله ـ الذي هو كائن علاقاتي في داخل ذاته ـ خلق عالمًا تتناغم الكائنات المنفصلة فيه مع بعضها البعض، وأوضح دليل على أن الناس يعيشون كما يريد الله هو أننا نتواصل بطرق تعزز التناغم بيننا وبين الآخرين الذين يتواصلون بطريقة مماثلة. وثمة نموذج ناضج للتواصل يتضمن أية أعمال تمثل ترك حماية الذات؛ فالشخص العدواني حمايةً لذاته يصبح أكثر لطفًا فيما ينضج، في حين أن الشخص الكريم نبعًا من حماية الذات سوف يتأصل ويتأكد أكثر.

كانت هناك امرأة تتلقى المديح طوال سنوات لروحها الحلوة، وقد ألزمت نفسها ـ في حدود معينة غير ظاهرة ـ بتجنب النقد والرفض، وكانت زميلاتها من أعضاء الكنيسة يعتبرنها صديقة ودودة مضحية، يجدنها دائمًا عند الحاجة، غير أنه بالنظر إلى أن هدفها الأساسي من الخدمة كان حماية الذات فإن أعمال محبتها الظاهرة كانت تخفي غضبًا شديدًا موجهًا ضد صديقاتها اللواتي ـ بحسب فكرها ـ بوسعهن تدميرها إذا توقفت عن

مساعدتهن. وتخليها عن نموذج حماية الذات معناه أن تقول «لا» في أحيان كثيرة، وكانت التوبة تتطلب منها الاعتراف بأن الحياة لا تكمن في دفء الاستحسان المكتسب، وأن تتخلى عن تلك النماذج السلوكية التي صممتها لتامين حياتها، وقد أغضبت ثمار توبتها أعضاء اللجنة الذين كانوا في الماضي يعتمدون على تعاونها، وقد علق أحدهم على ذلك بقوله: «لقد أصبحت كسولة وعنيدة». وعلى الرغم من أن خطر التحول من نموذج التعاون الدفاعي إلى نموذج مساوٍ وهو تأكيد الذات الدفاعي كان خطرًا حقيقيًا فإن التوبة عن نماذج حماية الذات قد خلقت احتمالية محبة أغنى، والآن أصبحت لها حرية أن تقول «نعم»، لأنها أصبحت تهتم بخير الآخرين بأكثر من اهتمامها بصالحها الشخصي، وأصبح بمقدورها أن تقول «لا» حين تشير أولوياتها أمام الله، أن العمل المطلوب منها يأتي في المرتبة الثانية بعد التزاماتها نحو الله، وأصبحت تتمتع بحرية أكثر في محبتها لله وللآخرين.

وخلاصة القول أن الدليل الملموس على النضج هو المحبة، وكلما زاد تأملي في المحبة التي تحدّث عنها الرسول بولس في (كورنثوس الأولى ١٣)، زاد اقتناعي بأن قليلين هم الذين يحبون، والناس الذين يحبون - بحسب تصوري - ليسوا دائما هم الذين يظهرون بأنهم أكثر الناس محبة للآخرين، وليس من الصعب العثور على أناس لطفاء؛ فالكنائس، حفلات الجيران، والنوداي الاجتماعية عامرة بأشخاص ودودين، والناس اللطفاء الذين لا يجعلونك إطلاقًا موضع تعليقاهم الساخرة معروفون لنا؛ فالناس الصالحون والأشخاص المسئولون والناس الطبيعيون وأولئك الذين يتمتعون بالأخلاق الفاضلة وكذلك الذين يتسمون بالكرم، كل هذه النماذج موجودة بالفعل وبأعداد معقولة ضمن النوعية الأخرى، غير أن الناس المحبّين لغيرهم قليلون.

والمحبة لا يمكن أن تُقاس بالنشاط الذي فوق سطح الماء؛ فالتحيات، الابتسامات الحارة والملاحظات الودية لا يمكن أن تكون دلالات على الحب، والكثير من مظاهر الود في المجتمع المسيحي تمثل الفن الذي أُتقِنَ جيدًا والخاص بالابتعاد - بكياسة - بعضنا عن بعض من أجل الراحة الشخصية. والمحبة معناها أن نتعامل مع شخص آخر بدون حماية الذات، وأن نقدم الآخرين على أنفسنا، وربنا الذي دائمًا مثلنا الأعلى، وكما نقرأ في (فيلبي ٢ :٧) «أخلى نفسه آخذًا صورة عبد...»، ليختبر الموت من أجلنا.

والانخراط مع شخص آخر من أجل الخدمة أمر يتضمن مخاطرةً، لأن هذا يتطلب أن نشغل أنفسنا بمصلحة آخرين بدلاً من مصلحتنا، هذه كلمات يسهل قولها، لكن الخدمة التي تعرض مقدمها للأذى، والتي تقدم لأناس لا يمكن الوثوق في أنهم سيقدرونها تُعد أمرًا يبعث على الخوف، وعندما يكون رد فعلهم الإهمال أو الرفض هنا يصل الألم إلى درجة لا تُحتَمَل، واستمرار الخدمة في ظل هذا الوضع هو القياس الأمثل للمحبة؛ فقد مات الرب يسوع من أجل أصدقاء رفضوه ومن أجل جنود ضربوه!

والتخلي عن حماية الذات، تعني الرجوع عن الفكرة المتغطرسة التي تقول إن الحياة في قبضتنا. وقد هددت إحدى المستشيرات بالطلاق بغية الضغط على زوجها لكي يزيد اهتمامه بها، وبكل هدوء رد قائلاً: «إن الخضوع لضغطها لن يحل المشكلة»، وكل منهما كان يسعى ليجد حياته ويحفظها؛ هي بأن جعلت هدفها الحصول على اهتمامه بها، وهو بإثبات حريته كذكر، وكلاهما كان يعيش على فرضية أن الحياة الشخصية في متناول قدرته يستطيع ربحها والمحافظة عليها.

وقد التزمت طبيعة الإنسان الساقطة بتقليل المزيد من الأذى لنفوسنا الضعيفة، وذلك بتجنب كل ما من شأنه أن يسبب الألم، وبعمل كل ما يجلب راحة المتعة العاجلة.

وكل منا كان ضحية الآخرين، والحياة في عالم ساقط معناها أن تعيش كشخص لحقه الضرر، والالتزام بتجنب المزيد من الأذى هو الذي يعترض جهودنا لأن نحب، والحب بالنسبة لمعظمنا ليس هو الاتجاه الأساسي بل حماية الذات غير أنه في محاولتنا أن نجد حياتنا من خلال استخدام أساليب الدهاء في حياتنا للمحافظة على سلامتنا فإننا بذلك نفقد القدرة على الدخول في علاقات من شأنها أن تحقق لنا فرح الحياة العميق بحسب ما قُصِد لنا أن نحياها. والقول الذي ردده ربنا يسوع أكثر من أي قول آخر هو دعوته الناس إلى أن يضيعوا حياتهم ليجدوها، وعلى الرغم من ذلك ترانا نعمل بحماقة من أجل إنقاذ حياتنا وبذلك فإننا نفسدها.

والزوجة التي كانت تتعرض للسخرية في طفولتها لأفكارها التي تتسم بالجهل، لن تشارك بآرائها حين يطلب زوجها منها ذلك، على الرغم من أنه يطلب آراءها بإخلاص كما أنه يحترمها، لماذا؟ هل بسبب ذكرياتها التي لم تُشفَ منها من احتقار والدها لها وسخريته منها؟ أم أن ذلك مرده بالأحرى أنها تعتبر حياتها ذاتها معرضة للخطر إذا

أخفق زوجها بأن يكون مراعيًا تمامًا لشعورها؟ وصمتها لم يكن خضوعًا بل كان حمايةً للذات، ولكن المحبة تتطلب أن تتحدث عن أفكارها.

وثمة امرأة أخرى، كانت خلفيتها تتطلب منها أن تتكلم لكي تحظى بالاهتمام الذي كانت تتوق إليه، كانت تقدم رأيها لزوجها بسهولة، ومع أن مشاركتها بآرائها كانت تمثل الجهد الذي تبذله لتحافظ على استجابة زوجها لاحتياجاتها، إلاّ أن الحب قد يصر على أن تمسك عن الكلام لدى شعورها بأن زوجها يلمس تهديدًا من كلامها.

والناس الناضجون ملتزمون بالتخلي عن حماية الذات، وأن يشاركوا ـ بأية طريقة ـ لتشجيع الآخرين على التوجه نحو الله، والناس الناضجون يدركون أن حماية الذات قد تكون أمرًا ماكرًا للغاية، وهم لم يتعاملوا مع الموضوع ببساطة على الإطلاق (على سبيل المثال) بالنظر إلى ـ في واقع الأمر ـ لا أبالي بما يقوله الناس عني، فمن ثم حماية الذات ليست مشكلة بالنسبة لي.

والزوجات الناضجات يستجبن للأذى الناجم عن سوء طبع أزواجهن بأكثر من استجابتهن للشعور بالرفض، والأزواج الناضجون يدركون معركتهم مع عدم الكفاية، ولكنهم لا يريدون من زوجاتهم أن يكون لهن ما ترغبن فيه، والآباء الناضجون يشعرون بالأفراح والأتراح الناجمة عن نجاحات أولادهم وإخفاقاتهم، ولكنهم يمنحونهم الانفصالية التي تحررهم من مسئولية إطلاع والديهم على بواطن الأمور، والناس الناضجون يدخلون في علاقة مع الآخرين دون أن تكون حماية الذات هي الهدف المسيطر عليهم، إنهم يحبون الآخرين وقد تكون أعمالهم لطيفة أو فظة، غبية أو جادة، تقليدية أو تقدمية، هادئة أو صاخبة، كريمة أو قاسية، متسامحة أو تدعو إلى المواجهة، لكنهم يتذرعون بالصبر ويتسمون بالعطف، لا يحسدون، متواضعون، مراعون لمشاعر الآخرين ويهتمون بهم، قليلي الغضب، يسرعون إلى التسامح، يكرهون الخطأ، يحبون الحق، يحمون، يثقون، ويرجون ويثابرون وهم يشاركون الآخرين على أساس الثقة في الله بأنه يهتم بأعمق احتياجاتهم وراحتهم، حتى يتفرغوا لتوجيه طاقاتهم نحو مساعدة الآخرين.

وهناك شيء مختلف بالنسبة للناس الذين يحبون، ذلك أن لهم حضورًا يتجاوز الكلام الذي يقولونه، والأشياء التي يفعلونها. ونحن نعرف أنهم متواجدون لنا، وفي

حضورهم يروق لنا نمونا أكثر من كونه مطلوب منا، ولأن العلاقة لا تتعرض إطلاقًا للخطر، لذلك نشعر بحرية التمتع تمامًا بالعلاقة بدلاً من المحافظة على هذه العلاقة، والدليل المرئي للنضج هو التواصل في محبة، وفيما يتعلم الناس أن يحبوا فإن الهياكل الداخلية التي تدعم أسقامهم العاطفية والنفسية تتهاوى، والحب حقًا هو الحل وهو العلامة المميزة للمسيحي والقياس المرئي للنضج.

وتمشيًا مع النموذج الذي تحدثنا عنه في الجزء الثاني تجدني أعرِّف النضج أحيانًا بأن تكون دوائرنا الأربع ممتلئة، وفيما يلي أذكر بإيجاز ما أقصده من هذا القول.

امتلاء الدائرة الشخصية:

اعتقاد عن خبرة عميقة بأن جوهر تطلعات قلوبنا يتحقق بالكامل يومًا ما بحضور الله، وإذ ترسخت سلامتنا الشخصية بهذا نكون أحرارًا في أن نعيش دون خوف.

امتلاء الدائرة العقلانية:

نعتبر أنفسنا غير جديرين إطلاقًا بأن يحبنا الله أو يستخدمنا، ولكننا إذ ندرك كرامتنا كحملة صورة الله فإننا نقبل محبته والتعاون مع مقاصده (ر– ٢).

ونؤمن أن الحياة هي في المسيح، ولا يمكن بأي حال أن نحصل عليها بجهودنا أو بإمكانيات الآخرين (ر– ١).

امتلاء الدائرة الاختيارية:-

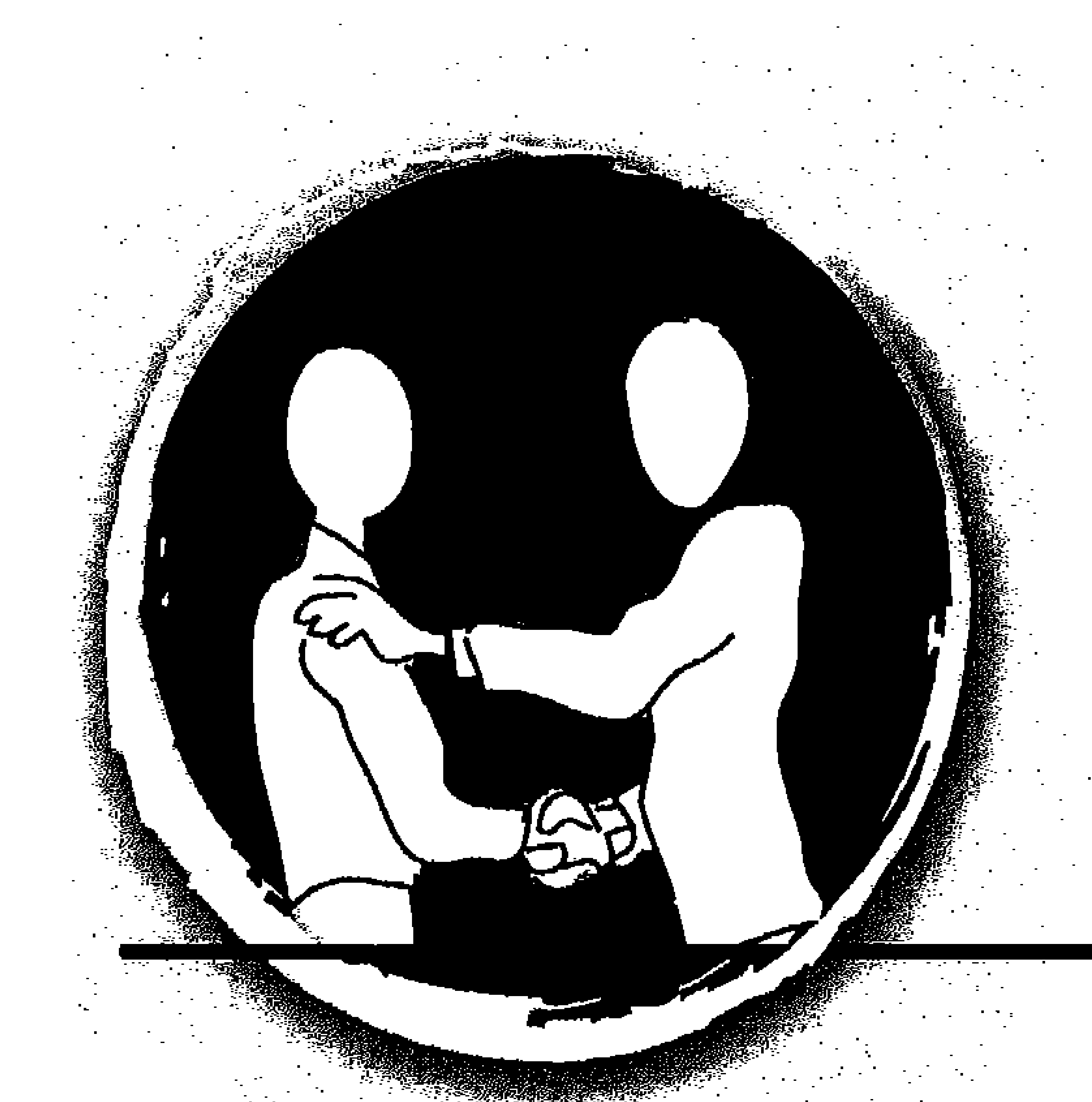
مع اعتقادنا أن الحياة في المسيح، لذلك لا نطلب شيئًا من الحياة سوى أن نستغل بشكر الفرصة التي أتاحها لنا الله في أن نحبه ونحب الآخرين (ق –٢).

نسلك بطريقة تتناغم مع هدف المحبة (ق– ١).

امتلاء الدائرة العاطفية:

نعترف بشجاعة بكل ما نشعر به مع التزامنا بأن نكون شاكرين من أجل العواطف البنَّاءة، وأن نستخدم العواطف الهدَّامة كمرشد لفحص الذات، ويظل السؤال: «كيف نعمل من أجل امتلاء دوائرنا الأربع؟»، أو كإعادة صياغة للسؤال: «ما المقصود بأن ننمي في أنفسنا شخصية من النوعية التي تمكننا من أن نحب؟ الفصل الأخير يتناول الإجابة عن هذا السؤال.





الفصل الثالث عشر

جوهر النضج

"اتكال فعلي"



إذا كانت المحبة دليل النضج، فما هو جوهره؟ ما الذي يحدد سمة المسيحي الناضج؟ والناس ليسوا مجرد آلات يمكن برمجتها لكي تحب، وهم ليسوا مفاعلات يمكن بالضغط المناسب أن يُجبَروا على أن يسلكوا كما يجب، وليس بكاف القول بأن المحبة تتكون من نوعيات معينة من الأنشطة وبعدئذ ننصح الناس أن يحبوا بالاختيار.

ومن المؤكد أن المحبة تتضمن شيئًا من هذا القبيل؛ فالناس المحبون يتوجب عليهم استدعاء قواهم الاختيارية للعمل ضد مشاعرهم نيابةً عن الآخرين، غير أنه إذا كان هذا كل ما يعملونه - وما لم يحدث تغيير أكثر عمقًا - فإن حبهم سيفتقر إلى الحضور، ذلك أن الذين يحبونهم يشعرون أنهم موضع الاهتمام والرعاية، بل إنهم قد يشعرون بدفء مشجع ينمو داخلهم، ولكنهم لن ينجذبوا إلى انخراط شخصي أعمق مع الرب. والناس الذين لهم علاقة مع الله بالفعل يحركون الآخرين بحضورهم، غير أنه لن يكون هناك حضور دون تغيير عميق في الشخصية، وكما أن طالبي المشورة يتصارعون مع فقدان الشهية للطعام، الاكتئاب، وإحباطات الوالدين، فيتوجب علينا نحن كمشيرين أن نتعامل معهم بطريقة تخلق فيهم إمكانية كبيرة للمحبة، ويجب أن نهتم ليس بالمشاكل التي يتحدثون عنها فقط، بل بشخصيتهم الأساسية، كيف نفعل هذا؟ وما هي الشخصية بالضبط؟

كل مسيحي يوافق على أن طاعة كلمة الله أمر أساسي لتطوير الشخصية، وعلى الرغم من أننا أحيانًا نختلف حول ما هو الذي يطلبه الله منا، إلاّ أنه توجد موافقة واضحة من ناحية أنه ينبغي على المسيحيين أن يتعلموا أن يعيشوا حياتهم بحسب مشيئة الله، لكن الشخصانية تتضمن أكثر من مجرد الطاعة.

أما وأن تعلن من على المنبر أنه يجب علينا «ألاّ نهتم بشيء» فهذا موضوع، ولكنه أمر مختلف تمامًا أن تعرف ما معنى أن تتغيب ابنتك المراهقة في عطلة نهاية الأسبوع؛ حيث تقضيها مع إحدى صديقاتها، علمًا بأن سمعة صديقتها هذه موضع شك؟ وما الذي تفعلانه؟ هل كان ينبغي علينا السماح لها بالذهاب؟ لعلنا تساهلنا معها أكثر من اللازم؟ لكن أصدقاءنا يتسمون بالحزم، وها هي ابنتهما حامل! هل يجب علينا أن نوبخها لدى عودتها، أم نلوذ بالصمت؟

كيف يساعد المشير هذين الأبوين؟ والواقع أنه لا توجد طريقة تعرفنا على وجه اليقين ما إذا كان قرار السماح لها بالذهاب كان صوابًا أم خطأً (ما لم تكن الفتاتان قد تعرضتا معًا للمتاعب قبل ذلك... وكان الوالدان ببساطة ضعيفين إلى درجة أنهما لم يستطيعا أن يقولا لابنتهما «لا») والقرار الخاص بما إذا كان يحققان معها أم لا عقب عودتها إلى البيت، لم يكن بالأمر السهل. وحين لا يقدم الكتاب المقدس تعليمات واضحة تحكم هذه القرارات، فالمبدأ الذي يُتَّبع دائمًا هو أن تعمل ما ينم عن المحبة.

ولكن ما معنى هذا؟ لا توجد صيغة لإخبار الوالدين ماذا يفعلان، واستعدادهما للطاعة ليس هو المشكلة، عليهما أن يقررا ماذا يعني لهما حبهما لابنتهما، ولكي يعملا هذا عليهما أن ينقبا في الموضوعات الأعمق داخل شخصيتهما.

وعمل المحبة ما هو إلاّ سلوك حفزته رغبة في تعزيز التقوى في شخص آخر، وليس دافعه حماية الذات، وأن نعرف ماذا يعني هذا بالنسبة لهذين الزوجين بالذات، يتطلب فهمًا لنماذجهما الخاصة بحماية الذات، ومستوى نضج ابنتهما، والحكمة في التعامل مع ابنتهما ومحبتهما لها يجب أن تكون نبراسًا لما يعملانه معها.

ولكن كيف يتم ذلك؟ عند محاولة الإجابة على هذا السؤال يبرز الخلاف؛ فمن الضروري تحليل وفحص الأفكار، المشاعر والدوافع بالنسبة للحقائق الداخلية، مثل التطلعات العميقة، الصور الدفاعية، المعتقدات السخيفة، الأهداف غير القويمة والعواطف الهدّامة، لكي نعرف ما هو المحب والسليم؟ وهل تطور شخصية المرء يتطلب تحليلاً شخصيًا؟ وهل من المفيد فحص الشخصية بدقة، وأن نبحث تحت خط الماء، وأن ندخل عالمًا يبدو أنه عامر بالتعقيدات والفوضى التي لا حد لها؟ وحين نشجع على هذه النوعية من الفحص الشخصي، ألسنا بهذا ندخل علم النفس في جهود المساعدة التي نقدمها

ونهون من شأن الأمور الروحية؟ لماذا لا نكتفي بالصلاة، ونعمل كل ما هو واضح في الكتاب المقدس، ونترك الباقي بين يدي الله؟

ولعل أكثر الآراء رواجًا في الأوساط المحافظة عن كيفية نمو الشخصية هو الرأي القائل إن المتاعب التي في داخلنا سوف تهدأ وتستقيم إذا ما ملأنا عقولنا بما يكفي من التعاليم الصالحة، ودربنا أنفسنا على أن نعيش باستقامة، ومن وجهة نظر أصحاب هذا الرأي أن سؤال الشخص الذي يعاني من الاكتئاب، أين شعر بخيبة الأمل أثناء طفولته، فهذا يُعد تنازلاً وتسليمًا للحكمة السيكولوچية، وتهاونًا في الحق الكتابي؛ فسؤال أين شعر بخيبة الأمل سؤال خارج عن الموضوع.

أما المهم فهو ما الذي يفعله بحياته أمام الله، والسلوك في طاعة هو الأساس الذي تقوم عليه الشخصية التي تتسم بالتقوى؛ وعلى ذلك يجب على الإنسان أن يرتب حياته بحيث تتناغم مع المعايير الكتابية، يجب أن يكون شخصًا محبًا، غير أنه يجب أن يُنصَح بشدة أن يقضي مزيدًا من الوقت مع الكتاب المقدس، وأن يعترف بأية خطية يعرف أنه ارتكبها ويقلع عنها، وأن ينخرط في الخدمة المسيحية، وأن يتحمل مسئولية بالنسبة لمتطلبات الحياة اليومية؛ وعلى ذلك لا تصبح المشورة أكثر من محاولة لتطبيق هذه المبادئ في حياته وتشجيعه على تحمل المسئولية، وهذا أحد الآراء.

إذن قد يُحدث هذا النهج تغييرًا، ولكن هل ستطور هذه النوعية من الطابع الذي يحرر الإنسان لكي يحب ويشعر الناس بمحبته، وأن يكون ذلك دون حماية الذات؟ أم ستنتج تكيُّفًا بدون عاطفة؟، وأسلوب حياة يشبع مجتمع كنيسته، ولكنه يترك الإنسان أقل حياةً وأقل آدميةً؟

وحين تنشأ التوترات بين القائمين على أمر الكنيسة، فإن المتوقع من القيادة هو أن تعمل ما يبدو أنه الأفضل دون فحص دقيق للذات؛ بحثًا عن دفاعات حمائية، بدلاً من أن يجعلوا من هذا الفحص «أولوية»، وعملية فحص الداخل ليست بالعملية الدقيقة، كما أنها مهدرة للوقت، ويبدو أنها تبعد التركيز عن التعامل مع المشكلة، ومواصلة الخدمة. وما من شيء يتطلب المزيد من إنكار الذات أكثر من فحص المرء لأغراضه في سياق علاقات هشة، ولا شيء ضروري أكثر من هذا لاتخاذ قرار نافع لمواجهة التوترات السابق الإشارة إليها، ونوعية الشخصية التي تجعل من المحبة واقعًا حقيقيًا لن توجد دون كشف نماذج حماية الذات والتوبة عنها.

وفيما نحاول تحديد نوعية السمة التي تمكّن من الحب، أود أن أفحص عن كثب مفهوم ثقافتنا المسيحية عن الكيفية التي يمكن أن تطور بها الشخصية.

نموذجان لتطوير الشخصية

ما من أحد يختلف حول أهمية تطوير الشخصية؛ فالآباء يريدون من أبنائهم أن يطوروا شخصياتهم، والرعاة يريدون من شعب كنائسهم أن ينموا في الشخصية، كذلك الأساتذة والمدرسون يأملون لا أن يتعلم تلاميذهم محتوى المنهج الدراسي فحسب، بل ويكتسبون أيضًا شخصيةً قويةً، وعلى الرغم من أننا لسنا واثقين ما هي الشخصية إلا إننا نعرف أنها مهمة، ولكن حين تكون الأمور غامضةً بالنسبة لنا فيما يتعلق بالطبيعة الأساسية للشخصية، فإننا نعمل على أن نجعل الناس مطابقين لتوقعاتنا، وعندما يتحقق ذلك نرجع هذا إلى «سماتهم الحسنة».

وحين تُقاس الشخصية بالمعايير المحلية، فإن نموذج تطور الشخصية - والواقع أنه نموذج للتقديس - والذي نتبعه ضمنًا لا يتعامل إلا مع الحقائق التي فوق خط الماء، وهذا النموذج يمكن تسميته بنموذج الاكتساب/ الأداء. وعلينا التأكد من أن أطفالنا، واجتماعاتنا، وتلاميذنا قد حصلوا على قدر معين من المعرفة، وأن يسلكوا بطرق مقبولة. وحين يعرف الناس الحق الكتابي حتى مستوى معين، ويمارسون أسلوب حياة يعكس بوضوح تطبيق هذا الحق على حياتهم، عندئذ يكون بوسعنا القول إن النضج يحدث بطريقة ما، وإن الشخصية تتطور.

والدراسات اللاهوتية بوجه عام تعكس هذا النموذج، وذلك باستخدام مناهجهم لتوصيل كمية من المعرفة، وتدريس مجموعة من المهارات اللازمة للخدمة ومتطلبات التعاون، إلى جانب مجموعة المبادئ السلوكية التي أوصى بتدريسها. وتقوم الكنائس بنفس العمل حين يصبح المنبر عاملاً أساسيًا في مجتمع من الناس يجتمعون ويخدمون ويصلون معًا، لكنهم يفشلون في إقامة علاقات صريحة وعميقة فيما يختص بحياتهم، والعائلات التي تقيس مدى فاعليتها بشكل أساسي على ضوء عدم وجود تمرد ظاهر، وما يبدو من صداقة بين بعضهم البعض، تكون قد اشترت نموذج الاكتساب/ الأداء بثمن غال.

والافتراض الرئيسي هو أن الشخصية تتطور دون التعامل مباشرةً مع الموضوعات المخفية تحت خط الماء، وإذا كان هذا الافتراض صحيحًا يكون هذا النموذج جيدًا، وإذا لم يكن كذلك فإن الناس الذين دُرِّبوا على أساس هذا النموذج سيميلون إلى أن يصبحوا منتفخين، قادرين على التوافق، ينتجون نسخًا طبق الأصل منهم في عائلاتهم وكنائسهم ومدارسهم، وبهذا يضعفون شعب الله.

ومن جهة الأمور الشريرة النابعة من القلب المخادع فلا يتم أبدًا مواجهتها بمنهاج يشدد على الاكتساب والأداء، ونتيجةً لذلك لا ينتبه أحد لمساوئ استراتيجيات التواصل القائمة على حماية الذات، وتصبح التوبة العميقة أقل احتمالاً لأن الميل إلى الإنكار يقوي الالتزام الخفي بالكفاية الذاتية.

وهكذا أيضًا لأن التطلعات العميقة للنفوس العطشانة لا تميل إلى الظهور على السطح عند اتباع هذا النموذج، وتظل الناحية الشخصية لعلاقتنا مع الرب غير محسوسة إلى حدٍّ كبير، فلا يحدث أي نمو للجانب العاطفي. أما نوعية الانكسار الذي يؤدي إلى لقاء عميق مع المسيح، تحل بدلاً منه جهود للتقوى في ممارسة السلوك المسيحي، والنتيجة هي مسيحية أكاديمية تترك الناس في وحدة عميقة؛ فتنتفي معرفة الله، ولا يعرف الناس إلاّ القليل جدًا عنه.

وهناك نموذج ثان تنبر على فكرتين:-

١- شخصية تُمكِّن المحبة من النمو على أفضل وجه، حين يتم التعامل مباشرةً مع أمور القلب المخفية (بصفة أساسية الأشواق العميقة واستراتيجيات العلاقات التي تقوم على أساس حماية الذات).

٢- التربة النموذجية لنمو الشخصية هي المجتمع القوي، ومن خلال التفاعل الشخصي فقط يمكن لخفايا القلب أن تظهر بشكل جوهري على السطح ويتم حلها، ولنطلق على هذا النموذج اسم «الشخصية من خلال المجتمع».

وهذا النموذج الثاني يتضمن كافة العناصر التي تم التأكيد عليها في النموذج الأول، ولكنه يضعها في سياق مختلف، وتَعَلُّم قدر كاف من المعرفة الكتابية اللاهوتية، يُعتبر من الأمور المهمة جدًا (سواء في البيت أو الكنسية أو كلية اللاهوت) وكذلك الحال بالنسبة لتنمية مهارات الخدمة والسلوك بنقاء ظاهر.

غير أنه ليس من بين هذه النواحي ما يصبح الجزء الجوهري، وأصبحت دراسة النماذج العلاقاتية للناس - من واقع الممارسة - موضع التركيز سعيًا نحو تعريف وتعزيز التوبة عن نماذج حماية الذات، ولدفعنا إلى الاتّكال على الله، حيث تتذوق صلاحه في عمق أعماقنا، ولا يمكن التشجيع على التوبة أو تذوق جودة الله وصلاحه واختيارهما على نحو كامل خارج مجتمع من المؤمنين يعمل على نحو سليم مثلما هو الحال في داخله.

ويمكن تعريف الخطأ في الشخصية على نحو صحيح على أنه نموذج من التواصل وُضِعَ لحماية الذات من المزيد من الألم الشخصي، وحماية الذات تعد خطأ لأنها تعكس التزامًا بالعثور على الحياة اعتمادًا على الجهد الشخصي بدلاً من الإقبال إلى يسوع من أجل الحياة التي وعد بها (يوحنا ٧ : ٣٧ – ٣٨). والناس الذين يتبعون نموذج حماية الذات يشربون من آبار مشققة لا تضبط ماء نقروها بأنفسهم (إر ٢ : ١٣)، وبالنظر إلى أن هذه الأخطاء تكون ظاهرة بالأكثر عند التواصل الفعلي، فإن هذا النموذج يتطلب أن يجتمع الناس معًا من أجل غرض واضح وهو الكشف عن الخطايا الناجمة عن حماية الذات عند وقوعها. والذين يريدون أن ينموا يجب أن يُلزِموا أنفسهم بتقديم معلومات صادقة عن كيفية تعامل الناس معهم، وذلك في جو يسوده الدعم القوي، وبعد ذلك تُستَخدَم هذه المعلومات كمحفز لاكتشاف الصور الدفاعية والمعتقدات الحمقاء التي تشكل أساس نماذج معينة لحماية الذات، وفيما يتم الكشف عن التطلعات التي لم تتحقق، والتي كانت تهدف إليها المناورات الدفاعية ويتم الشعور بها (وهي عملية أليمة للغاية) تكون هناك فرصة للتوبة الجدية عن التزام المرء بحماية الذات والتعلق بالرب كرجائنا الوحيد في خضم ألم لم يُعثَر له على حل.

وأحسب أن نموذج الاكتساب / الأداء يؤدي - في أفضل حالاته - إلى محبة يفسدها الموقف الدفاعي غير الملحوظ، والافتقار إلى الحضور الذي يجذب الآخرين إلى شخص المسيح. ونموذج الشخصية من خلال المجتمع له القدرة على تقوية وعي الشخص بضعفه واتّكاله - بطريقة تعمل ببطء - على تحريره أكثر فأكثر من نماذج حماية الذات التي يتبعها في علاقاته وتزيد من إحساس الحضور الذي لا ينجم إلاّ من خلال الشركة العميقة بالرب.

وفي بقية هذا الفصل الأخير أود أن القي نظرة على جوهر الشخصية التقية، ما الذي يمكن أن يصير إليه الشخص المفدي حامل الصورة إذا اتّبع الرب بأمانة؟ وكيف يحدث هذا؟

جوهر النضج

نوعية الشخصية التي تجعل المحبة المرئية ممكنة، تنمو حين يتم الكشف عن الأشواق العميقة التي لا يمكن إشباعها بواسطة أية علاقة طبيعية، لكن مثل هذا الكشف يكون أليمًا؛ إنه يحطمنا ويختزلنا إلى اتّكال تام. وعلى ذلك تجدنا نهرب من هذه التجربة بدفن تطلعاتنا تحت حشد من وسائل الدفاع عن الذات، والتي صُمِّمَت كلها لمساعدتنا على الشعور بأننا أفضل حالاً. ولكي يحدث الانكسار الذي بمقدوره أن يجعل الشخصية قادرة على المحبة، يجب التعرف بكل دقة على استراتيجيات حماية الذات، ووصفها بالطريقة التي تظهر حقيقتها بأنها إعلانات شريرة ومتغطرسة عن الاستقلال عن الله، والتخلي عن هذه الاستراتيجيات يعرضنا للرعب من قابلية تعرضنا لألم فظيع، وعند التعرض لألم فظيع نقع فريسة إغراء قوي للتخلص من هذا الألم بوسائل ما. وإذا حدث عند هذه النقطة ـ حين يصل التحفيز على الاتّكال على استراتيجيات حماية الذات للخلاص من الألم إلى أقصى مداه ـ إن رفضنا الاستسلام، وفضلنا أن نتعلق بالأحرى بالله في اتّكال تام هنا تنمو شخصيتنا. وأغنى فرص نمو الشخصية لن تتأتى إطلاقًا دون اختبار الحقيقة المفزعة الخاصة بالاتكال التام، والتزامنا الطبيعي بإنكار الاتكال بذريعة حماية الذات يجب تحديه بشدة إذا أردنا لهذه الفرص أن تأخذ مجراها.

تحفل الحياة في عالم ساقط بالفرص التي تسبب الألم: مرض الأحباء، عدم احترام الأولاد لوالديهم، تخريب الخدمات بواسطة الزملاء، فقدان الوظيفة، الزوج الثاني أسوأ من الأول، التقدم في السن يحد من التمتع بالأنشطة السارة والهادفة، والسعي وراء الراحة يؤدي إلى إنكار الألم عن طريق التسلية للنسيان أو اللجوء لحلول وسط. لكننا حين لا نلجأ لهذا المسعى، وحين تُعطى الأولوية بكل وضوح للأمانة، هنا قد تأتي الراحة أو لا تأتي لكن الشخصية ستنمو.

وقد شبه الرب يسوع تطور الفرح الروحي بولادة طفل؛ أولاً الألم وبعد ذلك الفرح: «عند المساء يبيت البكاء، وفي الصباح ترنم» (مز ٣٠:٥). وبدايات الشخصية

النبيلة تأخذ شكلها حين يتعلق حامل الصورة بالرب في وسط الألم، ويتخلى عن مناورات حماية الذات، والمثابرة على التعلُّق بالله مهما كانت الظروف دون الاستسلام إلى التحفيز على حماية الذات هي الطريق السليم؛ إنه الموت عن الذات لكي نحيا.

ويُلاحَظ أن الطاعة الاختيارية تحتل المركز، ولا يوجد أسلوب «دع هذا الأمر، دع الله» والذي تصبح فيه الثقة نوعًا سلبيًا من الاتكال، وبدلاً من ذلك فإن فهم عملية التقديس هو الذي يعمق مسئوليتنا لإطاعة الله، ويضع الطاعة بشكل قاطع في مركز لكل الأمور. والقدرة على الطاعة تتأتى نتيجة إدراكنا الرهيب أننا بدون إمكانيات تؤمِّن سبل الحياة. واتكالنا على الله من جهة الحياة باعترافنا به وشعورنا به بقوة، وعدم اتّكالنا على أحد غيره هو شرط الطاعة الحقيقية.

والشخصية التقية يمكن تعريفها بأنها التي تثق في الله وبأن الأمور ستكون في يوم من الأيام كما يجب أن تكون. نحن في هذه الحياة الحاضرة نئن. هناك شيء خطأ بالنسبة لكل شيء. غير أنه في حياة الدهر الآتي سوف ننعم بطيب الحياة، ولن يكون هناك خطأ بالنسبة لأي شيء، وكل من المثابرة والفرح ينجمان من هذه الثقة، وإذ يضع الشخص الناضج عينه على مستقبل مجيد صار ممكنًا نتيجة ما حدث في الماضي (موت المسيح وقيامته) لذلك نراه يثابر في الحاضر بفرح. والثقة التي تحدد النضج لن تنمو إلاّ:

١- حينما نشعر الآن بقوة بحقيقة التطلعات التي لم تتحقق بعد.

٢- حين نعترف آسفين بعجزنا التام عن إيجاد الشبع اعتمادًا على جهودنا.

والنضج - أي الاتكال الفعلي - هو اعترافنا بالفقر والانكسار، وأن الحياة تسير ببساطة على النحو الذي نراه، وأنه ليس بمقدورنا عمل أي شيء لتغيير هذا الوضع، وأنه لا يتوفر لدينا ما يتطلبه الأمر لنحصل بأنفسنا على ما نريده. وفي خضم اعترافنا بعجزنا وضعفنا، واتخاذ القرار بألاّ نتجاهل الألم عن طريق الإنكار أو الحلول الوسط، والتوبة عن أي فكر بأنه يمكننا استعادة حياتنا دون الحاجة إلى نعمة الله، هو بداية الشخصية القوية. والشخصية التي تتمكن من محبة الآخرين، هي تلك التي تثابر بفرح مهما كان الحاضر أليمًا ومهما بدا المستقبل القريب رهيبًا.

ونتيجة الاتّكال على الله تنعم بالحرية في أن تمسك بزمام أمور حياتك، وأن تتعامل

بمسئولية معها دون أن يتحكم فيك خوف من الألم الذي قد تؤدي إليه طاعتنا، ونتيجة التمسك بالله هي الحرية في أن تحب. وثمة كنائس ومعاهد لاهوتية قليلة هي التي تعمل بوعي من أجل تعزيز النضج بحسب ما عرفته، ولا يوجد سوى القليل من المجتمع القوي الذي تحفز فيه المعلومات الصادقة على فحص الذات، وحيث يمتد القبول ليشمل الناس الذين يجاهدون. والتعامل مع حياتنا يتطلب شجاعة، والشفافية تفسد جهودنا التي ترمي إلى السيطرة ـ من خلال حماية الذات ـ على الصور التي نعرضها، غير أن المصارعة الأمنية مع الحياة سيكون من شأنها بداية عملية أليمة تؤدي إلى معرفة أعمق بالله، ومعرفة الله محطِّمة، مغيِّرة، معجِّزة، مجدِّدة، محيِّرة، مقوِّية ـ لكن معرفة الله هي الحياة، وبدون الله تُشوَّه الحياة إلى درجة تصبح معها غير محتملة، أما مع الله فإنه «يعظم انتصارنا»، نصبح أناسًا تمكِّنهم شركتهم مع المسيح من محبته ومحبة الآخرين، الأمر الذي جُبلنا من أجله.

خاتمة

يسوع حقًا هو الطريق

منذ فترة قليلة مضت، حضرت حلقةً دراسيةً كان يقودها طبيب نفسي شهير بعمله الرائد في العلاج النفسي الديناميكي، وبعد أن شاهدته وهو يعطى المشورة عن طريق الفيديو توزَّعت أفكاري إلى اتجاهات شتَّى.

أولاً: خرجت على يقين من قناعتي بأن هناك عمليات عميقة في شخصياتنا يجب التعامل معها إذا كان يراد تحقيق تغيير فعلي، وإنه من الخطأ الاعتقاد أن الجهد المنظم لعمل ما هو صالح - وليس أكثر من ذلك - سوف ينتج التغيير الأساسي المطلوب ليجعلنا أكثر شبهًا بالمسيح، كما أن الأساليب المعرفية - سواء كانت دنيوية أو أُضفي عليها الطابع المسيحي - أخفقت في التعامل بشكل كاف مع المعتقدات المهمة التي في النفس - وهي معتقدات تقويها تطلعات قلبية إلى الألفة يوجهها التزام عنيد بالنجاح في الحياة بمنأى عن الله. والنماذج السلوكية لتعزيز التغيير تهمل - وبدرجة مماثلة - الحاجة إلى وعي شخصي بالتطلعات (وهذا أمر ضروري إذا كان يراد التمتع بالعلاقات)، وكذلك بأهمية وتعقيد التوجيه الداخلي إلى وجهة جديدة. والتأكيد على المسئولية والتغيير المرئي أمر كتابي تمامًا، ولكنه لا يكون كذلك حين يحول الانتباه بعيدًا عن الأمور الموجودة في قلوبنا المخادعة، والتي تحتاج إلى توبة قوية واتكال يعرضنا للهجوم. ومن بين وظائف الكتاب المقدس أنه يكشف عن أفكارنا ودوافعنا التي لم نكن نعترف بها في السابق، ونتيجة هذا الكشف هو أنه يظهرنا بأننا عاجزون متكلون، ومن هذا يمكن أن تتأتى الطاعة الحقة.

والنظريات السيكودينامية بذلت - على الأقل - جهدًا ملموسًا للنفاذ إلى داخل الشخصية، وعلى الرغم من أن نموذجهم الخاص بالناس ينافس بشكل مباشر وجهة نظر كتابية، وكذلك النماذج المعرفية والسلوكية، إلا أنها مع ذلك تشجع النظرة الداخلية والتي لابد منها للتغيير الحقيقي، والتي لابد منها للتغيير الحقيقي.

ثانيًا: لقد شعرت بحزن ذلك أن قادة مشهورين على مستوى العالم في مجال تقديم المساعدات تراهم - في بعض الأحيان - يتعاملون بفاعلية تزعج النفس، لكنهم لا يقتربون إطلاقًا من جذور الأمور؛ ذلك لأنهم لا يستطيعون، وحين يتم كشف الحياة على حقيقتها فإن الخيارات المعقولة الوحيدة هي التوجه نحو يسوع، أو الانتحار، أو العودة إلى مستوى ما من الإنكار (وهذا لا يزيد عن بناء منزل على الرمال). والعلاج الدنيوي في أفضل حالاته يخفض خط الإنكار، وبهذا يعطي الناس القدرة على مواجهة وفهم الكثير مما هو حقيقي عن أنفسهم وعن الآخرين، وهذا فحسب يجعل المشورة الدنيوية أقل أذى من الكثير مما يطلق عليه مشورة كتابية؛ حيث يتم تقوية الإنكار بجهد أدبي متزايد، والجهد الأدبي في مواجهة الحقيقية يعكس الإيمان، أما الجهد الأدبي كوسيلة لتخدير الأجزاء المؤلمة من الحقيقية، فيُعد رياءً.

إنه لأمر مُحزِن أن نرى الدنيويين يتعاملون مع العالم الحقيقي بأكثر مما يتعامل المؤمنون، والمؤمن المسيحي فقط هو الذي تتوفر له إمكانيات الحياة دون إنكار، وبرغم ذلك فإن غير المؤمنين يعترفون بما يجري في حياتهم بأكثر مما يفعل المسيحيون، ولكنهم دائمًا يفشلون؛ فبدون الله لا بد وأن يتم - بطريقة ما - إنكار حقيقتين جوهريتين تتعلقان بالوجود البشري، والاعتراف بأي منهما يتطلب التحرك نحو المسيح باعتباره الرجاء الوحيد.

الحقيقة الأولى أننا قد جُبلنا لنختبر نوعية من العلاقة ليست متاحة في هذا العالم الساقط، وفي عمق أعماق كل نفس يوجد جوع لا يمكن إشباعه بالكامل إلا في السماء.

أما الحقيقية الثانية التي أُنكِرَت فتتمثل في الحقيقة الرهيبة التي هي الخطية؛ فوراء كل مشكلة غير عضوية تحرك واضح بعيدًا عن الله يتجه نحو الكفاية الذاتية، وهذا اتجاه اختاره الشخص وله دوره في خلق كل متاعبه ودعمها. وبدون تعلم معنى الاتّكال

التام على المسيح من أجل الحياة التي تشتهيها نفسي، والتوبة عن الحركة الخاطئة بالبعد عن الله، فكل تقدم يُعد سطحيًا بغض النظر عما يبدو عليه من أنه له مغزاه أو أنه مقنع؛ فالراحة من الأعراض، والطاقة المتجددة والعلاقات الأكثر صحية تُعد جيدة فقط بقدر ما تعكس من الحركة نحو الله، وإلا فإنها تدعم وهم الاستقلال... الوهم بأن الحياة يمكن أن تنجح بدون إقامة علاقة مع الله وبشروطه.

لقد غادرت الحلقة الدراسية التي كان يقودها الطبيب النفسي بانطباع ثالث، وهو أن العلاقة مع المسيح هي حقًا الإجابة الوحيدة لأسئلة الحياة. حين أشعر في بعض الأحيان بفراغ مفرط يشعرني بأن الالتزام المسيحي يبدو بلا هدف، أعرف أن ذهني لا بد وأن يتجه نحو قول بطرس: «يا رب، إلى من نذهب؟ وكلام الحياة الأبدية عندك» (يو ٦: ٦٨). وعلى الرغم أن قادة مسيحيين في كثير من الأحيان يعلمون هذا الحق بطريقة تُعيق الإنجيل، إلاّ أنه مع ذلك صحيح. وفي بعض الأحيان تجد الدنيويين مصرين على أن يواجهوا بأمانة معتقدات الحياة المزعجة، في حين أن المسيحيين يرددون عبارات محفوظة تطرد الأسئلة الحقيقية من القلب، وكان من نتيجة ذلك أن غير المسيحيين كثيرًا ما كانوا يساعدون الناس على حل مشاكلهم العاطفية بشكل أكثر فعالية من المسيحيين.

غير أن كافة جهودهم كانت خاطئة وبشكل خطير فبدون المسيح لا توجد حياة، تقاليد مؤقتة فحسب وأي شيء يزيف الحياة، وبذلك يشجّع الناس على مواصلة حياتهم دون اللجوء إلى الله يعد خطأ خطيرًا.

ويجب أن يكون المسيح هو جوهر كل جهود المساعدة، والإنجيل هو حقًا أخبار سارة، وحين تُكشَف متاعب الناس الداخلية، وحين يتم الشعور بالتطلعات التي لم تتحقق وبطريقة تؤدي إلى ألم طاغ، وحين يطغي التمركز حول الذات على كل تحفيزات الإنسان عندئذ (وليس قبلَ ذلك)، يمكن تقدير معجزة الإنجيل على نحو صحيح. تكافح النساء ضد فقد الشهية إلى الطعام، ويتساءل الأزواج عما حدث لمشاعر المحبة، والرجال، فمَن هم في منتصف العمر يشعرون بالقلق والخمول، أما الشباب فإنهم يشعرون بالذعر فيما يواجهون مطالب الحياة، وآخرون يتسلون - عن كره - للتحفيزات الجنسية المنحرفة، ورسالتي لهؤلاء، ولكل واحد منا، هي ببساطة أنه توجد حقًا حلول.

والمشورة المسيحية بوسعها أن تكون نافعة في بعض الأحيان، والعلاج الدنيوي قد يكشف عن هموم خفية تحتاج إلى العناية بها، وحضور الكنسية، الصلاة، دراسة الكتاب المقدس، والشهادة للمسيح يجب أن تشكِّل جزءًا من حياتنا، والإصرار المتجدد على أن نعمل ما هو صواب أمر لا بد منه، لكن الإجابة عن كل الأسئلة المتعلقة بالحياة نجدها في العلاقة بالمسيح، وهي علاقة شخصية تتمكن من الإنسان فيدخلها في لحظة، لكنها تتطلب سنوات طويلة وصعبة حتى تنمو.

وخوفي العظيم فيما أسطر هذه الكلمات، هو أن يُساء فهمي، وأن يُنسب إليّ ما لا أقصده، والكثيرون ممن يرفضون شعار «المسيح هو الحل» يتعاملون مع شخص يعاني من تشوش شديد بطريقة مزعجة وساذجة قد تؤدي إلى تفاقم المشكلة، ومجرد قولنا لشخص يعاني من الاكتئاب وهو على فراش المرض أن المسيح يمكن أن يشبع كل أشواق نفسه، سيكون لذلك نفس التأثير الذي يحدثه صوت واحد في انتخاب قومي: وهو أنه مهم لكن الأمر يحتاج إلى أكثر من ذلك بكثير لكي نتغلب على هذه المشكلة. وإني أكره فكرة أن هذا الكتاب قد يشجع القساوسة على أن يقدموا المشورة لمن يعانون من رهاب الخلاء، أو من يمارسون الجنس المثلي، أو الشخصيات الواقعة على الخط الفاصل بين الأسوياء وغير الأسوياء، أو الزوجات المكتئبات، بنصيحتهم فحسب بأن يثقوا في المسيح وأن يأخذوا الطاعة بمحمل الجد.

أما الذي يعيب هذه النصيحة هو أنه نادرًا ما يستمع أحد إليها، والعمل الصعب المتعلق بـ

(١) اكتشاف جوهر تطلعات النفس عن طريق مواجهة الإحباطات الخاصة بالعلاقات.

(٢) فهم دقائق النماذج السلوكية الخاصة بحماية الذات. كشرطٍ مُسبَقٍ للتوبة يتطلب. حرث الأرض لكي تضرب بذور الثقة والطاعة. وتقديم المشورة والتلمذة لا يمكن اختزالهما في برنامج يتكون من خمس جلسات، ومساعدة الناس على معرفة الرب بطريقة تغير الحياة تتطلب مستوى من التشابك معهم يتسم بأنه مشوش muddled، محبط، مثير، يشكل عبئًا، ويتطلب التحمل.

لكن عملية الانخراط عن وعي يمكن أن تؤدي إلى الإدراك العظيم بأن المسيح حقًا هو الحل، وفي عمق نفوسنا ـ وهي منطقة قليلون هم الذين سبق أن دخلوها بوعي ـ يتطلع كل منا إلى نوعية من المحبة التي لا يستطيع أن يقدمها سوى المسيح، ونحن نتطلع إلى أدراك قيمة شيء آخر متوافر في تلك العلاقة وليس في أي مكان آخر. وحين ندخل الجزء المخفي، والذي نشعر فيه بتطلعاتنا بقوة، وحيث تنكشف فيه غطرسة رفضنا الثقة في الله بكل ما يمثله ذلك من بشاعة، هنا تبدأ حقيقية أن المسيح هو الحياة في أن تتملكنا بكل قوة. والطريق إلى النضج طريق طويل، وشاق، ومرتفع، غير أنه يمكن قطعه، وهو يستحق ما يُبذَل في سبيله من عناء، وطريق الحياة يبدو في بعض الأحيان مثل طريق الموت. والدخول بعمق أكثر في تطلعاتنا التي لم تتحقق، والكشف بمزيد من الدقة عن خطية حماية الذات، أمر أليم، غير أن إدراكنا للألم وإدراكنا للخطية يمكن أن يؤديا بنا إلى مستويات من التوبة والطاعة أكثر عمقًا.

ويوجد طريق للحياة، وربنا يسوع هو ذلك الطريق، وهو الحق الذي يحررنا لكي نقبل إليه، وهو الحياة التي بوسعنا أن نتذوقها الآن، وننغمس فيها بحرية وبشكل كامل في طريقنا إلى الأبدية وفي كل شيء، بما في ذلك تقديم المشورة يجب أن تكون للمسيح الأولوية المطلقة والمكانة الأولى.

ملحق

نقاط القوة والضعف في النماذج الديناميكية والأخلاقية والعلاقاتية

قد يكون من المفيد أن نتأمل كلاً من نماذج البشرية الثلاثة (الفصل الخامس) لنعرف أيًا من عناصر الشخصية الأربعة (الفصل السادس) تؤكدها أو تنكرها، وكفاية كل نموذج في سبيل فهم الناس يمكن قياسها بمدى الفاعلية التي أُخذ بها كل عنصر من العناصر الأربعة في الحسبان (الشخصية، العلاقاتية، الإرادية، والعاطفية)

	شخصية	علاقاتية	إرادية	عاطفية
الفاعلية (الديناميكية)	+	+	—	+
الأخلاقية	—	+	+	—
العلاقاتية	+	—	—	+

والنموذج الديناميكي ينبري على الأعمال العميقة للشخصية الإنسانية، ويولي بعض الاهتمام لكل من عمليات الفكر والمشاعر، وعادة ما يولي تنبيرًا قليلاً لدور الاختيار المسئول، وأحيانًا ما يشكك فيه تمامًا.

ويبرز النموذج الأخلاقي أهمية الاختيار، ويصرّ على أن البشر قبل كل شيء آخر مسئولون عن أعمالهم، وأحيانًا يشير إلى أهمية الكيفية التي يفكر بها الناس، ولكنه يولي اهتمامًا قليلاً بالتطلعات العميقة والمشاعر، حيث يرى أن التأكيد على العواطف يتيح الأعذار لعدم المسئولية (لم أستطع منع نفسي من الصراخ، لقد تملكني الغضب).

ويركز النموذج العلاقاتي معظم اهتمامه على الكيفية التي يشعر بها الناس في اللحظة الحالية، وأحيانًا يشجع الحركة في أي اتجاه يؤدي إلى مشاعر إيجابية عن الذات

وعن الآخرين، ويعطى هذا النموذج دورًا ما للتطلعات العميقة، ودورًا قليلا جدًا للاختيار، بل وأقل من ذلك لعمليات التفكير والمعتقدات، وفي صيغته الصارمة يقول: «إذا شعرت أنه جيد اعمله». وقد يلاحظ أنه حين يتم تجاهل أي من سمات الشخصية الأربعة عن طريق رؤية غير متوازنة للناس، تكون العواقب بالغة الأهمية. والمشيرون الذين لا يولون أهمية تذكر للعلاقات العميقة، يميلون إلى أن يصبحوا غير علاقاتيين، سطحيين، تعوزهم الحيوية، متحفظين ومتباعدين حينئذ تنتعش الحرفية في مثل هذا الجو.

وحين تفتقر قدرتنا على التفكير إلى التأكيد، يصبح تقديم المشورة في كثير من الأحيان بحثًا متهورًا، ويمر عمى الناس دون مبالاة من أحد دون تطوير للتحرك نحو الله.

وإذا تم تجاهل القدرات الإرادية تؤدي المشورة إلى شخصية ضعيفة؛ حيث ينتظر الناس أن يحدث التغيير لهم بدلاً من أن يتحملوا مسئولية القيام بواجبهم كأدوات للتغيير.

وحين تُنَحَّى المشاعر جانبًا من أجل عمل ما هو صواب، يتحول الناس إلى آلات لا تدري إلا القليل عن القوى التي تتمتع بها شخصيتهم، ويمكن أن تعمل المشاعر كنافذة للأجزاء العميقة التي بالداخل، وإذ تُغلَق النافذة يُفقَد العمق.

ملاحظات

١ . مما يجدر ذكره أن «إيريك فروم» هو الذي وضع وروج الفكرة القائلة بأنه بعد أن يكون المرء قادرًا على أن يحب نفسه، يصبح قادرًا على أن يحب الآخرين.

الفصل الأول

١– ج. روبرتسون ماك كويلكين the Behavioral Sciences Under the Authority of Scripture (ورقة بحث تمت قراءتها في الجمعية اللاهوتية الإنجيلية، جاكسون، مسيس.، ٣٠ ديسمبر ١٩٧٥)

الفصل الثاني

١ . چون كالڤن، The Institutes of the Christian Religion

تحرير : توني لين ، هيلاري أوسبورن (لندن، هودر، ستوتون ١٩٨٦) ص ٣٩ ـ ٤٠

١– أعمال «جاى آدمز»، «تشارلز سولومون» من المعروف أنها استثناءات.

٢– ما من نموذج للمشورة نهائي أو قاصر على أفراد قلائل، يمكن أن يضعه الإنسان الساقط المحدود، وأفضل نموذج دائمًا تكون له أطراف ممزقة، والتي لا يمكن صقلها جزئيًا إلا من خلال الانفتاح على تفكير جديد ومعلومات جديدة.

الفصل الثالث

١– المعلومات والنظريات الخاصة بعلم النفس، قد تؤدي وظيفة مفيدة، ولا يقتصر ذلك على مساعدتنا في التعامل مع أمور مثل معرفة الإعاقات أو علاج المصابين بالذهان (الاضطراب العقلي) فقط، بل وأيضًا في تحفيزنا على إلقاء أسئلة محفزة حول ما يحدث مع الناس، وكيف نرد بمزيد من الكفاية، ولكن ـ ويجب التشديد على بيان أن هذا هو الفرق الجوهري بين الموقفين (١، ٢) ـ الكتاب المقدس وحده هو الذي يكفي لتقديم إجابات ونوعيات يُعتَد بها للتفكير في تحديد الكيفية التي يجب أن تكون عليها الحياة، وكيف يمكن أن نحياها، ويؤكد (الموقف ٣) سلطان الكتاب المقدس وكفايته.

٢– في الجزء الثاني من هذا الكتاب وضعت نموذجًا لفهم الناس، وهو نموذج يدعم قناعتي بأننا جميعًا ـ حتى أكثر الناضجين منا ـ مازلنا نتصارع مع أمور لها أهميتها يحتاج الأمر إلى أن نتناولها في سياق مجتمع كتابي.

١- وكما قلت لقد رفض «فرويد» أن ينظر إلى الكتاب المقدس، وأخشى أن أبدو كمن يبسِّط الأمور أكثر من اللازم بقولي: «لو كان فرويد قد قرأ فحسب الكتاب المقدس، لكان على خير حال» . وإنني اعتقد أن نظرية علم النفس الديناميكي تُعد محفِّزةً وقيمةً من ناحية التعرف على عناصر في شخصية الإنسان فشل كثيرون من اللاهوتيين في التعرف عليها. ولو كان «فرويد» قد قرأ الكتاب المقدس، فلست أظن أنه كان سيصبح مسيحيًا نمطيًا ذا توجه نمطي، بل كان سيصل إلى مفهوم أكثر دقةً عن بنية الإنسان الداخلية، بما في ذلك إدراكه أن الخطية هي مشكلة الإنسان الأساسية، ولقدَّر تطلعات النفس العميقة التي تتلهف إلى إشباعها، والجزء الثاني من هذا الكتاب يتناول هذه الأفكار بمزيد من الدقة.

٢- في كتابي «المشورة الكتابية الفعالة» وصف لثلاثة مستويات من المشورة، ويتضمن المستوى الثالث ما يُقصد عادة من كلمة «علاج».

٣- يمكن ملاحظة أنه كلنا ابتعدنا عن العبارات المباشرة في النص الكتابي، زادت مساحة الخطأ التفسيري. والأقوال التفسيرية ـ تلك التي تؤكد معنى نص معين ـ هي الأقرب لكلمات الكتاب المقدس الفعلية، وليس للأقوال اللاهوتية، وحين ندرس مضامين المقولات اللاهوتية تجدنا لا نزال بعيدين عن النص، وعلينا أن نكون أكثر تجريبية في صيغنا.

٤- تعريف «الحياة المهذبة» يعتمد على المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان؛ ففي بعض الأوساط المسيحية يُحدَّد النضج الروحي على ضوء تحريم شرب الخمر، الرقص، والذهاب إلى السينما، وفي أوساط أخرى تسمح القواعد بشرب الخمر في المناسبات الاجتماعية، لكنها تشدد على حفظ السبت (عدم لعب التنس أيام الأحد)، وفي جهات أخرى تعد اللغة المتسيبة، أفلام السينما ولعب التنس يوم الأحد من الأمور المقبولة، غير أن تبني قناعات تعبر عن عبارات الإدانة مثل «ضيق الأفق» تعد من الأمور غير المسيحية، وفي كل حالة تُقاس حالة القلب على أساس توافقه مع المعايير الخارجية المرئية.

الفصل الخامس

«Introduction to Personality and Psychotherapy» من تأليف «جوزيف ف. رايكلاك» (الطبعة الثانية، بوسطن: هوتون ميفلن ١٩٨١ م).

الفصل السادس

١- كتاب «ج.أ. بيكر» «knowing God» (دونرز جروف) الجزء الثالث انترفارتى ١٩٧٣ ، ص ٨٩.

٢- كتاب «ج. أوليفر بزويل» «Systematic Theology» (جراند رابيدر، زوندرڤان، ١٩٦٢) ١ : ٢٢٢ .

٣- كتاب «لويس سبري شافر» «Systematic Theology» (جراند رابيدر، زوندرڤان، طبعه ثانية ١٩٨١، ٢: ١٦٠)

٤- المصدر السابق ، ص ١٦٨.

٥- «لويس بيركوف» «systematic theology» (جراند رابيدر، وليام .ب. اردمانز ١٩٧٨، ص ٢٠٤).

الفصل السابع

يجب أن نتذكر أن هذه الآية قالها رجل أنكر بشاعة الخطية متسترًا وراء قناع البر الذاتي الذي نزعه الله بقوة، اقرأ (صموئيل الثاني ١٢ : ١- ١٣).

الفصل الثامن

١- «ريتشارد لفليس» «Dynamics of Spiritual Life» (دونرز جروف ٣ ، انترفارستى، ١٩٧٩، ص ٨٦-٨٩).

٢- في حالتنا الساقطة يشارك كل تطلع مشروع في الفساد، ولن تكون التطلعات أبدًا نقية حتى نكون في السماء، وتدفعنا تطلعاتنا إلى اتجاهات قد تكون غير مشروعة وخاطئة، والتجديد الذي يتحدث عنه الكتاب المقدس لا يتضمن تقليل كثافة تطلعاتنا المشروعة ولكنه ـ وبشكل تدريجي ـ سينقي تطلعاتنا حتى تتطلع أكثر فأكثر إلى الله.

٣- حين أتكلم عن الصور، فإنني بهذا أناقش شيئًا مختلفًا تمامًا عن التصوير الذي أوصى به مفكرو الاحتمالات، وأصحاب المبدأ الإيجابي والصارخون الأوليون. وهؤلاء

الناس يعتبرون التخيل أداة لفك شفرة إمكانية التقوى في داخلنا لنخلق في الواقع أي شيء نرغبه. ومن وجهة نظري أن حاملي الصورة الذين سقطوا في الخطية يستخدمون قدرتهم على التخيل بطرق من شأنها أحيانًا أن تقوي التزامهم الخاطئ بالاستقلال، والتوبة عن هذه الصور أمر مطلوب، وليس التخلي.

الفصل التاسع

١- التعليم الخاص بالطبيعتين في الأوساط المسيحية يعبر عن نفس الفكرة، هناك «أنا» (الشخص الذي أكونه حقًا في المسيح، طبيعتي الجديدة التي هي كاملة، كما يوجد «أنا» (الشخص الذي اعتدت أن أكونه، طبيعتي العتيقة والتي هي فاسدة تمامًا)، وهناك حرب أهلية بين قوتين تستعر بصفة دائمة داخل جسدي، والنتيجة هي «أنا» الحقيقي يصبح وسيط بين الطرفين المتحاربين، محاولاً تشجيع الجندي الطيب، والعمل على إخضاع الجندي الشرير، وليس شخص واحد مسئولاً عن اختيار طريق الاتكال أو الاستقلال في كل لحظة.

٢- ويجب أن أشير إلى أن التشابك الصفوح مع زوج مؤذ، قد يعني استدعاء الشرطة وتوجيه الاتهامات، والالتزام الكتابي والماسوشية أمران مختلفان.

الفصل العاشر

١- ويجب ملاحظة أن خسارة الإرادية الملموسة يمكن اختبارها معًا بقوة في ناحية من نواحي السلوك، وقد تكون إحساسًا عامًا بالعجز، وكثيرًا ما يكون هناك شبكة من أهداف غير مدركة تحت الخسارة الملموسة للإرادية.

٢- هذه الكلمات تأتي سهلة، والواقع أن مواصلة المسيرة نحو الهدف عندما نُحرم من الكثير مما تحبه، ليس بالأمر السهل، والنضج تصاحبه لحظات من الألم تشبه جهنم ذاتها، لا توجد إجابات سهلة.

الفصل الحادي عشر

١- قد نلاحظ نقطتين من التعقيد: (أ) تحديد ما إذا كان حدث ما سارًا أم بغيضًا، لا يكون دائمًا أمرًا سهلاً، ولعلنا نكون على صواب في تفكيرنا أن الأحداث التي تعكس طبيعة الله وتتناغم مع قصده الأساسي، تُعَد أحداثًا سارة؛ وعلى ذلك فإن الأحداث البغيضة تمثل انتهاكات لطبيعة الله وقصده.

(ب) والحدث - مهما كان سارًا - لا يمكن أن تتولد عنه عاطفة محبة خالصة، ذلك أنه حتى أفضل الأحداث تفتقر دائمًا إلى شيء ما. والعواطف السارة - بالنسبة للمسيحيين - تأتي دائمًا ممزوجة بالأنين تلهُّفًا لليوم الأفضل المنتظر. وكذلك الأحداث البغيضة تثير أيضًا مشاعر مختلفة، ولا سيما بالنسبة للمؤمنين. وفي وسط المتاعب، فإن عدم توقع المزيد من المتاعب يريح القلب، ومعرفة أن خطة جيدة جاري تنفيذها تولد فرحًا بعد حزن.

٢- وأود أن أذكر أن تقلبات مرحلة النضج لا تتضمن ردود فعل طائشة، أو اكتئابًا يسلب المرء قدرته، والعواطف في الشخص الناضج تشكل جزءًا من دفق عميق، ووراء كل شعور ينتاب المرء يوجد إصرار تام على مواصلة التحرك في اتجاه قويم، ولا يُسمح للعواطف القوية في الشخص الناضج أن تتدخل في هذا التحرك لمدة طويلة.

الفصل الثاني عشر

١- يجب ملاحظة أن النماذج الكتابية للتواصل في عالم ساقط، كثيرًا ما تسبب الخلاف والانقسام حتى بين المؤمنين أنفسهم؛ وعلى ذلك فقد تبدو غير محبوبة وغير كتابية، وعلى الرغم من أنه ما من أحد يعمل دون قدر ما من حماية الذات الدفاعية، فإن أولئك الذين تقل عندهم النزعة الدفاعية يميلون بالطبع إلى النزعة الهجومية من تعاملهم مع أولئك الذين تزيد عندهم النزعة الدفاعية.

٢- متى ١٠ : ٣٨-٣٩ ، ١٦ : ٢٤-٢٥ ، مرقس ٨ : ٣٤-٣٥ ، لوقا ٩ : ٢٤ ، ١٤ : ٢٦-٢٧ ، ١٧ :٣٣ ، يو ١٢ :٢٥.

خاتمة

١- العلاج النفس الديناميكي قصير الأمد، يعد نوعية حديثة من التحليل النفسي المستقيم المستخدم في الطب النفسي، المستقيم والذي يشدد على مزيد من العمل التفسيري الإيجابي (وأحيانًا ينزع للمواجهة)، وعلى الرغم من بزوغ الكثير من الأساليب المماثلة إلا أنها تشترك في الاهتمام بانتقاء المريض، والاعتقاد بأن المشاكل التي يتم التركيز عليها يمكن معالجتها في فترة قصيرة نسبيًا، والالتزام بالنظرة السيكولوجية الديناميكية للشخصية الإنسانية.

قالوا عن هذا الكتاب :

الكتاب المقدس وبخاصة العهد الجديد كما يقول كثيرون من المفسرين كتاب علائقي، يعني بشتي أنواع العلاقات، لدرجة أن كلمة بعضنا بعضا ذكرت في العهد الجديد نحو ٥٥ مرة. والقديس مكاريوس الكبير- من آباء القرن الرابع- يقول «إنما خلاصك من خلال أخيك» أي أنني لن أخلص إلا من خلال علاقة مع الآخر ولكن أمراضنا التي سببتها الخطية والتشوهات النفسية التي تعرضنا لها أساءت إلى العلاقات جداً ونحتاج بشده إلي شفاء هذه العلاقات نفسيًا وكتابيًا حتي نستطيع أن نفرح ونسعد بخلاصنا. فالكتاب المقدس هو المرجع النهائي الذي تقاس عليه كل النظريات النفسية. **الكتاب الذي بين يديك يناقش هذه الفكرة باستفاضة ونحن نؤكد أن الكتاب المقدس بتفسيره الكنسي وبخبرات الآباء التي ترشدنا بأي الآيات الكتابية نستعين. فهو الوسيلة القوية الفعالة في الشفاء. بالإضافة إلي المعرفة بشئون النفس وتطورها الطبيعي التي سمح لنا الله أن نعرفها كعلم مجرد. أضمن لك متعه جزيلة في قراءة هذا الكتاب.**

د. نبيل نصري جوني

مدير مركز العائلة المقدسة

لأكثر من سبعين عاماً الآن والكنيسة المعاصرة تحاول فهم العلاقة بين الكتاب المقدس وعلم فهم الإنسان (علم النفس). بعض الأصوات في الكنيسة ترى أهمية علم النفس في فهم الإنسان واحتياج الكنيسة لهذا الفهم، والبعض الآخر يرفض تماماً أهمية علم النفس بالنسبة للكنيسة. المؤلف يتناول هذا الصراع ويحاول أن يقدم تصوراً خاصاً لعلاقة اللاهوت مع علم النفس. يؤكد الكاتب على **أهمية الكتاب المقدس في فهم الإنسان ومساعدته في فهم نفسه وفي عملية الخلاص**، لكنه في ذات الوقت يدعو الكنيسة لعدم رفض ما يقدمه لنا علم النفس من مفاتيح لفهم الإنسان. **القارىء لهذا الكتاب** يحتاج أن يتوقف ويحلل بدقة بعض نظريات المؤلف، لأنه قد يجد نفسه أحياناً يتفق معه وأحياناً أخرى يختلف. لذلك ونحن نقرأ هذا الكتاب لا ينبغي أن نأخذ كل الآراء المقدمة فيه على أنها مسلمات غير قابلة للنقاش أو الحوار.

د. سامي فوزى

ماجستير اللاهوت والمشورة الرعوية

أوهايو - الولايات المتحدة الأمريكية



لست أعرف من الكُتاب مَن لديه نظرية- تختص بالمشورة- كتابية وعملية مثل لاري كراب. فليس التواصل الفعَّال مع الناس كتاب للمشيرين فقط، لكنه لكل هؤلاء الذين يبغون ربط المفاهيم الكتابية بالحياة اليومية.

د. هاورد ج هندريكس

أستاذ بمعهد دالاس للاهوت



مركز بيت الحياة
House of Life Center